جمعية أولي العزم الدينية
لجنة الدعوة و التراث

اسرار القران

الجزء السابع

الامام ابى العزائم

تفسير اسرار القران
الجزء السابع

قوله تعالى : **"لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ"**(83).

بعد أن بين الله تعالى خبث اليهود وعنادهم الذي اقتضى قتل بعض أنبياء الله ، وتكذيبهم وصدهم الناس عن الإسلام ، وكيدهم لرسول اللهε ، بين لنا حقيقة نجهلها ، لأن اليهود أخزاهم الله أهل كيد ومكر ، فكانوا يخدعوننا بما فطروا عليه من الشر والضر.

فقال سبحانه : "لتجدن" أي والله لتجدن لأن الكلام هنا للقسم والفعل مؤكد، فالخبر من الله تعالى وهو الصادق جل جلاله ، ومؤكد بالقسم وبنون التوكيد فبلغ نهاية التأكيد ، أى والله لتجدن يا محمد أنت وأهل الإسلام معك أشد الناس عداوة – أي من أشد الناس فى العداوة والبغضاء والكيد والخداع للذين آمنوا – أى لك وللمسلمين معك "اليهود" وهو بنو إسرائيل ، لأنهم من عهد موسى عليه السلام وهم أعداء الحق وعباد الأهواء والأطماع مع ما أظهر الله لهم على يد موسى من المعجزات الباهرات التى تجعل أهل التسليم من أكمل الناس إيمانا بأقلها أعجازا ، وبعد هذا البيان من الله لا تجد مؤمنا على بصيرة يركن إلى يهودي ولو كان أباه أو أخاه أو ابنه ، وكل من يدعى الإيمان ويميل قلبه لليهود يمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

"وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا" أي الذين عبدوا الأصنام والشمس والقمر والنجوم، ولك أن تقول كل من عبدوا غير الله مطلقا ، وذلك لأن اليهود أخزاهم الله كذبوا رسل الله من قبل خاتم الأنبياء وقتلوا بعضهم ، وقد هموا بقتل رسول اللهε بإلقاء حجر الطاحون عليه من فوق الجدار لولا أن الله سبحانه وتعالى حفظه وحفظ أصحابه معه كما تقدم ، وقد وضعوا له السم فى ذراع الشاه لعلمهم أنه يأكل الذراع ، وكم حاربوه سرا وجهرا صلوات الله وسلامه عليه فأنجاه الله وخذلهم.

وأما الذين أشركوا فأنهم كذبوا الله ورسوله ، ولا ينبغي لمسلم أن يتودد إلى من كذب رسول اللهε ولو كان أباه أو أخاه أو ابنه ، وهذا البيان من الله تعالى هو الميزان الذى توزن به همم أهل الإيمان ، ولذلك فإن بعض العلماء كان يقول "اللهم لا تجعل لكافر على يدا ، فيميل قلبي إليه ، واجعلني حربا على من حاربك وسلما لمن سالمك".

"وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى" سبب نزول هذه الآية الشريفة أن وفدا من الحبشة أرسله النجاشي إلى رسول اللهε ، وكان عددهم خمسة من القسس وسبعة من الرهبان ، فلما دخلوا على رسول اللهε وقرأ عليهم القرآن بكوا مما عرفوا من الحق وآمنوا وأسلموا، وبلغ النجاشي فأسلم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وسبب إرسال الوفد أن رسول اللهε أمر بعض المستضعفين فى مكة من المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة ، فهاجر جعفر بن أبى طالب وعثمان بن مظعون ومعهما بعض فقراء الصحابة ، فلما علمت قريش بذلك أرسلوا رجالا منهم إلى النجاشي يبغضونه فيهم لقتلهم ، فقام رهط تحت قيادة عمرو بن العاص – قبل إسلامه – فوصلوا الحبشة قبل الصحابة ، لأن الصحابة كانوا يمشون على أرجلهم

غالبا ، فلما وصل عمرو إلى النجاشي أخبره كذبا عن رسول اللهε وأخبره أنه أرسل إليه وفدا يجب عليه أن يرده أو يقتله ، قال النجاشي إذا حضروا نتبين ، فلما وصلوا إلى باب النجاشي ، أمر الحاجب أن يستأذن الملك فيقول أو أولياء الله بالباب ، فلما أخبره الحاجب ، قال مرحبا بأولياء الله وأهله واستقبلهم ، فلما جلسوا أمامه دعوه إلى الإسلام ، فقال ماذا يقول صاحبكم فى "عيسى" ، فقالوا يقول أنه كلمة الله وروح منه ، وقال وما يقول فى أمه مريم ، قالوا يقول والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ، فأسلم النجاشي وصدق ، وأرسل وفدا من عنده إلى رسول اللهε ، وبذلك أخزى الله وفد قريش فرجعوا خاسئين.

ومعنى الآية "**وَلَتَجِدَنَّ**" يا محمد من أقرب الناس مودة لكم الذين قالوا أنا نصارى ، ثم بين الحكمة بقوله – ذلك – أى ذلك الحب – لأن المودة هى الحب ، فذلك الود والحب "**بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ**" والقسيس فعيل وجمعه قسس أو قساوسة ، والقس فى اللغة هو العالم الزاهد ، "**وَرُهْبَانًا**" أى ومنهم الرهبان ، والراهب هو الذى ترهب فامتنع عن ملاذ الدنيا ، "**وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**" على الحق لما جملهم الله من القابل للحق ، والكبرياء صفة الله تعالى ولا يتصف بها إنسان إلا إذا كان جاهلا بالله كافرا به.

قوله تعالى : "**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**"(83).

أي وكذلك من صفات القسيسين والرهبان الذين هم على ما كان عليه عيسى عليه السلام سرعة الاستجابة للحق ، وإذا سمعوا ما أنزل على الرسول – أي القرآن – سواء سمعوه منهε أو من ورثته العلماء "**تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ**" فرحا بما ظفروا به من الحق الذى ينشدونه ، والعين قد تفيض الدمع فى الحزن والفرح ، قال العربي :

يا عين قد صار البكا لك عـــــادة

تبكيـن فـــي فـــرح وفى أحـــــزان

وفي قوله تعالى : "**مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**" أي من أجل معرفتهم بالحق الذى تلقوه عن عيسى عليه السلام ومن صريح الإنجيل الذى بشر ببعثة خاتم الأنبياء من ولد إسماعيل ، ومما عرفوه من التوراة عن موسى الذى بشر أيضا ببعثة رسول اللهε ، وهؤلاء من النصارى هم الذين طهرهم الله من الطمع والحظ وحب الجاه والشهرة والسيادة فى الدنيا ، وغيرها من الموبقات التى سلبت الإيمان من قلوب غيرهم.

وإن كان وفد النجاشي سبب نزول الآية إلا أن خبر الله تعالى وحكمه على النصارى عام ، وكم أسلم جماعات من النصارى فى بلاد مصر عند الفتح، وفى غيرها عندما سمعوا القرآن وعرفوا مقام عيسى عليه السلام فيه بعد أن كانوا يعلمون ما فى الإنجيل الصحيح من البشائر برسول اللهε ومن الدعوة إلى توحيد الله بصريح الإنجيل فى قول عيسى عليه السلام : "اعبدوا أبى وأباكم الذي في السماء" فجعل نفسه عبد لله معهم وبعد قوله فى الإنجيل : "من آمن كإيماني فليعمل كأعمالي وأكثر" يشير إلى أن نعمة الله تعالى عليه بالإيمان سخر الله له بها كل شئ ، فإن الله خلق السموات والأرض وما فيهن مسخرة للعبد المؤمن الكامل الإيمان ، حتى جعل له المشيئة عنده سبحانه فى يوم القيامة ، قال

تعالى : **"لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ"**[1] ، وقال تعالى : **"لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا"**[2] ، فمن آمن باليقين الحق كإيمان عيسى عليه السلام ، يحيى الموتى ، ويبرئ الأكمة والأبرص ، ويخبر عن الغيب ، ويمشى على الماء ، وإذا أدرك زمان رسول اللهε منح ما منحه عيسى وأكثر ، فإنه يمشى على الهواء أيضا ، وكم سمعنا برجال مؤمنين يكون الرجل منهم فى بلاد الهند فى صباح التاسع من ذى الحجة ويدرك الوقوف على عرفة بعد زوال الشمس فى يوم عرفة ، ولا حرج على فضل الله ، فإن الله أسرى بحبيبه من مكة إلى بيت المقدس ، وعرج به من بيت المقدس حتى أشرف على القدس الأعلى فى ليلة الأسرى.

"يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ" الجملة حالية ، ومعنى الآية الشريفة : أن قسس وفد النجاشي وأحباره لما أن تشرفوا بالجلوس أمام رسول اللهε وسمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع فرحا بنعمة الله عليهم بالإسلام ، حال كونهم يقولون "ربنا" أى يا ربنا صدقنا رسولك محمدε فيما جاءنا به من عندك ، فأقبل إيماننا الذى هو الأصل فى الفوز بما لديك "فاكتبنا" أى أثبتنا مع الشاهدين من أمة هذا النبي الكريم الذى بشرتنا به علي لسان موسى وعيسى ، وبأن أمته يكونون شهداء على الناس يوم القيامة، أو اكتبنا مع الشاهدين الذين يشهدون لك بالألوهية والوحدانية ، أو اكتبنا مع الشاهدين الذين يمنحهم الله شهود ملكوت السموات والأرض كما منحت خليلك إبراهيم عليه السلام.

والتأويل الأول الذى هو واكتبنا مع أمة محمدε الذين يكونون شهداء يوم القيامة على الناس يدل على رسوخهم فى العلم برسول اللهε .

قوله تعالى : **"وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ"**(84).

هذه الآية بيان من الله تعالى بما اعتراهم من جواذب الحق إقبالا عليه جل جلاله ، وهو إنكار شديد للامتناع عن الإيمان فى جملة حالية ، وتأويلها وما يمنعنا عن التصديق بالله تعالى الذى أنفرد بالألوهية والربوبية وهو الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد.

"وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ" الواو هنا للحال ، وما وصلتها جملة حالية ، أي والحق الذى جاءنا من الله تعالى ، وهذا الحق هو محمدε ، وما جاء به إلى الخلق من الله تعالى ، ومن انكشفت له تلك الحقائق انجذب إلى الإيمان جذبة الموقنين ، ويكون من العجب العجاب امتناعه عن قبول الإيمان بعد قيام الحجة ووضوح المحجة.

"وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ" هذا الخبر من الله عنهم دليل علي كمال أدبهم ورسوخ قدمهم فى المعرفة ، فإن أمثال هؤلاء لهم كفلان من رحمة الله ، لأنهم آمنوا بعيسى عليه السلام وبخاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ، قال تعالى **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"** بعيسى وموسى **"اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ"** محمدε **" يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ"**[3] ، ومع هذا الفضل الذى من الله به عليهم يأبى عليهم العلم بالله وبرسله عليهم الصلاة والسلام إلا أن يقفوا موقف الأدب خشية من خفى المكر الإلهي، وهكذا يكون أهل الأدب مع الله تعالى والقوم الصالحين الذين وفقهم الله

([1]) سورة الزمر : 34.
(2) سورة ق : 45.
([3]) سورة الحشر : 28.

لمحابه ومراضية فصلحت عقائدهم وأقوالهم وأحوالهم وأعمالهم حتى صلحوا لأن يكونوا على منابر من نور أمام عرش الرحمن ، وفازوا برضوان الله الأكبر ، كما قال الخليل عليه السلام : **"رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ"**[1] وهذا هو أكمل الأدب مع أكمل الرسل بعد رسول اللهε .

قوله تعالى : **"فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ"**(85).

تأويل هذه الآية بحسب ما قبلها أن القوم قالوا : **"رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ"** وهذا القول الذى قوله دليل على كمال معرفتهم التى هى عقد قلوبهم على التصديق بما جاء به رسول اللهε ، وأنهم بهذا التصديق يبلغون الدرجات العلي فى جنات تجرى من تحتها الأنهار.

وهذا القول الصادق عن قلب أنعقد على تصديق الله ورسوله برهان على أن القوم وفقهم الله للقيام بشعب الإيمان جميعها ، التى هي بضع وسبعون شعبة.

وهذه الآية الشريفة مرتبطة بقوله تعالى : **"مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ"** فيكون من مقولهم الذى أخبرنا الله تعالى : **"رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ"** ، **"وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ"**.

وفى قوله تعالى : **"فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا"** القول الذى صدر عن يقين حق عقد القلب عليه ، فإن الله سبحانه يقول دائما للمنافقين : ومشنعا عليهم : **"يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ"** فمجرد القول الذى لا يكون صادرا عن قلب عامر باليقين الحق لا يرفع قائله إلى تلك الدرجة العالية فى جنات النعيم.

"جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا" أي بساتين ملتفة نابعة "وتجرى من تحتها الأنهار" أي من تحت أشجارها "خالدين فيها" أى مؤبدين ولهم مزيد فيها من النعيم والمواجهات والأنس بأهل المراتب العالية، وهذه الآية دلت على أن التصديق بما جاء به رسول اللهε يبلغ بالمؤمن تلك الدرجة ، فإذا وقع فى الخطايا فهو إلى الله أن شاء غفر له وأدخل الجنة، وأن شاء طهره وأدخله فى النار ثم يدخله الجنة ، وأنا لنطمع أن يوفقنا الله قبل موتنا إلى التوبة مما اقترفته جوارحنا ويقبل الله توبتنا.

"وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ" اسم الإشارة عائد إلى ما بشرنا الله به من إثابتنا بالجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، جزاء المحسنين أي يتفضل تعالى به على من أحسنوا القول من رسول اللهε بالسمع والطاعة ، وقد تقدم بيان المحسنين والإحسان فيما سبق.

قوله تعالى : **"وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ"**(86)

بعد أن بين سبحانه وتعالى ما تفضل به على نصارى وفد الحبشة وعلى غيرهم ممن كانوا على ما جاءهم به المسيح عليه السلام وما أعده لهم يوم القيامة ، بين لنا سبحانه وتعالى – فى هذه الآية – ما عليه الكفار وما توعدهم به يوم القيامة.

قوله تعالى : **"وَالَّذِينَ كَفَرُوا"** أي جحدوا الوهية الله تعالى وبعثة خاتم رسله محمدε ، **"وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا"**أي أنكروا ما أنزلنا إلى الخلق أجمعين على لسان محمدε وعميت بصائرهم عن النظر إلى ما أظهره الله تعالى من الدلائل والحجج فى ملكه وملكوته ، وما أظهره الله من المعجزات الباهرات التى شهدوها عيانا مما لا يحصي.

---

(1) سورة الشعراء : 83.

قوله تعالى : **"أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ"** اسم الإشارة إلى من كفروا بالله وكذبوا بآياته وجحدوا نعمه ، وأصحاب الجحيم أي أصحاب النار التى تحرق من أرداه كفره وتكذيبه فيها ، "وأصحاب" أي المخلدون ، لأن صاحب الشئ لا يفارقه ، وهذا وعيد من الله تعالى يذيب قلوب أهل الإيمان بالله مع كمال يقينهم بالنجاة ، وعلمهم بأن العاقبة لا يعلمها إلا الله ، ولهذا يسألونه حسن الخاتمة ، أما من قفل الله قلوبهم فإنهم لا يعقلون عن الله شيئا ، وإنما هى الحجة القائمة عليهم عندما يروا صدق الله فى وعده ووعيده ، ولديها يتمنون أن يكونوا ترابا حيث لا ينفعهم إيمانهم ، ومن يضلل الله فلن تجد له وليا مرشدا.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"**(87).

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن رسول اللهε جلس بين خاصة أصحابه رضى الله عنهم فذكرهم بما فى الجنة من نعيم مقيم ، وبما فى النار من عذاب أليم ، فلما انصرفوا من مجلس رسول الله اجتمعوا فى بيت عثمان بن مظعون وبينوا تلك الحقائق التى أخبرهم بها رسول اللهε ، فقال بعض الجالسين نقاطع نساءنا وجوارينا ، وقال آخر وآذاننا وألسنتنا ، وقال ثالث بل وأعيننا أيضا حتى لا يقعوا بنا فيما يغضب الله فنقع فى النار ، فبلغ ذلك رسول اللهε فجمعهم وقام فيهم خطيبا مبينا أنه صلوات الله عليه "يأكل الطيب من الطعام ، وينام على ما يجده من لين الفراش ، وينكح النساء ، وهذه سنته التى تفق مع فطرته ، ومن خالفه فليس منهε " ، فأنزل الله تعالى هذه الآية الشريفة ومعناها : "يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا تحرموا على أنفسكم ما أفاء الله عليكم من طيبات ما أحل الله لكم" والطيبات هى المشتهيات من الأكل والشرب واللباس التى خلقها الله وأحلها لنا حسب شريعته ، فإن الله تعالى لم يأمرنا بالرهبانية فى الإسلام كما فعل النصارى الذين تركوا المدن وفروا إلى البوادي والقفار وأقاموا الصوامع ، وتركوا نكاح النساء وأكل اللذائذ من الطعوم ، ومع ذلك فإن قلوبهم منعقدة على الكفر الصريح ، أو كما فعل اليهود من تحريم بعض المشتهيات على أنفسهم ، فإن الله تنزه وتعالى خلق تلك الطيبات تفضلا منه على بنى الإنسان ، وهو الغني عن الكون ومن فيه وما فيه ، وجعل ثمن تلك النعم حمد الله وشكر نعمه ، فمن وفقه الله تعالى للشكر بعد أن ينعم بما تفضل الله به عليه فقد أدى حق تلك الحقائق كلها وفاز من الله بالنعيم المقيم يوم القيامة ، ومن لم يوفقه الله تعالى لشكره على نعماه خسر الدنيا والآخرة ، وفى هذه الآية من الإحسان إلينا ما يوجب دوام الشكر لله تعالى على تفضله علينا ، وفيها دليل على أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يأخذون بالعزائم فى العبادة والمعاملة ، والمسارعة إلى محاب الله ومراضية جل جلاله ، فإنهم كانوا يشددون على أنفسهم والله سبحانه يتداركهم بلطفه فيوسع عليهم.

قوله تعالى : **"وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"** الاعتداء هو تجاوز الحد الذى حده الله إفراطا أو تفريطا ، فمن شدد على نفسه فى شئ لم يشرعه الله له كما كان يريد عثمان بن مظعون رضى الله عنه وغيره من الصحابة أن يقطعوا بعض حواسهم فإنه اعتداء وإفراط ، وكما كان يهم به بعض الصحابة من ترك الأكل الشهى واللباس والبهي والفراش الوطى وترك النساء والنوم ، فإنه وأن كان مما تزكو به النفوس فإنه اعتداء وخروج عن الحد الوسط ، وهو إفراط أيضا ، ومن الاعتداء التساهل فى تأدية الواجبات الشرعية بتأويل بعيد أو بمخالفة فهو التفريط ، كإهمال تأدية الصلوات الخمس فى أوقاتها ، وكذلك عدم إيتاء الزكاة أو الحج ، أو الإهمال فى بر الوالدين وصلة الرحم ، أو فعل الخطايا ، أو الكبائر ، فإن ذلك كله اعتداء على حدود الله تعالى ، ومن أفرط فى دينه فإن الله لا

يحبه ، لأن محبة الله حقا لمن حافظ على متابعة رسول اللهε بنص الآية القرآنية الكريمة **"قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ"**[1].

قوله تعالى : **"إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"** وقد تقدم الكلام على محبة الله للعبد ومحبة العبد لله فى قوله تعالى : "لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم".

قوله تعالى : **"وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ"**(88).

الأمر هنا للإباحة والتخيير لا للوجوب ، لأن من كان مريضا ويضره بعض أنواع الطعام فلا بأس عليه إذا تركه لأن قوله : **"مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ"** أي من الحيوانات المأكولة اللحم ، ومن النباتات الصالحة للغذاء ، ومن الثمار الناضجة التى تغذى الجسم كالعنب والتين والرمان وغيرهم ، أما ما حرمه الله تعالى كلحم الخنزير والميتة والموقودة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع مما لا يصلح للتزكية فإنه مضر طبيا ومحرم شرعا ، وكذلك النباتات الصالحة للغذاء فإنها مباحة شرعا وطبا ، وأما النباتات التي لا تصلح للغذاء كالسيكران والأفيون والحشيش وغيرها من المخدرات أو المنومات المفسدة للعقول فإنها محرمة شرعا وطبا ، ولا تستعمل إلا عند ضرورة طبية فى أمراض معينة وبإذن الطبيب المسلم التقي ، وبالمقادير الطبية اللازمة للشفاء من الداء ، لأن هذه النعم كلها مما رزقنا الله تعالى وتفضل بها علينا ، وما تعددت أنواعها وأشكالها وطعومها وألوانها وخواصها العجيبة إلا برهان قوى على أن الله تعالى خلق الإنسان مكونا من عناصر مختلفة وطباع مخالفة لبعضها يحتاج فى غذائها وحفظ حياتها إلى كل تلك الحقائق لطفا من الله ورحمة وعناية منه بخلقه ، ومن طيبات ما رزقنا الله تعالى أنواع كثيرة من معادن ننتفع بها فى أدوية الأمراض وتتغذى بها النباتات فتنفع فى الأغذية للإنسان والحيوان ، فسبحان اللطيف الخبير الذى أسبغ نعماه حتى أنها لا تحصى عدا ، ولو أن الملائكة والأنس والجن اجتمعوا لعجزوا عن حصر عددها.

قوله تعالى : **"حَلَالًا طَيِّبًا"** أي مما أحله الله لكم وأمركم بإستعماله لما أودع فيه من الخواص ما به إصلاح البدن ونموه وحفظ حياته المدة التى قدرها الله تعالى ، فالحل إشارة إلى صلاحيتها للأبدان وإلى أمره باباحتها ، والطيب هو الشهى اللذيذ الذى يستطيبه الذوق والشم والبصر طعما وريحا ولونا.

قوله تعالى : **"وَاتَّقُوا اللَّهَ"** أي وخافوا الله تعالى فلا تعتدوا فيحصل منكم إفراط فى الغلو وترك المشتهيات ، أو التفريض فى العبادات واستعمال المحرمات ، فإنكم بإفراطكم تضرون أبدانكم ، وبترك الأكل والشرب واللباس والنوم والنكاح ، تمرض الأبدان ، وإذا مرضت الأبدان فسدت العقول فضعفت عن القيام بالواجب عليها من عبادة الله ومن عمل الخير لعباده ، وفى التفريط بترك العبادة والأخلاق الجميلة ، وبالوقوع فيما حرمه الله من الأكل والشرب المحرمين ، والسرقة ولعب الميسر وأكل الربا ومال اليتيم إلى آخر ما هو معلوم من المحرمات.

ومعلوم أن الوقوع فى هذه المحرمات يسلب الإيمان من القلوب ، ويزيل الصحة والعافية ، ويوقع فى المرض العضال ، ويجعل الإنسان مبغوضا بين قومه يعيش أضل من البهائم السائمة ، وكل تلك النعم التى تفضل الله بها هى أحسان من الله إلينا لأنه غنى عمن سواه وما سواه والكل مفتقر إليه جل جلاله ، ومع تلك النعم التى لا تحصى أمرنا الله أن نستعمل النافع منها لنا وحرم علينا ونهانا عما يضرنا جسما وحسا وعقلا ونفسا ، فسبحان المتفضل بجلائل النعم اللطيف الخبير الرحمن الرحيم الرءوف العليم.

([1]) سورة آل عمران : 31.

قوله تعالى : **"الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ"** أي الذى بين لكم كمالاته الذاتية ، وجماله وجلاله وبهاءه ونوره وضياءه ، فآمنتم به عقيدة بالقلب وإقرار باللسان وتصديقا بالعمل ، فإن تصديقكم بالله ورسولهε يقتضي المسارعة إلى القيام بالسمع والطاعة بأمره ونهيه سبحانه لتفوزوا بالسعادتين فى الدنيا والآخرة.

قوله تعالى : **"لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"**(89).

اليمين أربعة أنواع كما قدمنا فى سورة البقرة – بر ، وحنث ، ولغو ، وغموس – فاليمين البر أن يقسم أنه لا يفعل فيكون بر حتى لا يفعل ، والحنث أن يقسم أنه يفعل فيكون على حنث حتى يفعل ، واليمين اللغو أن يقسم بلسانه غير مراع بقلبه الأمر ، كقوله والله لا آكل ، والله لا أشرب ، والله لا أدخل البيت مما تغلب عليه العادة باليمين من غير توكيد بقلبه ، والغموس أن يعلم الشئ حقا ويقسم أنه لا يعلمه ، أو يأخذه ويقسم أنه لم يأخذه وما أشبهها ، واللغو معفو عنه ، والغموس يغمس صاحبه فى النار فلا كفارة له . والبر والحنث لهما كفارة ، كما قال الله تعالى : **"لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ"**.

وكلمة عقدتم بتشديد القاف أو تخفيفها ، وبدون ألف بعد العين وبها ، وتأويل "عقدتم" أى علمتم إباحة المقسم عليه شرعا والمكنة من القيام به ، فيكون عقد اليمين علم القلب بتلك الحقيقتين – وصحته تنحصر فى النطق باللسان باسم من أسماء الله تعالى بعد قوله أقسم بالله أو الله أو تالله . وهذا القسم يجب تنفيذه دون إبطاء.

أما من أقسم بغير الله تعالى وهو عازم على البر بقسمه يكون قد استهان بربه حيث عظم غيره ، والمستهين بربه يكون ظالما لنفسه إلا إذا كان قسمه بغير ربه بقصد عدم تنفيذ يمينه كأن يقسم الرجل ليرضى أولاده وزوجته وخدمة وأتباعه . فالشريعة أباحت له الكذب فى خمس حالات . حالة الحرج ، وحالة إرضاء من يعولهم ، وفى حالة درء ما يسئ إلى إخوانه المؤمنين ، وفى سبيل الصلح بين متخاصمين ، وفى حالة وقوعة بين يدى أعداء متمكنين . فلو أقسم بولي أصلح ، أو تقى معروف ، أو عالم مشهور مراعيا تلك المعانى لا يؤاخذه الله ، أما من يقسم بالطلاق والعتاق ، أو بأبيه وابنه أو غير ذلك ممن يطلبه الطرف الآخر معتقدا صدق اليمين يكون ذلك شركا خفيا أعاذنا الله من الشرك الخفي والأخفى.

"فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" بعد أن عتب الله تعالى على أفراد من الصحابة هموا بالغلو فى الدين وأقسموا أن ينقطعوا لعبادة الله وليصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يأكلون لحما طمعا فى نيل رضوان الله تعالى ، بين الله تعالى لهم كفارة إيمانهم التى حلفوها تحليلا لهم من الوقوع فيما يؤاخذون عليه ، وتلك الكفارة كما بينها سبحانه وتعالى أنواع يختار منها المؤمن نوعا يكفر به عن يمينه ، وهى إطعام عشرة مساكين من الطعام الوسط الذى أعتاده من ليسوا فقراء جدا ولا أغنياء جدا مما يأكله عامة الوسط من الناس.

النوع الثاني : كسوتهم كسوة وسط كما تقدم.

النوع الثالث : عتق رقبة مؤمنة من الرق بأن تكون له أو يشتريها ويعتقها.

النوع الرابع : صيام ثلاثة أيام بشرط أن يعجز من أقسم عن كفارة يمينه بنوع من الأنواع المتقدمة ، التى هى الإطعام أو الكسوة أو العتق ، وكان بعض العلماء يفتى الناس بالأشد عليهم ، فيأمر الغني بالصوم ، ويأمر الفقير بالإطعام أو الكسوة أو العتق حتى لا يقسم بالله ثانية إلا ما يعتقد القدرة على تنفيذه والبر بيمينه.

والمؤمن الكامل لا يعامل من يحوجه أن يقسم بالله ، ولا يبلغ به الشك فى خبره أن يؤيده للناس بالقسم ، والأولي له أن ينزل نفسه منزلة الهيبة فى قلوب الناس حتى لا يحتاجون إلى القسم لتأكيد خبره ، وإنما نوع الله الكفارات لعلمه تعالى بأحوال عباده من فقر وغني وتوسط ، فالصوم للفقراء الذين لا يملكون إطعاما ولا كسوة ولا عتقا ، والإطعام والكسوة للوسط وما فوقهم ، ومن فوقهم ممن يلتحق بهم والعتق للأغنياء الذين تملك إيمانهم الأرقاء.

"ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ" اسم الإشارة عائد على أنواع الكفارات المذكورة ، وقوله كفارة ملاحظ فيها حذف كلمة الحكم – أي ذلك الحكم كفارة إيمانكم إذا حلفتم – أي إذا وقع منكم القسم وعجزتم عن تنفيذ المقسم عليه إيجابا أو سلبا.

"وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ" أي حافظوا أن لا تقسموا إلا فيما هو ممكن الوقوع وفى أمر لا تحرمه الشريعة ، وأحذروا أن تجعلوا الله تعالى عرضة للقسم به جل جلاله.

"كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" بين الله تعالى لأصحاب رسول اللهε الذين هموا أن يضروا أنفسهم وأن يتركوا الطيبات من المأكل والمشرب والمنكح والمسكن وغيرها أنه جل جلاله الذى يحل ويحرم ، وأنه خلق الطيبات لعباده ليتعرفوا إليه بها ويشكرونه عليها وهو الغني المغني ، وبين لهم أنه لا يحب المعتدين الذين يعتدون فيحرمون على أنفسهم ما أباحه الله وأحله ، أو يعتدون بأن يحلوا ما حرمه الله تعالى ، ثم بين لنا سبحانه وتعالى ما حرمه علينا كما بين لنا ما أحله لنا ونهانا عن تحريمه على أنفسنا فقال سبحانه **"كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ"** أي كما يبين لكم فيما تقدم فقوله تعالى "آياته" أي أحكام دينه التى لا يكون المسلم مسلما إلا بالسمع والطاعة لها أمرا ونهيا "لعلكم تشكرون" أى لتشكروا الله على ما أسبغه من نعماه دينا ودنيا ، وشكر الله تعالى هو العمل بما أمرنا وبينه لنا والنهى عنه سبحانه تعظيما لأحكامه وإعظاما لذاته وذلك لأن الشكر هو العمل قال تعالى: **"اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا"**[1].

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"**(90).

هذه الآية بيان لما حرمه الله علينا بعد بيان ما أحله لنا ، وبعد أن نهانا الله عن أن نعتدي ، والاعتداء إنما يكون بفعل المحرمات التى حرمها الله تعالى ، وتأويل هذه الآية : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إنما الخمر الذى يستر العقول عن أن تعقل أسرار دين الله وأحكامه رجس من عمل الشيطان ، فاحذروا أن تشربوها أو تتعاطوا أى مسكر أو مفتر للأجسام وقد افتتح الله الآية بأداة التأكيد والحصر إشارة إلى أن الخمر هى أم الكبائر.

([1]) سورة سبأ : 13.

وسبب نزول هذه الآية أن النبيε حين قدم المدنية ووجد أهلها يشربون الخمر ويلعبون الميسر لم ينههم عما الفوه رحمة بهم وتأليفا لقلوبهم وانتظارا للوحي حتى ابتدأوه بالسؤال عن حكم الخمر فأنزل الله قوله تعالى **"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ"**[1].

فقالوا أن الله لم يحرمها ، فمنهم من ظل على شربها ، ومنهم من تركها ، إلى أن صلى رجل من المهاجرين بأصحابه فخلط في قراءته ، فأنزل الله قوله تعالى **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ"**[2] فترك البعض شربها نهائيا . وشربها البعض ليلا فقط إلا أن اليهود والمنافقين انتهزوها فرصة للدس بين المسلمين وإيقاع الفتن والضغائن بين الأنصار والمهاجرين . حتى رفع بعض الصحابة الأكف إلى الله ضارعين بقولهم رضي الله عنهم أجمعين "اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا" فأنزل الله قوله تعالى **"إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ"** فتركوها جميعا وأطاعوا الله فيما أمر واجتنبوا ما نهي عنه.

قوله **"وَالْمَيْسِرُ"** هو لك لعب بيسر أخذ مال الغير بلا حق وهو في عرف العامة يسمى "القمار" بكل أنواعه التي تعتمد على الحظ **"وَالْأَنْصَابُ"** هي الأصنام التي تنصب لتعبد وتقدس من دون الله تعالى **"وَالْأَزْلَامُ"** سبق تعريفها في أول السورة وهي أقداح كان أهل الجاهلية يستكشفون بها ما قسم لهم في طي الغيب.

قوله تعالى **"رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ"** والرجس هو كل خبيث منكر من فواحش الأقوال والأعمال ، ووساوس إبليس في النفوس ووحيه في الصدور **"فَاجْتَنِبُوهُ"** أي فاتركوا شرب الخمر وتناول مفترات الأجسام ، واتركوا لعب الميسر وتقديس الأصنام ولا تعتقدوا في الأزلام **"لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"** بطاعة ربكم الذي خلقكم وبكل مقومات الحياة أمدكم ، فطاعته سبحانه فيها الفلاح المؤكد في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى : **"إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ"**(91).

في هذه الآية بيان من الله تعالى لما يريده الشيطان وهو **"أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ"** حتى يفسد حالكم وتذهب ريحكم ، ولأنه لا يملك وسيلة لضركم سوى الإيقاع بينكم **"فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ"** وقد ذكر الله لنا الخمر والميسر فقط لأنها أم الكبائر ووقوع العداوة بين شاربيها أمر محتمل لغياب عقولهم من تأثيرها وما شابهها من مفترات الأجسام ، وأن إثارة البغضاء بين لاعبي القمار أمر محتم لأن طبيعة الميسر أن يكسب أحد الطرفين ويخسر الآخر مما يدفع الخاسر إلى محاولة استرداد ماله بالقوة فيؤدي ذلك إلى التقاتل الذي لا تحمد عقباه . كما أن في تعاطي الخمر وما شابهها من مفترات الأجسام ومغيبات العقول ، ولعب الميسر بلك أنواعه سواء للكسب أو للتسلية فيه صد **"عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ"** وهذا هو الخسران المبين الذي يريده الشيطان لبني الإنسان ، وقوله تعالى **"فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ"** خطاب موجه إلى الذين آمنوا بالله ورسوله . أي صدقوا بما جاءهم من الله فأطاعوه فيما أمر وانتهوا عما نهى والله يهدي إلى سواء السبيل.

قوله تعالى : **"وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ"**(92).

---

(1) سورة البقرة : 219.

(2) سورة النساء : 43.

بعد أن بين سبحانه أضرار بعقول شاربيها ونتائج لعب الميسر من الاستيلاء على أموال الغير بلا حق من عوض ، مما يعرض المجتمع للعداوة والبغضاء حسب تمنيات الشيطان ووسوسته فى الصدور ، أمرنا سبحانه بطاعته وحذرنا من مخالفته بقوله **"وَأَطِيعُوا اللَّهَ"** أي وأطيعوا الأمر الذى أنزلت على رسولي واجتنبوا مخالفته لعلكم تفلحون ، لأن فلاح الطائعين لأمر رب العالمين هو حق اليقين الذى لا ريب فيه.

قوله تعالى : **"وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ"** بعد أن قال وأطيعوا الله ، فيه وجوب على المؤمنين أن يطيعوا الرسول فيما يبلغ عن ربه بالأقوال وبالأعمال وبالأحوال أيضا فأقوالهε تحتم على المؤمن السمع والطاعة . وأعماله صلوات الله عليه توجب على المؤمن الاقتداء به اقتداء كاملا مع محاولة التخلق بأخلاقه فى كافة أحواله حتى يكون المؤمن طائعا لربه حقا وصدقا.

قوله تعالى **"وَاحْذَرُوا"** يشمل الحذر من مخالفة العبد لربه فيما أنزله على عبده وأثبته فى كتابه . كما يشمل الحذر من مخالفة المؤمن لأعمال الرسول التى هى سنتهε ولو لم يكن لها سند ظاهر فى كتاب الله تعالى . وكذلك يشمل الحذر من إتباع خطوات الشيطان التى يقود إليها حظوظ الإنسان وأهواءه . فبهذا الحذر يسير العبد فى طريق السعادة والسلامة والنجاة فى الدنيا والآخرة.

قوله تعالى **"فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ"** سواء كان هذا التولى بالعصيان فى أمر صريح، أو مخالفة لعمل من أعمال الرسول معلوم بالضرورة ، أو نتيجة للاستهتار بالدين وعدم أخذ الإنسان الأمور بجدية **"فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ"** أي اعلموا أيها الناس فى كل زمان ومكان أنه ليس على رسولنا إلا البلاغ المبين ، وعلينا توصيله لجميع الأجيال أينما كانوا ، ثم علينا الحساب سواء بالثواب أو العقاب.

ويستخلص من معاني هذه الآية أن الله تعالى قدر فى سابق علمه أن يتحقق ذيوع بلاغ رسوله فى كافة أنحاء الكرة الأرضية حيث ثبت الإذاعات المحلية والعالمية آيات الله تعالى وسنة رسوله أربع وعشرين ساعة فى اليوم والليلة لتقوم الحجة على كل إنسان أين كان وكيف كان . فلا ينكر علمه بها أحد .. ومن معانيها أيضا أن من يدعى طاعة الله بغير أن يعمل بما فى القرآن فدعواه باطلة ولا حجة له فى صحتها . وكذلك من أدعي العمل بالقرآن لوم يتبع ما علم من سنة رسول الله وخاتم أنبيائه فى أقواله وأعماله وأحواله وأخلاقه فعمله باطل ومردود عليه ، لأن اتباع المصطفى والإقتداء به فى صغير الأمر وكبيرة فيه النجاة والفلاح.

قوله تعالى : **"لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"**(93).

سبب نزول هذه الآية الكريمة أن بعض المتكلفين الذين يتكلفون الإيمان أعلنوا حزنهم على مصير بعض الصحابة الذين قتلوا فى معركة أحد بعد تناولهم الخمر . وأذاعوا أقوالهم هذه فى كل مكان معلنين جزعهم عليهم بسبب أنهم قتلوا وفى بطونهم رجس من عمل الشيطان وفى عملهم مخالفة لله ورسوله فأنزل الله هذه الآية.

قوله تعالى **"لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا"** يبين الله لعباده مدى رحمته وحبه للمؤمنين الطائعين ، فرفع عنهم الجناح وغفر لهم ذنوبهم ، لأنهم فعلوا ذلك قبل نزول آية التحريم فلا ذنب لهم ولا وزر عليهم فيما طعموا من شراب أو طعام ، لأنهم لم يخالفوا مولاهم فيما أمر به بعد.

قوله تعالى **"إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ"** وهي شروط ثلاث. .

1- أولها : تقوى الله ، وهذا ما كانوا عليه رضى الله عنهم قبل مقتلهم فى المعركة . فلم يعصوا الله فى أمر ولم يخالفوا رسول الله فى عمل.

2- ثانيها : الإيمان بالله ورسوله ، وهذا واضح ودليله قائم فى مقتلهم دفاعا عن دين الله وفى سبيل إعلاء كلمته سبحانه.

3- وثالث الشروط : قيامهم بالعمل الصالح الموافق لكتاب الله وسنة رسوله حسب علمهم قبل مقتلهم.

قوله تعالى : **"ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا"** أي داموا على تقوى الله وماتوا على الإيمان بالله ورسوله . والله يعلم ورسوله أنهم لو عاشوا ما خرجوا عن طاعة ولا أقبلوا على معصية . وهم الآن والي الأبد أحياء عند ربهم يرزقون ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . .

قوله تعالى : **"ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا"** أي أرتقت تقواهم عن تقوى عامة المؤمنين ، إلى تقوى الخاصة من المحسنين ، وصار نسكهم نسك عبادة لربهم، ولا نسك عادة مثل غيرهم ، لأنهم انتقلوا من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان **"وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"** لأن أهل الإحسان هم العارفون بالله الذين أحبهم الله وأحبوه ، ومن أحبه الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، أسأل الله تعالى أن يجعلني وأولادي وأخلي وأخواتي من المحسنين.

وفي طي هذه الآية مزيد من المعاني الذوقية ، والأسرار الربانية ، التى لا يستطيع تذوقها إلا أهل المقامات العالية ، من العلماء العاملين ، والإبدال الوارثين من أولياء الله الصالحين . ففي قوله تعالى **"لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ"** فيه غيوب مكنونة ، وأسرار مضنونة ، فهي علوم محجوبة عن معالم الأشباح ، ولا يباح بها إلا للطائف الأرواح النقية ، وبعض النفوس الطيبة الذكية ، لمن سبقت لهم الحسنى من الله فى الأزلية ، لأن من آمن بالله وعصمته تقواه من أن يعصاه ، صار محبوبا لله ، وكل محبوب محب لا يفعل إلا ما يحبه الحبيب ، فالقاعدة الأصلية أن المحب لمن يحب مطيع ، لأن الحبيب يكاشف حبيبه بأسراره ، والمؤمنون قد كاشفهم الله بأسرار الحلال والحرام ، وأراهم رؤى عيان منافع الحلال ومضار الحرام . ولذلك نراهم يكرهون المحرمات ، ويميلون إلى المباحات من تلقاء أنفسهم ، فإن وقع أحد منهم فى شئ من المكروهات شعر بالقلق والندم ويسارع إلى التوبة والاستغفار مع العودة إلى المباح ، ولهذا تفضل الله عليهم ورفع عنهم الجناح.

ونلاحظ فى هذه الآية أن الله تعالى ذكر الإيمان ثلاث مرات . وكذلك التقوى ذكرت ثلاث مرات . ثم ختم الله ذلك بمقام الإحسان ومقام محبته سبحانه للمحسنين . وفى هذا فضل عظيم يشير إلى مقامات الدين ودرجات عباد الله الصالحين . فإيمان وتقوى العوام دون إيمان وتقوى الخواص . وتقوى خواص الخواص فوق إيمان وتقوى هؤلاء وهؤلاء وهكذا إلى ما شاء الله الواسع العليم ، نسأله سبحانه أن يمنحنا جميعا الدرجات العلي أنه ذو فضل عظيم.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ"**(94).

بعد أن بين الله فى الآية السابقة مقامات أهل الإيمان ، ومدى تفاوت درجاتهم فى عمل الصالحات ، ثم بين مقامات الخاصة من أهل التقوى ، الذين زاد إيمانهم بمقدار رقيهم فى درجات تقواهم ، ثم ذكر سبحانه مقام أهل الإحسان من خاصة الخاصة الذين نالوا محبة الله تعالى . شرع سبحانه وتعالى يذكر فى هذه الآية شيئا من ابتلائه لهؤلاء الأخيار من عباده فقال تعالى **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ"** أي ليختبرنكم بشئ من الصيد امتحانا منه لمدي إيمانكم وثبات تقواكم ودرجة إحسانكم . ورب قائل يقول هل فى تيسر الصيد على الصياد اختبار وامتحان ؟!

والجواب أى نعم فالمؤمن حقا يحمد الله ويشكر له نعماه فيزيد إيمانه ، وأن لم يفعل نقص إيمانه. والتقى يراعى الله فى صيده بعد حمده سبحانه وشكره . ويراقب الله فيما أنعم به عليه وولاه ، ويخشى الغفلة عن المنعم انشغالا بالنعمة . والمحسن حقا هو من يرى نفسه مسيئا فى صيده رغم إحسانه ، وذلك تجردا من حوله وطوله ، ومسندا إحسانه إلى المحسن سبحانه ومعلنا عجزه عن شكر ربه . فيكون اعترافه بعجزه هو عين شكره.

قوله تعالى **"تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ"** هذا لأن هناك صيد من الطيور الداجنة يتمكن الإنسان من صيدها بيده بمجهود يسير خصوصا لو استعان عليها باحد من بنى جنسه . والصيد بواسطة الصقور المدربة والكلاب المعلمة يعتبر أيضا مما تناله أيدينا خصوصا إذا كنا نحن الذين دربنا الصقور وعلمنا الكلاب . وأما صيد الرماح وغيرها من أنواع السلاح فهو وقف على من يملكه أولا ويستطيع استعماله ثانيا حتى يمكنه صيد الطيور السابحة فى الجو والحيوانات البرية والوحشية ، وتعدد أنواع الصيد ووسائله رحمة من الله تعالى بعباده .

قوله تعالى **"لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ"** أي ليعلم رسول الله والمؤمنون من يخاف الله ويتقه فى صيده ، فلا يصطاد إلا على قدر حاجته ، ويخش الله فى صيده فيحسن ذبحه ولا يعذبه . وأن فاض منه شئ فليتصدق به على غيره . وخوف العبد من الله والخشية منه وحسن تقواه إنما تكون بالغيب ، لأن ذات الله غيب فى غيب الغيب ، لا يظهر إلا بأسمائه وصفاته المتجلية فى كافة مخلوقاته وتدل عليه عظيم آياته . فيخشاه العبد فى السر والعلانية رغم الستر والحجاب.

قوله تعالى **"فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ"** أي فمن تعد حدود الله بعد العلم بها ومعرفة أصولها وأحكامها . وخالف أمر ربه فى ستره أو علانيته فقد أعد الله له عقابا شديدا وعذابا أليما ولا يظلم ربك أحدا.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ"**(95).

بعد أن بين الله تعالى فى الآية السابقة سنته سبحانه فى ابتلاء عباده . وجعل هذا الابتلاء مظهرا لتجليات أسمائه وصفاته . وامتحانا للناس كافة بما فيهم الرسل والأنبياء ، والعارفين من الأولياء ، والصالحين من العلماء . شرع يبين فى هذه الآية نهية عن قتل الصيد فى حالة معينة فقال تعالى **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"** أي ا من آمنتم بالله تعالى ، وصدقتم رسولهε ، وأرتضيتم الإسلام دينا ، واتخذتم القرآن العظيم دستورا **"لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ"** أي لا تميتوا حيوانا حيا ، سواء كان أليفا داجنا ، أو بريا نافرا ، صغر حجمه أم كبر.

قوله تعالى **"وَأَنْتُمْ حُرُمٌ"** فيه وصف وتحديد للمكان والزمان والحالة التى لا يجوز فيها قتل الصيد مهما كان نوعه أو حجمه ، لأن ارتباط القتل بالصيد فيه شمول لكل حى على الإطلاق ، وذلك عندما تلبسون ملابس الإحرام بنية الحج أو العمرة.

قوله تعالى **"وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا"** أي أماته منكم أيها المؤمنون المحرمون عن قصد وليس خطأ **"فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ"** أي كفارة ذلك وهى أن يتصدق بمثل ما قتله ، فيأتى بشبيه للصيد ، أو بما يوازيه من النعم ويتصدق به على الفقراء وبشرط أن لا يحدد نوع الكفارة نفس القاتل للصيد وإنما **"يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ"** أي يكون الحكم فى هذا لرجلين ذوا عدل وفطنة يميزان أقرب النعم

شبها بالصيد المقتول . والضمير فى الكاف والميم فى كلمة منكم عائد على اثنين من المؤمنين المحرمين فى الحج أو العمرة.

قوله تعالى **"هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ"** أي تذبح الكفارة من النعم ويوزع لحمها على فقراء الكعبة والمساكين حولها . لأن المراد بقول الله تعالى بالغ الكعبة أى بجوار الحرم وليس بداخله . كما لا يجوز ذبح الكفارة فى مدينة أخرى غير مكة . فإن لم يكن للصيد المقتول مثل من النعم كالعصفور والجراد وغيره فعلى العادلين أن يحكما بما يوازي قيمته من المال ويوزع على مساكين الحرم ، وهذا جائز بدليل قوله تعالى **"أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ"** أي يجوز في كفارة الصيد أن يتصدق بقدر ثمنه طعاما للمساكين من غالب قوت البلد لكل مسكين "مد" [1] أو يصوم عن كل "مد" يوما إذا لم يجد مالا فإن وجد المال فلا يجوز صيامه ويلزم بالكفارة حسب حكم العادلين **"لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ"** أي ليشعر بتكاليف النفقة أو ألم الصيام وثقل الجزاء على ما جنته يداه من قلته للصيد وهو حرم فلا يعود لمثله أبدا.

قوله تعالى **"عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ"** أي أن الله قد سامح وغفر وعفا عما سبق فعله من قتل الصيد قبل نزول الآية بالتحريم **"وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ"** معنى هذه الآية أن الله تعالى ينذر من يعود إلى قتل الصيد عامدا متعمدا مرة أخرى وهو محرم فلا يقبل الله منه كفارة ولا عدل لتكرر هذا الجرم منه وإنما ينتقم الله منه **"وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ"** أي ١لم أيها المستهتر الذى تكرر فعل ما حرمه الله بعد أن سامحك وقبل منك كفارتك فى المرة الأولى أن الله تعالى عزيز ذو انتقام شديد ممن يخالف أوامره وبتعدي حدوده بعد أن عفا عنه وسامحه أول مرة.

قوله تعالى : **"أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ"**(96).

وبعد أن بين الله فى الآية السابقة ما حرمه على المحرم ، بين سبحانه فى هذه الآية ما أحل له من الصيد فى إحرامه ، فقال جل جلاله **"أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ"** يعنى ذلك جل جلاله أن المحرم المسافر على البحر يحل له صيد البحر بكل أنواعه ، ولو كان الذى يصيده يعيش فى البحر والبر ما دام اصطياده من البحر قوله تعالى : "وطعامه" برهان للقائلين أن الصيد فى اصطلاح الشريعة ما يؤكل لحمه.

قوله تعالى **"مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ"** يؤخذ منه الإشارة أنهم يملحون ما يصطادون من البحر ويكون ذلك حلالا ، لأن قوله متاعا أن تمتعون به أنتم والسيارة السائرون في الطريق فتمليحه جائز.

وقول بعض العلماء تحليل المملح الذى يسمونه فى مصر بالفسيخ متسامح فيه ، وقد أكل رسول اللهε لحم السمك المملح الذى أحضره بعض الصحابة الذين أرسلهمε سرية إلى لسان البحر ، وعندما افتقدوا الطعام ورزقهم الله بسمكة كبيرة الحجم فأكلوا منها وملحوا باقي لحمها ولما توجهوا إلى المدينة سألوا رسول اللهε عنها فأحلها وقال أطعموني منها.

قوله تعالى **"وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا"** أي أن صيد البر كائنا ما كان من الأرنب فما فوقه محرم على المحرم حتى يحل إحرامه ، وقد فصلت هذا الموضوع فيما تقدم من الآيات السابقة ، قوله "ما دمتم حرما" أى ما دمتم محرمين.

([1]) المد هو مكيال يزن محتواه من البر رطلا وثلث عند أهل الحجاز ورطلان عند أهل العراق.

وقوله تعالى **"وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ"** أي وخافوا عقوبة الله على مخالفتكم أوامره ، خوف عبد موقن أنه يحشر إليه سبحانه حتما ، لأن منكر البعث كافر بدليل قوله تعالى **"الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا"**[1] أى نحرمكم من عطفنا ورحمتنا.

قوله تعالى : **"جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"**(97).

هذه الآية الشريفة بينت لنا أن فرائض الله التى فرضها علينا من أقوال وأعمال وتنقل من مكان إلى مكان جمع الله فيها خيرات الدنيا والآخرة ، لأنه جل جلاله غني عن خلقه ، وخلقه جميعا يفتقرون إليه افتقار الاضطرار ، وكلنا نعلم مقدار الأجر الذى يناله الحاج إلى بيت الله الحرام ، وما يناله من يتقرب إلى الله بالهدي والقلائد ويجهل غير ذلك من الحكم ، فبين لنا أن فرائضه التى فرضها علينا ليست لنيل نعيم الآخرة فقط بل هى لخيري الدنيا والآخرة.

أما خير الدنيا فما أخبرنا الله به فى هذه الآية بقوله تعالى **"جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ"** ، أي عصاما وحصنا وأمنا للناس من شرور بعضهم فى الجاهلية وبالأولي فى الإسلام ، فإن الجاهلية الأولي كان الرجل منهم يقتل أباه أو أخاه وأعز الناس ليسلب ماله ، وكانت عيشتهم من السلب والنهب ، ولكن الله رحم خلقه فجعل الكعبة البيت الحرام والهدي والقلائد والشهر الحرام **"قِيَامًا لِلنَّاسِ"** أي حصون أمن يدفع بها ظالمهم عن مظلومهم ، وقويهم عن ضعيفهم ، حتى كان الرجل يرى قاتل أبيه وأخيه يطوف حول الكعبة فلا يخطر على باله أن يتعرض له لما أودعه الله فى قلوبهم من الهيبة والرهبة ، فسبحان من منح بعبادته الخير فى الدنيا والآخرة ، أسأل الله سبحانه أن يحفظنا من الوقوع فيما يكرهه جل جلاله. .

ومعنى الكعبة لغة أنها مكعبة أي مربعة سقفها وأرضها ، وكونها بيتا حراما أي بيتا حرم الله فيه أشياء لم تكن محرمة فى غيره من الصيد فيها ، فلا ينفر طيرها ولا يعضد شجرها ، فإذا كان ما أحل فى غيرها يحرم فيها فمن باب أولي ما حرم فى غيرها يحرم فيها ، وقد تقدم الكلام على مفردات هذه الآية.

"ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ" الإشارة عائدة إلى ما بينه الله تعالى فى الآية السابقة من جعله الكعبة البيت الحرام قياما لخلقه كافرهم ومؤمنهم رحمة بهم وعلما بحاجاتهم الضرورية والكمالية ، وتقديره ما قدره فيه من إصلاح حالهم وفوزهم يوم القيامة بالنعيم المقيم إذا هم سمعوا وأطاعوا واستجابوا لربهم ، وإذا علمتم حكمة هذه الأحكام والآيات بلغتم مقام اليقين فى أنه سبحانه يعلم ما فى السموات والأرض من الأسرار والآيات التى وضعها سبحانه لإصلاح خلقه وإصلاح حالهم ومآلهم ، وأنه تقدست ذاته لم يخلق شيئا عبثا بل خلق جميع الكون مرتبطا بعضه ببعض لخير بنى الإنسان فى الدنيا ، ولفوزهم بالخير يوم القيامة إذا هم قبلوا عن الله ما أنزله إليهم على السنة رسله ، ويعلم أيضا ما فى السموات والأرض من أنواع الجمادات النباتات والحيوانات ، وما فوقها من أنهار جاريات وبحار ساكنات ، وما فوق ذلك من نسيم عليل بليل هو حياة كل حي بحيث لو فقد نفسا لهلك العالم ، وما فوق ذلك من سحب موفورة بالماء محمولة على متن الهواء مصرفة إلى حيث يشاء الله مما لو نظر إليه العاقل لتحقق أن ذلك كله لبني الإنسان ، بل ومسخر له ما بين السماء والأرض ، وكل ما فى السموات من أنجم زاهرات ثابتات ومتحركات ، بل وعمار السموات من الملائكة إلى حملة العرش ، وكل هذه الأنواع العاليات يسبحون الله تعالى ويستغفرون لأهل الإيمان

([1]) سورة الجاثية : 34.

ويدعون لهم فيقولون **"رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ"**[1].

إذا تحقق الإنسان بفضل الله تعالى عليه ، وبما أتمه علينا من النعم ببعثة حبيبه خاتم الأنبياء لتحققنا بالعجز عن شكره سبحانه ، "والعجز عن الشكر هو عين الشكر" كما قال الله لداوود "اعملوا آل داوود شكرا" قال داوود لربه "رب أني عجزت عن الشكر" فقال الله له "شكرتني الآن يا داوود".

"وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" تأويل هذه الآية الشريفة أن هذا خبر من الله مؤكد بإداة التوكيد ، وأخبار الله بغير التوكيد مؤكدة ، ربما أتي الله بالتوكيد هنا ليلفت العقول التى تعقل عن الله تعالى إلى عظيم أسراره فى تلك الآية ـ فإن قوله **"بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"** أي بكل ما هو موجود ، وذلك الموجود أما أن يكون من الأرواح العاليات الغائبة عن العقول والنفوس ، أو مما نتمثله النفوس وتتوهمه الأوهام وتتخيله الخيالات أو مما يقوى الإنسان على إتباعه من عقائد حقه أو باطلة ، أو أراء سديدة أو فاسدة ، أو مذاهب مضلة أو موافقة للشرع الحنيف . .

كل ذلك يعلمه الله ، بل وما هو فى كل ذرة من ذرات الكائنات وخواصها ومميزاتها ، بل وما فوق ذلك من أسماء الله تعالى وصفاته ومعاني صفاته ، بل وما حجب ، فإن علم الله تعالى يحيط بواجب الوجود ، وممكن الوجود تنزهت حضرة العلم الإلهي أن يكون شئ ما كائنا ما كان لا تحيط به ، وتنزهت أيضا عن أن يكون علم الله يتجدد بتجدد الأحداث أو بتجدد الأعيان ، بل علم الله تعالى محيط بالجزئيات والكليات ، خلافا لمن زعم أن علم الله لا يحيط إلا بالكليات ، والكل منكشف لعلم الله من الأزل إلى الأبد ، فهو جل جلاله كما يرى النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، بل ويرى نياط عروقها ، فهو جل جلاله يعلم كل ذلك بعلم هو خاص بذاته العلية ليس كمثله شئ لأن كلمة "عليم" ليست بمعني عالم بل هى أوسع من ذلك ، وليست بمبالغة فقد تنزهت أسماؤه وصفاته عن أن تكون محلا للمبالغة ، بل هي كلمة تدل على وسعة علمه وسعة لا نعلمها ، وما علينا إلا أن نسلم لله فيما أخبرنا به تسليما كاملا ونكل الكم والكيف إلى جهلنا الأول ، حتى يطلعنا الله تعالى على ما يليق بكماله وجماله وجلاله وبهائه وضيائه ونوره سبحانه . .

قوله تعالى : **"اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"**(98).

معلوم أن العلم هو تصور النفس رسوم المعلوم ، ولا تتصور النفس رسوم المعلوم إلا بأحد أمرين عظيمين:

الأمر الأول : أن يهب الله للعبد ضياء من علم يقوي حتى يصير يقينا ، ثم يلوح للبصيرة حتى يصير عين يقين ، ثم يرقى فى معارجه حتى يكون حق يقين وهذا هو الكشف الصراح ، وقد بينت المراتب الثلاث فى كتاب "معارج المقربين" عند ذكر علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، والكشف الصراح هو أعظم الأمرين فى تصور رسوم المعلوم.

الأمر الثاني : أن تقوم الحجة القاطعة بالبرهان الحق فتقوى النفس بعد تزكيتها على تصور رسوم المعلوم ، حتى يكون العبد كأنه يرى الغيب المصون بقوة الحجة.

ولما أن بين الله لنا بالحجة القاطعة أن إيجاد الكون وما فيه من الآثار المفيدة لبني الإنسان إمدادا لنا لحجة ملموسة محسوسة لا يختلف فيها ذو عقل ولو صغر ، فإن نظام السموات والأرض أعد لمصالح بني الإنسان ، ثم بين فى الآيات التى تلي **"جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ"** حقائق قامت بها الحجة علينا لنعلم أن الله تعالى بكل شئ عليم ، وبعد ذلك أمرنا أن نعلم فصار علمنا تصديقا

([1]) سورة غافر : 7.

لما أعلمنا به ، وصار كل إنسان لم يدر تلك الحجج الإلهية ، ولم يتصور تلك المعلومات على جوهر نفسه حاكما على نفسه أن جوهرها من أردئ الجواهر ، كيف لا والله تعالى يأمرنا أن نعلم أنه شديد العقاب ، أي أنه جل جلاله بعد أن بين لنا ما تفضل به علينا مما به صلاح ديننا وأخرتنا ، داخلنا طمع أنه جل جلاله جميل على الإطلاق ليس من صفاته الجلال والقهر ، فأحيا فى قلوبنا الخشية والرهبة والخوف ليهب لنا حسن معاملته فى أقوالنا وأفعالنا وأحوالنا ، فى مراقبة يحفظنا بها جل جلاله من أن يكون للشيطان علينا سلطان "وهذا مقام الخوف" وقد بينت ذلك فى كتاب "أصول الوصول".

ولما كان المسلم يجب أن يكون قوامه الخشية والخوف ، ومزاجه الطم والرجاء حتى يحصن جسمه بالخوف ، ويؤنس روحه بالرجاء لهذا جمع الله لنا فى هذه الآية ما به الخشية والخوف والأنس والرجاء فقال تعالى **"اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"** : أي خافوه خوف تعظيم لأمره ونهيه إجلالا لذاته العلية **"وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"** أكد سبحانه هذه الآية بتأكيدين كما تقدم ، بأداة التوكيد التى هي "أن" وأسميه الجميلين ليتعقل العقل ما تضمنته من الإشارة إلى واسع المغفرة والرحمة فلا يقوى الخوف عليه فييأس ن رحمته تعالى ، فإن الخوف الذى يقنط العبد من رحمة ربه يوقعه فى الكفر ، كما أن الطمع فى رحمة الله قد يوقع الإنسان فى معاصية جل جلاله حتى يقع فى نار جهنم ، وخير الأمور الوسط حتى يكون الخوف والرجاء جناحين للمؤمن يحملانه إلى بر الأمان.

وكثيرا ما أهلك الخوف بلا رجاء عبادا يائسين ، وأهلك الطمع والرجاء عبادا شاطحين ، والله جل جلاله له أسماء مخوفات وأسماء جميلة تطمع العبد فى رحمته وفضله ، فالعبد الكامل لا تنسيه الأسماء المخوفات الأسماء الجميلة ،ولا تنسيه أسماءه الجميلة أسماءه المخوفات ، حفظنا الله بالتوسط بين الخوف والرجاء وجعلنا من أهل قوله تعالى **"وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا"**[1] ومن أهل المعرفة أدبا فى مقام البسط.

وقد سئل رسول اللهε عن سبب شيبه فقالε "شيبتني هود وأخواتها" ، فبحث أهل العلم عن ذلك فوجدوا أن الذي شيبهε قوله تعالى " **أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ"**[2] ، أنظر كيف شيب الحبيب ذكر البعد وهو فى أرقى مقامات القرب ، فأن أهل القرب إذا ذكر البعد أمامهم شيبهم ، لأن الله تعالى ملك مطلق لا يتقيد بشئ ، وأهل المحبة لا يخطر على قلوبهم البعد ، فإذا أخبرهم حبيبهم أنه يبعد من شاء شابت من الهيبة رؤوسهم وذابت من شبح البعد قلوبهم.

وكذلك قوله **"شَدِيدُ الْعِقَابِ"** ـ آية تذيب أكباد الرجال خصوصا أن السابقة والخاتمة مجهولتان ولا يعلمهما إلا الله ، قال تعالى : **"وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ"**[3] فالطرفان نعوذ بالله منهما، وخير الأمور الوسط وهو أن يجمع المؤمن على قلبه الخوف من الله بدرجة لا تيئسه ، والطمع الذى لا يجعله يأمن جانب الله تعالى فيتيه فخرا وعجبا.

وفى قوله تعالى **"غَفُورٌ رَحِيمٌ"** بيان أن جمال الله تعالى سبق جلاله وإن رحمته سبحانه وسعت كل شئ ، وقد سبقت رحمته غضبه كما ورد فى الأثر ، والمغفرة ليست محو الخطايا إنما هي سترها

([1]) سورة الفرقان : 67.
(2) سورة هود :95.
([3]) سورة هود : 9-10.

عن الخلق حتى عن الحفظة كما قالε . إذا تاب الله على العبد أنس الله الحفظة ذنوبه وأنسي ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب.

والرحمة هى إرادة الله تعالى الخير للعبد فى الدنيا والآخرة ، فإن لفظ رحمة هى مصدر الرحمة فجمعت معنى الرحمن الرحيم ، والرحمن المنعم بجلال النعم الكونية ، والرحيم هو المنعم بالنعم الأخروية والرحمة جامعة للمعنيين ، ومن رحمة الله بالعبد أن يبدل سيئاته بحسنات فضلا منه جل جلاله ، نسأله سبحانه أن يعاملنا برحمته لا بعدله.

قوله تعالى : **"مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ"**(99).

تأويل هذه الآية الشريفة أن الله تعالى فرض على رسله وعلى نوابهم وورثتهم أن يبلغوا خلقه ما أنزله الله على رسله ولم يفرض عليهم أن يكلفوا الخلق بالقبول ، وقد بينت لك مراتب الهداية فيما سبق فالذى على الرسل صلوات الله عليهم هداية البيان ، وعلى الله تعالى هداية الإحسان ، والقوم فى فترة حتى تبلغهم رسالة الرسل عن أوامر الله ونواهيه ومحابه ومراضية ، فإذا بلغتهم الرسالة ـ وقامت الحجة بالمعجزة ، غفر الله ما تقدم ورحم من قبل منهم ، وأنتقم بشدة العقاب ممن كذب الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وفى ذلك من التهديد والوعيد والإنذار ما فيه بلاغ لأولى الألباب.

"وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ" هذه الآية خبر من الله تعالى فيها بيان للناس وتأمين لأهل الإيمان وتخويف لأهل النفاق والكفر ، فإن المؤمن إذا علم أن الله تعالى يعلم ما يظهره وما يخفيه جاهد نفسه أن يظهر خيرا ويخفي خيرا ، فيكون جميلا فى ظاهره وفى باطنه محبوبا لله تعالى محبا له سبحانه ، وإذا علم المنافق أن الله تعالى يعلم ما يظهره وما يخفيه قد يسمع عن الله سماع تعبد فيتوب من النفاق ، أو قد يكون ممن قال الله عنهم "ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون" فينقلب كافرا ،ولو جمل ظاهره بكل جمال الشريعة ، وشر الناس على أهل الإيمان هم المنافقون ، فإن الكفار يحفظنا الله منهم وأما المنافقون فأنهم يخدعوننا بظاهرهم ،وقد أقام الله الحجة لنا أو علينا "ولله الحجة البالغة".

قوله تعالى : **"قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"**(100).

تأويل هذه الآية الشريفة : أن الخبيث هو ما كان نجسا ، ونجاسة الإنسان عند الله تكون بالكفر أو بالنفاق ، والطيب هو ما كان طاهرا صافيا ، والطيب هو المؤمن ولتقريب فهمها أبين لك مثالا ، وهو أن الروح طيبة والجسم خبيث ، ولو أن رجلا فقيرا ذليلا حقيرا ذا روح تأنس بملكوت الله الأعلى ، ورجلا خبيث الجسم خبيث الطبع محروما من الروح الملكوتية ،وقد كثر أولاده ، ونفذت كلمته ، وقوي أنصاره . ونما ماله فإنه مع كل تلك الكثرة فى الأموال والأولاد وغيرها فهو خبيث مهما تنعم بالملاذ والشهوات فى المأكل والمطعم والمنكح وتنفيذ الكلمة والجاه . وأن ماله إلى النار ، وأن طال عمره وتوالت عليه خيرات الأبدان فإنه فى نكد وهم طوال حياته الدنيوية ، ولم لم يكن إلا حرمانه من شهود جمال الله فى الآخرة لكفاه ذلك حسرة وندما حيث لا ينفع الندم يوم يخلد فى نار جهنم ذليلا مهانا.

والله تعالى يبين لأهل الإيمان أنه لا مساواة بين الخبيث والطيب ، وأن كل لذة وشهوة وأمل يتمكن الإنسان منهما وهو خبيث فذلك بلاء من الله واستدراج لا يغبطه عليه أهل الإيمان الكامل ، وأن كان أكثر الناس إذا رأوا رجلا ذا مال وجاه نافذ الكلمة حسدوه وتمنوا أن ينالوا مثل ما ناله . كما أخبرنا

الله عنهم بقوله تعالى : **"قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ"**[1].

فلما خسف الله به وبداره الأرض وأخذه أخذ عزيز مقتدر ، تغير الوضع كما قال سبحانه **"وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا"**[2].

وهذه الآية الشريفة أحيا الله بها قلوب المؤمنين ، وهى بشرى لهم ليحتقروا نعيم الدنيا وليستهينوا بملاذها ، لأن لذة الأرواح فوق ملاذ النفوس كلها ، وشتان بين من يتلذذ بمأكل شهى طيب الرائحة والمنظر لذيذ الطعم ، وبعد فراغه منه ينصرف فيخزنه فى المراحيض ، فإذا مات لا يجد فى ما خلفه إلا بولا وغائطا ، وبين رجل منحه الله روحا نورانية صافيه تسوح بلطائفها فى ملكوت الله الأعلى فتشهد أنوار الملكوت ، وترجع إلى الهيكل بما اكتسبته من المعارف واللطائف ، فيبدل الله جوارحه الإنسانية بجوارح ملكوتيه فيسمع بإذنيه تسبيح الكائنات قال تعالى : **" وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ"**[3] بآذانكم البشرية ولكن يسمعها من يسمع بالله ـ قالε في الحديث القدسي "كنت سمعه الذى يسمع به" ويبصر آيات الله فى ملكوته ، ويشم طيب الملكوت الأعلى بأنفه ، وينطق الحكمة بلسانه ، ولا يزال يرقى حتى يقع به العلم على عين اليقين ، فإذا مات أرسل الله له رفرفا يحمله حتى يصل به إلى مقعد صدق ، وهذا هو الطيب الذى ذكره الله تعالى وصدق الله العظيم "لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث" أى ولو عجبت بما يمد الله به من الخبثاء من الشهرة والسمعة والعلو فى الأرض وكثرة المال والأولاد والجنود والأنصار ، فإن مآل كل ذلك السلب والعذاب عليه ، وفى الآية حجة قاطعة على أن من حرم من جمال الروح فهو خبيث ، لأن الإنسان من حيث هو أشر من الشيطان وأضر من الوحوش ، فإذا منحه الله تعالى الزيادة على الإنسانية ، كتب الإيمان فى قلبه، وزينه له ، فكان فوق الملائكة قدرا ، أينما وجه وجهه يرى الله تعالى.

قوله تعالى : **"فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"** .. الفاء هنا للفصيحة ، والمعنى إذا فهمتم ما نقدم من مفارقة الخبيث للطيب ، وعقلتم من الله ما أنزله إليكم ، فخافوا الله تعالى وجوا فى القيام بما أمركم به من المسارعة إلى الفوز بجمال الروح ، والتنائي عن دار الغرور ، وترك العجب ن حال أهل الدنيا الذين جعلهم الله فتنة لأهل الإيمان ، وابتلاهم بإقبال الدنيا عليهم حتى تمنى أهل الغفلة أن يكونوا مثلهم ، وسارعوا فيهم كما نرى فى هذا الزمان بل وقبله من مسارعة من فى قلوبهم مرض إليهم لينالوا منهم ما يشتهون ، فإنك ترى علماء الدين يسارعون فى أهل الكفر بالله طمعا فى حطام الدنيا الزائل فباعوا الذين بالدنيا كما قالε إذا رأيتم العالم يغشى بيوت الملوك والأغنياء فأحذروه فإنه لص".

ولما كانت تقوى الله تعالى فوق تقوى الرب ، ولا يصل الإنسان الى تقوى الله تعالى بما تحصله جوارحه ، بل يما يتذوقه عقله وتراه روحه التى هى جوهرة نورانية ولطيفة ربانية ، فما تدركه الجوارح من العلوم الشرعية يبلغ به الإنسان تقوى ربه لا تقوى الله . ولذلك قال تعالى **"فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا**

([1]) سورة القصص : 79.
(2) سورة القصص :82.
([3]) سورة الإسراء : 44.

أُولِي الْأَلْبَابِ" . أي اتقوا الله يا أهل العقول النورانية التى تعقل عن الله قال تعالى: **"وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ"**[1].

قوله تعالى : **"لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"** معلوم أن عسى ولعل فى كتاب الله بمعنى اللام لأن الله تعالى تنزه عن أن يأتي بما يفيد الترجي والتوقع ، ذلك من صفة العبيد ، لأنهم يجهلون الحقائق ، والله تعالى يعلم السر وأخفى بدءا وختما ، فيلزم أن يكون عسى ولعل فى القرآن بمعنى اللام ، وقوله "تفلحون" الفلاح هو نجاح كل المقاصد ، فمن كان مقصده الله تعالى فاز بمقصده فكان فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وهم أهل مقام الارتقاء ، ومن كان مقصده شهود وجه الله تعالى فاز بمقصده وهم أهل مقام الإحسان ، ومن كل مقصده الجنة فاز بمقصده وهم أهل مقام الإيمان ، ومن كان مقصده العفو والمغفرة فاز بمقصده وهم أهل مقام الإسلام ، وكل ذلك فلاح فيكون المعنى فاتقوا الله ليفوز كل أهل مقام بمقصدهم.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ"**(101).

هذه الآية الشريفة بيان من الله تعالى لأهل الإيمان بعد أن أخبر بقوله سبحانه **"مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ"** فإن معناها أن الرسولε يتلقى الوحي من الله الذي هو أعلم بخلقه وبمصالحهم وبما به يسعدون فى الدنيا والآخرة، فيبلغهم ما أنزل إليه ، وليس على المسلمين إلا أن يسلموا لرسول الله ε تسليما ، فلا يسألونه سؤال امتحان ولا سؤال تقول ولا سؤال رغبة فى تشديد لأن ذلك كله يكون مضرة عليهم كما فعل اليهود أخزاهم الله تعالى ، فإنهم قالوا أجعل لنا ألها كما لهم آلهة . وغير ذلك من الأسئلة ، وكما فعل النصارى حيث سألوا عيس أن ينزل عليهم مائدة من السماء ، فلما أنزلها الله تعالى كفروا بها ، وغيرها من أنواع التشديد وتلك الأسئلة هى كما روى أنس ابن مالك أنهم سألوا النبيε فأكثروا المسألة ، فقام على المنبر فقال سلوني فوالله لا تسألوني عن شئ مادمت فى مقامي هذا إلا حدثتكم به ، فقام عبد الله بن حذاقة السهمي وكان يطعن فى نسبه ، فقال يا نبي الله "من أبي" فقال "أبوك حذاقة بن قيس" وكما سأله سراقة بن مالك ويروى عكاشة بن محصين "يا رسول الله الحج علينا فى كل عام" فأعرض عنه رسول اللهε حتى أعاد مرتين أو ثلاثة فقال عليه الصلاة والسلام "حسبك فإن تلك الأسئلة تقتضي التشديد علينا".

أما إذا سأل الجاهل العالم عن علم كان لا يفهمه أو سأله عن حكمة أو سأله عن خبر يعلمه العالم ، فإن ذلك قد يكون فريضة بحسب ما تعين على العبد قال الله تعالى : "وأما السائل فلا تنهر" والسائل هنا هو سائل العلم ، فإن سائل المال قد ينهر ويطرد كما كان يفعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا رأى رجلا يسأل الناس ويخزن عنده ما يأخذه ، أذن فالمتعين سؤال الجاهل العالم هنا لابد منه وهذا فريضة . قالε "طلب العلم فريضة على كل مسلم" وأما سؤال المسلم العالم عن أشياء مما لا يعلمها إلا الله ، كسؤاله من أبيه والعالم لا يعرفه ، وكما يسأل بعض الناس الرماليين أو المشعبذين أو النجمين عن الغيب الذى يكون غدا أو بعد غد ، هذا كله محرم شرعا ن ولا ينبغي لمسلم أن يتعرض له بعد قوله الله تعالى لحبيبة محمدε **"قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ"**[2].

([1]) سورة النور : 40.

([2]) سورة الأنعام : 50.

فمن سأل الأنبياء أو الأولياء عن شئ من هذا فهو مخطئ ، فإن الرسل وورثتهم من الأولياء كاشفهم الله بأمور لا تفيد الأكوان والأقدار ، فأوحى إلى الأنبياء بأسرار كماله وجماله وجلاله وبأسرار أحكامه وحكمة أحكامه ولكنه تنزه وتعالى لم يطلع على غيبه أحدا إلا من أرتضي من رسول ، فإنه سبحانه يطلعه على غيب ما يحب أن يعمله عباده من عقيدة التوحيد ومن العبادة والأخلاق والمعاملة ، ولكنه لم يشأ جل جلاله أن يطلع أحدا على سر قدره ولا على غيب ذاته تنزهت وتعالت ، ولا على مضنون علم أسمائه وصفاته ، والسؤال عن هذا منهي عنه شرعا.

وما علينا جماعة المسلمين إلا أن نقبل بلاغ رسول اللهε ونسلم له تسليما ، فلا نفتح على أنفسنا أبواب الفتن والتشديدات ، وما علينا بعد رسول اللهε إلا أن نسمع بيان ورثته والعلماء القائمين مقامهε ونسلم لهم تسليما بعد قيام الحجة ووضوح المحجة ، فإذا جلس بيننا العالم سمعنا منه بيان ما جاءنا به رسول اللهε محافظين على موازين الشريعة بقدر الطاقة ، فإذا وجدنا البيان يخالف ما جاء به رسو الله ضربنا به عرض الحائط قالε "الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما شبهات ، فمن أتقى الشبهات فقط استبرء لدينه" ، ونحن يجب أن نقف عند الحرام والحلال حتى تتكشف لنا الحجة اتقاء للشبهات أن نقع فيها ، والدين هو الكتاب والسنة ، وما كان عليه سلفنا الصالح وما حالف ذلك فبدعة مضلة وفساد كبير نسأل الله تعالى السلامة.

قوله تعالى :"**أَشْيَاءَ**"جمع شئ ،والشئ ما قل أو كثر "**إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**" يعنى أن يظهرها لكم الرسول أو يأتيكما بها الله تعالى تحصل منها الإساءة الى من سألها والاى غيره معه ،كما سأل قوم صالح أن يأتيهم بناقة من الجبل ،ولما جاءتهم كانت سببا فى هلاكهم ،فإنهم قتلوها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ،وكما سأل النصارى عيسى بن مريم عليه السلام المائدة ،فلما أنزلها الله تعالى وأكلوا منها كفروا بها .

والواجب على المسلمين أن لا يسألوا العالم إلا لبيان ما يجهلونه من أحكام العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة كما قدمت .

قوله تعالى :" **وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ**" أى وإن تسألوا عن تلك الأشياء الغريبة عند نزول القرآن تبد لكم ،أى يبديها لكم رسول اللهε فتسؤكم فى دينكم ودنياكم "**عَفَا اللَّهُ عَنْهَا**" أي لم يجيبكم عنها لأنه سبحانه يعلم ما ينفعكم وما يضركم وأنتم لا تعلمون "**وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**" أي كثير الستر يستر زلات عباده باسمه الغفور ويحلم عليهم باسمه الحليم.

قوله تعالى : "**قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ**"(102).

هذه الآية متعلقة بالآية السابقة من قوله "**لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ**" وهنا يقول "**قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ**" فاختلاف الآيتان بأن الأولى فيها "عن" والثانية ليس فيها "عن" وللجمع بينهما أقول لك أن سؤال السائل قد يكون لطلب الشئ ، وقد يكون لفهم هيئة أو معنى من معانية ، فإذا قلت سألتك درهما فهو سؤال لطلب الدرهم ، وإذا قلت سألتك عن الدرهم ، يكون مرادك السؤال عن هيئته أو شكله أو قيمته ، والصحابة رضوان الله عنهم سألوا "عن أشياء" لتستبين لهم أحكامه وهيئاتها.

ومثال ذلك :

أن قوم صالح سألوه أن يوجد لهم ناقة من الجبل ، فأوجدها الله تعالى ، وقوم عيس سألوه أن يوجد لهم مائدة من السماء ، وقوم موسى سألوه أن يجعل لهم إلها كما لعباد العجل إلها ، وهذا هو الفرق بين قوله تعالى "لا تسألوا عن أشياء" وقوله تعالى : "قد سألها قوم من قبلكم فأصبحوا بها كافرين".

وفى هذه الآية سر خفى ، هو أن أهل الإيمان الكامل يسلمون لله تسليما ، فلا يجعلون لهم معه مراد وكل من جعل له مراد مع الله تعالى تسربت إلى قلبه الفتنة ، قال تعالى **"وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ"**[1] . فإذا كان هذا شأن الرسل ، فكيف يكون شأن العلماء والورثة والأولياء.

قوله تعالى : **"مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ"**(103).

اتصال هذه الآية بما قبلها أن السائلين اعتادوا أن يستظهروا على الأنبياء بأسئلتهم ، كما اعتاد أهل الجاهلية الأولى "أوابد" أنزلوها منزلة الأحكام الدينية المفروضة عليهم ، وفى ذلك مالا يخفي من اتباع الهوى ، ومن تلك الأوابد ـ عوائد الجاهلية ـ أن عمرو بن الحى كان ملكا على مكة فطغي فيها ووضع "أوابد" أخذها العرب من بعده ومنها البحيرة ، والبحيرة مأخوذة من البحر ، والبحر هو الشق فى الأرض ، فكانوا إذا ولدت الناقة خمس بطون شقوا أذنها وتركوها ف يحملون عليها ، ولا يرضعون لبنها ، ولا يجزون وبرها ، وتركوها للآلهة ، وسميت بحيرة لشق أذنها كالبحر ، والسائبة هى الناقة التى تلد عشرة بطون إناث ، وسائبة مأخوذة من سابه يسيبه ، يعني تركه ، ومنه سبب الشئ فيسيبونها فى المراعى لا يؤذونها وتكون بسدنه الأصنام ، والوصيلة هى الشاة التى يجعلون الإناث من أولادها لهم ، والذكور للآلهة ، فإذا ولدت ذكر أو أنثي قالوا وصلت أخاها أي وصلته بنفسها فيتركونها كما تركوا البحيرة والسائبة ، فالله سبحانه وتعالى حرم ذلك بتاتا.

ولقائل أن يقول "أن الإنسان إذا كان له مملوكا له أن يعتقه" فكذلك الإنسان إذا كان عنده ناقة أو شاة أن يعتقها ، وما ترك من الجهالة شيئا قائل هذه المقالة ، لأن الله تعالى خلق الأنواع كلها لينتفع بها الإنسان ، فإذا خالف الإنسان ربه وكفر بنبيه استحق الرق ، فإذا زالت الأسباب فلسيده أن يعتقه فينتفع بعد عتقه بنفسه ، وأما الحيوانات فإنها خلقت منافع للناس فإذا اعتقها الإنسان فوت على نفسه المنفعة التى جعلها الله له وأضاع الحيوانات ، لأنها فى حاجة لرعاية الإنسان فى أكلها وشربها وحفظها خصوصا بعد أن أستؤنست وأصبحت مستأنسة داجنة ، **"وَلَا حَامٍ"** والحام مأخوذ من الحماية ، ومعناه حمى فهو اسم فاعل ، والمراد به اسم المفعول أي أنه صار حاميا لنفسه أو محميا "والحام" هى الناقة التى تلد عشرة بطون أو أنه الفحل الذى يكون له فحل من أولاد أولاده يحمي ظهره من أن يحمل عليه ، فيترك حتى يموت فيأكلون لحمه.

قوله تعالى : **"وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ"** بعد أن بين الله ما حرمته أوابد المشركين من البحيرة وما بعدها ، أثبت أن هذا العمل كان المشركون اعتادوا عليه بعد أن ابتدعه عمرو بن الحي الذى كان ملكا بمكة فإنه شق أذن الناقة وقال أنها بحيرة وغير دين إسماعيل عليه السلام ونصب الأصنام على الكعبة.

والله تعالى يقول : مبينا لنا أن تلك العوائد ابتدعها أهل الكفر بالله تعالى ، والمسلم يجب ألا يعمل عملا إلا بأمر الله وبيان رسول اللهε .

"وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا" أي أن الكفار غيروا دين إسماعيل وحكموا بهواهم فضلوا وأضلوا **"يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ"** يعنى يبتدعون بدعا مضلة . وينسبونها للدين افتراء على الله واستظهارا على رسله صلوات الله وسلامه عليهم وقوله **"وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ"** أي أن العامة منهم يقتدون بأهل الضلال من قادتهم وكبرائهم ، وأنا لنرى بأعيننا أن كثيرا من الضلال الذين يزعمون أنهم من أولياء الله بالباطل

([1]) سورة الحج :52.

يقتدي بهم العامة من غير بصيرة فيضلون عن الحق . وهلال المسلمون مرتبط بظهور أهل الضلال ، كما أن هلاك المضلون مرتبط بظهور أهل الحق.

والواجب على كل مسلم أن لا يترك ميزان الشرع من يده فلا يقتدي برجل إلا إذا أيده الله بالشريعة المطهرة قولا وعملا وحالا ، ومن خالف رسول اللهε ولو فى سنة خفيفة مجاهرا بذلك معاندا من نصحه فهو كمبيح ما حرمه الله تعالى مما علم من الدين بالضرورة ، أو المحرم ما أحله الله تعالى من الدين بالضرورة ويجب على المسلم المؤمن أن لا يغتر بإقبال الدنيا على مدعي العلم بالله وهم فجرة جهلاء.

وفى قوله تعالى : **"وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ"** إشارة إلى أن السواد الأعظم من الناس يقتدي بالجهلاء من غير بصيرة مع أن الواجب على السالكين أن يعاشروا أمامهم ، فإذا علموا عليه ما يخالف السنة من غير ضرورة وجب عليهم أن يهجروه ، إلا إذا كان به مرض يلجئه إلى عمل ظاهره مخالف للسنة.

قوله تعالى : **"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ"**(104).

تأويل هذه الآية الشريفة أن رسول اللهε وأصحابه إذا بينوا للمشركين ضلالهم بإحلالهم ما حرمه الله تعالى عليهم ، وبهتانهم بأن ذلك أحله الله من البحيرة وغيرها أقاموا الحجة على أنفسهم أنهم أضل من الأنعام لا يتعقلون الحجة لأنهم لا عقول لهم ، ولكنهم كالبهائم السائمة اتباع كل ناعق وكيف وقد ظهر الحق جليا لأهل العقول السليمة ووضح بقوله تعالى : **"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ"** أي اتبعوا الحق الذى أنزل الله على رسولهε كتحريم أو أبدهم التى ابتدعها آباؤهم من البحيرة وغيرها ، أبوا قبول ما أنزله الله تعالى ، لأن نفوسهم خبيثة لا تقبل الحق ، والظاهر أن تعليلهم بقولهم **"حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا"** أي يكفينا ما وجدناه من الأباء ولو كان ضلال ، فليس هذا بالتعليل الذى يقبله العقل لأن العقلاء لا يقتدون بآبائهم إلا إذا قامت الحجة لهم بأنهم على الحق ، ولا يقلد هذا التقليد الأعمى إلا البهائم السائمة التى تساق بالعصا حيث لا تعلم إلا اتباعا لراعيها ، وإلا فما جاء به رسول اللهε من عند الله تعالى كالشمس فى رائعة النهار عند من له ذرة عقل ولكن الهوى أخو العمى.

قوله تعالى : **"أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ"** الهمزة للإنكار ، والواو للحال ، والجملة حالية وفى هذه الآية توبيخ وتشنيع للمشركين ، وتكون المعني أتقلدون آباءكم والحال أنهم لا يعلمون شيئا لخبث نفوسهم التى لا تقبل عن الحق جل جلاله ولكنها تقبل عن مقتضى طبعها الخبيث ، وهذه الآية بينت أن كل ما عدا العلم بالله وبأيامه جل جلاله وبإحكامه وبحكمة أحكامه ليس بعلم ، لأن الله تعالى نفى العلم عن آباءهم ، وكانوا يعلمون تدبير معيشتهم ويتقنون الصناعة الضرورية لهم والكمالية ، ويعلمون أنواع السياسة والكيد والتجارة والزراعة ، ويعلمون كيفية تربية حيواناتهم الداجنة والسائمة ، ويعلمون الطب والبيطرة واليزدرة ، ويعلمون فن العمارات والهندسة والحساب وعلم النجوم وعلم التاريخ وسير الملوك والأنبياء ، ويعلمون فنون الحروب وما عدا ذلك من ضروريات المجتمعات الإنسانية ، وما من نوع معين من الحيوانات إلا وفى الإنسان جميع صفاتها من كيد وحيل وقهر وبخل وشح وشجاعة وإقدام وظلم وتظالم ، وكل تلك علوم يعلمها أهلها فى المجتمع وكلها ليست علوما عند الله تعالى ولا عند رسول الله ولا عند العلماء الربانيين بل هى فنون ، وهنا يظهر لنا أن التقليد يتعين فى حقائق خاصة إلى حد معلوم.

فيجب على المسلمين أن يقتدوا برسول اللهε بعد قيام الحجة بالمعجزة وبيان المحجة بالقول والعمل والحال ويسلموا لهε تسليما ويعملوا بكل ما جاء به بقدر الطاقة البشرية ، وما أنزل الله علينا فى كتابه إلا ما نطيقه ، وكل ما دعت إليه الضرورة من مرض أو سفر أو خوف فإن الرخص تكون فى هذه المواطن عزيمة ويجب علينا أن نترك ما نهانا الله عنه مرة واحدة إلا ما دعت الضرورة الفادحة إليه كالجوع الذى يضطر الجائع إلى أكل الميتة . وفى هذا الحال لا يكون الأكل مخالفا للشريعة ، وهذا يبين لنا الفرق بين الاقتداء الصالح والتقليد الفاسد ، فالاقتداء إنما يكون فيما ثبت نفعه ماديا وصلاحه معنويا ، أما التقليد فهو عوائد يعتادها الإنسان فيعمل بها مقهورا حتى ولو لمس ضررها وظهر فسادها.

لهذا يجب على المسلم أن يكون على بصيرة من أمره ويستفت قلبه فى كل ما يحير عقله ولا يقلد أحدا فى عمله لمجرد إرضاء نفسه ولكن عليه الإقتداء بالعالم العامل بالشريعة والسنة ، ويجاهد نفسه فى تقوى الله حتى يعمله الله ، ويريه الحق حقا ويرزقه اتباعه ، ويريه الباطل باطلا ويعينه على اجتنابه ، وهكذا نجد أن الاقتداء أمر صعب لحاجته إلى مجاهدة النفس مجاهدة فادحة ، أما التقليد فأمره سهل لا يحتاج إلى تفكير ولا تدبير ويقوم به الأطفال فى سهولة ويسر.

قوله تعالى **"وَلَا يَهْتَدُونَ"** أي أن آباءهم الذين ابتدعوا البحيرة والسائبة وغيرهما لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه منهم كما تقدم ، ولا يقبلون عن الله ما أنزله عليهم لخبث نفوسهم وغلبة طباعهم عليهم ،ومن كان كذلك لا يقبل ما جاء به رسول اللهε مع ما أقامه الله تعالى من الحجج بالمعجزات الباهرات ومن الحجج بالبيانات الواضحات خصوصا مشركى العرب ، ولذلك نهانا الله تعالى عن أخذ الجزية منهم وأمرنا باستأصالهم قتلا لما علمه الله فيهم من فطرهم الخبيثة.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"**(105).

ينادي الله تعالى من صدقوه رسوله بقوله سبحانه يا أيها الذين صدقوني وصدقوا خاتم أنبيائي محمدا **"عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ"** اسم فعل أمر معناه حصنوا انفوسكم وألزموا حصون الشريعة حتى تقوموا بما أوحيته لنبيكم من عقد القلب على العقيدة الحقة والعمل بالطاعات وترك المنهيات والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لجميع أخوانكم المسلمين ، ولا يضركم أهل النفاق والكفر إذا قالوا أو فعلوا ما يغضب الله تعالى ، فدعوهم فى غيهم وعنادهم حتى يأتي الله بأمره فيسلطكم عليهم أو ينتقم منهم بسريع نقمته قال تعالى : **"لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ"**[1] هذه الآية الشريفة بينت قوة الإيمان عند أهله ، وضعفه عند المنافقين الذين اغتروا بتقلب الكفار فى البلاد فسارعوا إليهم ونسوا ما توعد الله به مرضى القلوب من المؤاخذة فى الدنيا والآخرة ،وهانحن الآن نرى أعداء الله المستعمرين أفسدوا أخلاق أهل النفاق من المسلمين فسارعوا فيهم وظهروا أمام المسلمين بمظهر الأنصار لهم والدعاة إليهم ن فإنقاد لهم ضعاف الإيمان ومرضى القلوب فقلدوهم فى أعمالهم وأقوالهم ، وبعضهم أفسدوا عليهم العقيدة فتركوا الصلاة والصيام والحج والزكاة ، ونظروا إلى أهل التقوى بعين الازدراء والاحتقار وجهلوا ما توعد الله به أعداءه.

قوله تعالى **"لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ"** معنى هذه الآية أن الله تعالى يطلب منا أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر أهل الإسلام ، وأن نأمرهم بتوحيد الله تعالى وإتباع نبيه محمدε ، كما

([1]) سورة آل عمران : 196 – 197.

نـأمر غيـر المسلمين إذا تحققنـا قبـولهم ، فـإذا أبـوا وكـان المسلمين ظـاهرين علـى الكفـار قهرنـاهم عل الجزية أو القتل أو أبوها ، أو على القتل أن كانوا مشركين ، وأن كـان أهل الكفر ظـاهرين لزمنـا أنفسنا قائمين بأوامر الله ونواهيه كما أمرنـا ، لأن سبب نـزول هذه الآيـة الشـريفة قول المنـافقين للصـحابة أن فرض الجزيـة علـى قوم دون قوم ليس من العدل ، فـأنزل الله قولـه "**عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ**" أي زكـوا أنفسكم وجاهدوها لتقوموا لله تعالى بما أمركم وتنتهوا عما نهى ، ومن هذا يظهر أن كل مسلم الواجب عليه أن يتمسك بأحكام الشريعة لينجي بنفسه من عذاب النـار يوم القيامة ، وقد دل قولـه "**عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ**" أي جلوها بتنفيذ أوامر الله والانتهاء عن نواهيه لا يضركم كفر الكافرين ونفاق المنـافقين إذا قمتم بالواجب عليكم نحوهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

"**إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا**" المرجـع إلـى الله يكـون بـالموت ، فـأهل الله تعـالى يموتـون بالفنـاء عمـا سوى الله فى الدنيا فيرجعون إليه جل جلاله بالتوبة والإنابة قبل موته عزرائيل قال تعالى : "**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**"(1) ، وأهل الكفر وأهل النفاق يموتـون موتـة الحيـاة الدنيا بالكفر وموته عزرائيل وهم عليه ، فيرجعون إلى الله بكفرهم مقهورين ويخلدون يوم القيامة نـار جهنم.

قوله تعالى "**فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**" والأنباء يوم القيامة قد يكون بقراءة الظـاهر أو بانكشـاف الحقـائق فـى الوقت الـذى يقول فيـه أهل الكفر بـالله تعـالى مـا أخبرنـا الله عنـهم "**رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ**"(2) . أي أرجعنا إلى الدنيا فلا ينفعهم إيقـانهم بمـا شـهدوا ، وقد يكـون الأنباء بالحساب وشهادة الأنبياء والمؤمنين وكلها بأنباء من الله تعالى ـ الذى لا تخفـى عليـه خافيـة ، من قول أو عمل أو حال أو وسوسة نفس . نسأل الله السلامة فى الدنيا والآخرة.

قوله تعالى : "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ**"(106).

أي أيا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، إذا كنتم فى سفر وحضـر أحدكم الموت من المسافرين ففرض عليكم أن يقوم اثنان منكم بحفظ وصية الميت حتى يؤديها لأوليائه وورثته كما سمعها من الميت قبـل موتـه "**شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ**" أي تشـهدونها بينكم أي تسـمعونها مـن الميـت كمـا تقـول شـهدت كـذا أي ـ حضرته . كما قال تعالى "فمن شهد منكم الشهر" أي حضر طلوع هلال رمضـان فـى أهلـه ولـم يكن مسافرا ـ وفى قوله "**بَيْنِكُمْ**" إشارة إلى تمام الارتباط بيننا وكأن الميت واحد منـا ، كمـا قـال تعـالى "ولا تقتلوا أنفسكم".

قوله تعالى "**إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ**" أي إذا ظهرت علامات الموت على الرجل وهو بعيد عن أهله ، وقوله تعالى "**حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ**" أي وقت وجوب الوصية التـى ذكرهـا الميت أو أوصـى بهـا ، فإن الواجب على من مع الميت إذا شغلته سكرات الموت أن ينبهوه للوصية خصوصا إذا كان مسافرا.

قولـه تعـالى "**اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ**" ، ومعنـى شـهادة بينكم هـى أن يشـهد اثنـان مـن العقـلاء المعروفين بالعدالـة والعفـة والعمل الصـالح "منكم" أي أيهـا المسلمون إذ لا تجوز شـهادة الكـافر علـى المسلم ، وقد أجازتهـا الشـريعة هنـا فـى السفر إذا لـم يكن مـع الميت شـهداء عقلاء من المسلمين بقولـه

---

(1) سورة الأنعام : 122.
(2) سورة السجدة : 12.

تعالى "**أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ**" أي اثنين من غير المسلمين ، ولم تجز الشريعة شهادة اثنين غير مسلمين على مسلم إلا فى هذا الموضع.

قوله تعالى "**إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ**" هذه الآية الشريفة بيان للحالة التي تتعين فيها تلك الأحكام ، وهذه الحالة هى حالة الضرب فى الأرض أي السفر من بلد إلى بلد "**فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ**" إشارة إلى أن الموت ثقيل على النفوس ، ثقيل على من نزل به ثقيل على من شهده ، لأن الله تعالى جعله مصيبة ، لأن الميت إذا كان صالحا تمني أن يطول عمره ليزداد صلاحا، وأن كان فاسقا تمنى أن يطول عمره ليتوب إلى الله ويعمل صالحا.

قوله تعالى "**تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ**" المراد بالصلاة الصلاة مطلقا ، وورد أنها صلاة العصر المعهودة بقوله تعالى "حافظوا علي الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين" وقد ورد فى رواية أنها صلاة العصر فصارت الألف واللام فى الصلاة للعهد ، والمعهود العصر ، ومعنى تحبسونها أى تطلبونهما للشهادة ، فإن كانا مسلمين شهدا الشهادة بدون يمين.

قوله تعالى : "**فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**" المكلف باليمين هنا هم غير المسلمين ،وقد طلب اليمين بشهود موت من مات بعض الصحابة رضوان الله عنهم وطلب اليمين بعض المسلمين ، وعلى هذا يكون "فيقسمان" راجع إلى المسلم وغيره.

قوله تعالى "**إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**" ، معنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى فرض اليمين يطالب به من أرتاب ـ فيمن أودعهما الميت متاعه ليوصلاه فى ورثته ـ فإن الواجب على ولي الأمر من المسلمين أن يوقفهما بعد صلاة العصر ويكفلهما أن يقسما بالله أنهما لا يشتريان بقسمهما ثمنا ، أي يقسمان بالله لا يضيعيان من مال الميت شيئا باليمين بعد الريبة وعدم الثقة فيهما ، ومعنى لا نشترى به ثمنا أى لا نجعل القسم بالله سببا فى ضياع حق الورثة من مال الميت ،ويكون قوله تعالى : "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ**" ممن يحضروا وصية الميت واستلام ما لديه من المتاع ليسلماه إلى ورثته وذلك "أن أنتم ضربتم فى الأرض" أي سافرتم فأصابتكم مصيبة الموت ، أي أصاب أحدكم فكانت مصيبة لكم جميعا لأن مصيبة المسلم مصيبة لجميع من معه من المسلمين فهم جسد واحد إذا أشتكي منه عضو تداعي له سائر الجسد ، ولذلك فالله تعالى يخاطب المؤمنين بقوله إذا أصابتكم بكاف الخطاب وصيغة الجمع لأن مصيبة الموت لواحد مصيبة للجميع لما بين المسلمين من التواد والتعاطف ، ومن لم يتألم بألم أخيه المسلم فليس من المسلمين فإذا حصل اتهام من الورثة لمن أحضروا الوصية تعين على ولى الأمر أن يقيمهما بعد صلاة العصر إذا كان الوصيان مسلمين ، وهذا القيد ليعلم أنهما صالحين بشهادة الجماعة ،وأن كانا غير مسلمين فبعد صلاتهم الدينية ، يقسمان بالله عند حصول الريبة والتهمة.

قوله تعالى : "**وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**" يعنى أنهما يقسمان أن يقولا الحق ولا يشتريان بالقسم شيئا قل أو كثر بتغيير وصية الميت ولو كان الذى يريدان أن يخصاه بالقسم ذا قربي "**وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ**" أي ومن الملحق بجواب القسم أنهما لا يكتمان شهادة الله التى أوجبها الله تعالى "**إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ**" أي إذا كتمنا شهادة الله أو اشترينا بالقسم شيئا قليلا أو كثيرا نكون من الذين ارتكبوا الإثم ، والإثم هو الكبيرة التى توبق فاعلها فى النار.

قوله تعالى : "**فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ**"(107).

أي فإن ظهر أو أنكشف أن الذين وصاهما الميت أن يعطيا ورثته متاعه بعد موته خانا الأمانة أو غيرا فى الوصية بعد قسمهما بالله ، فالواجب شرعا أن يقوم رجلان من ورثة الميت المستحقين للميراث فيقسمان بالله ن وجواب القسم قولهما **"لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا"** لأنا نعلم حق اليقين أن متاع الميت كان كذا وكذا ، فنقص منه كذا وكذا وما اعتدينا فى شهادتنا ولا كذبنا فى قسمنا ، وأنا لنعلم أننا إذا اعتدينا فى شهادتنا بعد القسم نكون من الذين ظلموا أنفسهم ، وقد أخبرنا الله تعالى بقوله : "أن الشرك لظلم عظيم" والكذب بعد القسم فيه شرك خفي.

قوله تعالى : **"ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ"**(108).

الإشارة راجعة إلى ما بينه الله تعالى من أحكام من أصابتهم مصيبة الموت فى السفر ، ويعنى الله تعالى بهذه الآية أن الأحكام التى قرراها "أدني" لأن يأتوا بالشهادة على حقيقتها من غير تغيير ولا كذب ولا خيانة فى متاع الميت ، وأحرى أن يخافوا من **"أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ"** أي فتضل إيمانهم وتثبت حقوق الميت لديهم ، فإذا علم الوصيان أن الشريعة قررت قيام رجلين عدلين من الورثة ببيان ما نقص من متاع الميت ويقسمان على أنهما يقولان حقا ، فيحكم ولى الأمر بما بيناه على الوصيين السابقين وهذا حق للورثة وهم أولي من غيرهم.

"وَاتَّقُوا اللَّهَ" أي وخافوا الله فيما بينه من الأحكام فلا تخالفوا أمره **"وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ"** أي لا يهدى هداية الإحسان قوما فسقوا من الدين كما تفسق الحية من ثوبها ، أي خالفوا أحكام الله تعالى ، والفاسق هو مفارق الحق لعلة من شهوة أو طمع فى متاع زائل أو للانتقام من عدو ، ومن آثر هواه على أحكام الله فقد فسق ، أي فارق الدين كما يفارق السهم القوس إلى الرمي.

قوله تعالى : **"يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ"**(109).

بعد أن بين الله تعالى الأحكام وأمرنا أن ننفذها على وجهها ، ذكر هنا يوم القيامة الذى تفزع منه القلوب وتقشعر الجلود لتقوم الحجة على أهل الفسق أنهم فى ضلال فيرجعون إلى الله بالتوبة ، فقال تعالى : **"يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ"** وذلك اليوم هو يوم القيامة ، ومعنى جمعهم أى نشرهم من القبور، وقد بينت لك فى كتاب "النشأة الثانية" شرح القيام من القبور بالحجة البالغة وبالأسباب القائمة فراجعه أن أردت المزيد.

وفى هذه الآية دليل على أن رفعة المقامات عند الله لها خطر عظيم ويجب على من رفع الله مقامه فى الدنيا والدين أن ينهج صراط الله القويم فيسير على صراط أدق من الشعرة ، وأحد من السيف ، والصراط الذى سمعنا عنه فى الآخرة هو فى الدنيا أيضا ،فإن السالك على الصراط المستقيم فى الدنيا لا يرى صراطا فى الآخرة ولا يسير عليه ، وصراط الدنيا أدق وأحد من صراط الآخرة ، وهو العمل بكتاب الله وبسنة رسول الله بالقلوب والجوارح ، وعندى أن العامل بكتاب الله وبسنة رسولهε كمن بينه وبين النار غلالة لو لمسها لفتح على نفسه بابا من أبواب النار ، وقد ورد أن رسول اللهε قال : "أنا أعلمكم بالله وأشدكم منه خوفا" ، فمن تعدي صراط الله المستقيم فى الدنيا ـ الذى أمرنا الله أن نسأله هدايتنا إليه أربعين أو ثلاثين مرة فى اليوم ـ مشى يوم القيامة على صراط مرفوع على متن جهنم لا ينجيه من السقوط فيها سوى توفيق الله له فى الدنيا فيعمل للآخرة.

قوله تعالى : **"مَاذَا أُجِبْتُمْ"** تقدم الكلام على "ماذا" أجبتم أي ماذا أجابتكم أممكم عندما دعوتموهم إلى توحيد الله وعبادته ، والجواب يعلمه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ولكن هول

الموقف وعظمة الله تعالى وكمال يقينهم بإحاطة علم الله بالكليات والجزئيات جعلهم يجيبون بقولهم "لا علم لنا" ، أي لا علم لنا بعلمك الذى تعلمه فيهم من أعمال قلوبهم وجوارحهم **"إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ"** ، وهذا خبر من الله تعالى عن قول الرسل له سبحانه يوم القيامة ، ومعنى الآية أنك أنت الله تعلم الغيوب جميعها، أي تحيط علما بما فوق العرش وما تحت النجوم وما بين ذلك وبما تكنه النفوس قبل إيجادها وبعد إيجادها وبعد ذلك ممن انفردت سبحانك بعلمه دون غيرك ، وقد قرر الإمام ابن جرير أن معني قوله تعالى : "ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا" أن السؤال كان عما فعله الأمم بعد موتهم ، فأجابوا عليهم السلام بقولهم "لا علم لنا" لانا بعد موتنا لا نعلم ما حصل ، وظاهر الآية يفيد أن السؤال كان عما أجابوهم به حتى يحسنوا الجواب ، لأن السائل هو الله تعالى والمسئول هم رسل الله صلوات الله عليهم.

قوله تعالى : **"إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ"**(110).

معنى تأويل هذه الآية وأذكر وقت قول الله تعالى **"يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ"** ، أي تذكر نعمتي "والنعمة" المضافة إلى الله تعالى نعم لا تعد ولا تحصى ، قال تعالى : **"وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا"**[1] ، وقوله تعالى : **"وَعَلَى وَالِدَتِكَ"** ، أي مريم التى أكرمها الله تعالى من طفولتها حتى وفاتها وقت تأييدك بروح القدس "والروح" هو جبريل "والقدس" هو الله تعالى ، وهذا بيان للنعم العظمي التى خصه الله بها بعد نعم الإيجاد والإمداد التى لا تحصى.

"تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا" وهاتين النعمتين من عجائب القدرة لأنه عليه السلام تكلم عند خروجه من بطن أمه حيث قال : **"قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ"**[2] ، أما كلامه فى الكهولة فله معنيان ، المعنى الأول : أنه تكلم بعد أن استوى رجلا وليس هذا بغريب ، والذى أفهمه مما يناسب عجائب القدرة أن الله ينزله فى آخر الزمان فيكلم الناس ويكون كلامه حينئذ أغرب وأعجب بل وفوق طاقة البشر ، وهذا المعنى الثاني سيكون من أبهر المعجزات.

قوله تعالى : **"وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ"** يظهر أن المراد به تعليمه عليه السلام بيان الحقائق بما آتاه الله من تأييده بروح القدس "والتوراة والإنجيل" معلومان ، فالأول أنزله الله على موسى ، والثاني على عيسى عليهما السلام ، وفى هذه الآية بيان لما أتاه الله لعيسى بن مريم من علم الكتاب والحكمة.

قوله تعالى : **"وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ"** هذه النعمة مما خص الله به عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام وهى بلاء من الله تعالى للخلق ، فكم فتن بها من لا بصيرة له من أهل النصرانية ، وكان الطب قد بلغ ف زمن عيسى مبلغا يقارب المعجزات ، فجعل الله لعيسى بن مريم معجزة حيرت عقول الأطباء فى وقتهم ،وكما كان يأخذ الطينة أمامهم فيصورها بشكل الطير وكان إذ ذاك المصورون قد برعوا فى التصوير فكان تصويره الطير ونفخه فيها فيجعله حيا ن أمر أعجز المصورون فى ذاك الوقت مما كاد يسلب العقول ، وكم هلك أقوام بسبب ما كان يرويه القساوسة لهم فى مثل هذه الأخبار مما أظهره الله على يد المسيح ليظهر براءته ونبوءته ، ويظهر الله سبحانه وتعالى

([1]) سورة النحل : 18.

(2) سورة مريم : 30 – 31.

عجائب قدرته لعباده على يد عبد منهم اصطفاه وعلمه ، وقبح الله العقول الضالة كيف حكموا بألوهية عيسى بعد قوله الذى قاله فى نفسه لإثبات عبوديته مما كثر فى الإنجيل ، بل وما ورد فى التوراة ، بل وما خلقه الله فى الكون من آيات دالات على توحيده جل جلاله ، وكل ذلك لا ينتفع به من أضلهم الله تعالى وقوله : "وتخلق" هنا بمعنى تصور ، فإن خلق وجعل وصور وصير بمعنى أحدث شيئا من شئ ، أو شيئا من لا شئ ، ومعلوم أن تصوير الأشكال التى لها ظل محرم شرعا ، ومن صور شكلا مجسما قيل له يوم القيامة أنفخ فيه أو أدخل النار ، ولما كان عيسى عليه السلام بعثه الله تعالى ليكمل شريعة موسى ، وكان أحبار اليهود قد انقسموا فى الدنيا وطمعوا فيما فى أيدى الملوك والأغنياء وكانوا على علم بالتوراة ،وكان الرومان المحتلون بلاد سوريا قد اغتصبوا علوم اليونان وغيرهم من الأمم الشرقية العريقة فى المدينة ، فكان لهم أوفر قسط من علوم الطب الذى تفوقوا فيه على من سبقهم ، فإن الله أيد عيسى عليه السلام بما أدهش علماء دهره وحير أحبار اليهود إقامة لحجة الله تعالى ، ومهما كانت هداية البيان مؤيدة بأقوى الحجج فإنها لا تؤثر على قلوب عليها أقفالها ، فالهداية المؤثرة هي هداية الإحسان التى هي هداية الله تعالى.

قوله تعالى : "**فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي**" والنفخة هنا على ظاهرها تقتضي أن يكون ذلك سرا من أسرار الله تعالى ، وجائز أن تكون "كلمة" وهى أن يقول : "أحي بإذن الله ، أو كن طيرا بإذن الله" ، و "طيرا" هنا طائر بدليل ما ورد فى بعض الروايات "والتاء" فى المضارع عائدة إلى "هيئة" أى فتكون الهيئة طيرا ، وعلى رواية "فيكون" تكون الفاعل المعنى المأخوذة من الكاف التى هى "مثل" أي فيكون مثل هيئة الطير طيرا "بإذني" أي بتقدير الله وإرادته لا بتقدير عيس وإرادته.

قوله تعالى : "**وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي**" الأكمة هو من ولد بدون عينين ، والأعمى هو من ولد بصيرا وزال بصرة ، والأعمه هو من فقد بصيرته "**وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ**" أى توجد له عينين "**وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي**"أي تشفى من تغير لون جسمه بالبرص كما فعل بشمعون من أحبار اليهود "**وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي**" وأذكر وقت أن ناديت لعاذر وهو ميت فى قبره فأخرجته حيا ن ولعاذر هذا هو ابن مريم المجدلية صديقة أمه مريم ، وقد رآهما تبكيان على قبره وطلبت منه أن يحييه لها ، ومعنى تخرج الموتى أن تخرجهم من قبورهم أحياء بعد موتهم.

قوله تعالى : "**وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ**" معنى هذه الآية أن الله تعالى كف أي منع ضرر كيد بنى إسرائيل أن يصل إليه فرفعه إلى السماء مؤيدا بروح منه سبحانه "**إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ**" وأداة التعريف "الـ" فى البينات ، أما أن تكون للعهد ويكون المعهود ما أخبرنا الله به مما تفضل على عيسى عليه السلام ،وجائز أن تكون "الـ" هنا للجنس ، والمراد جنس البينات التى أرسله الله يدعوا إليها وما أقامه له سبحانه من الحجج القوية بالمعجزات الباهرات التى بينها الله لنا فى هذه الآية ، وتكون تلك البينات هى التي أوغرت صدور اليهود فسعوا به إلى الروم المحتلين لسوريا فى وقت زمانه عليه السلام ليستريحوا مما ينالهم من الذل والخزي والهوان لو أظهر الله الحق على يديه بإظهار الحق عليهم.

قوله تعالى : "**فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ**" يعنى بعد أن جاء عيسى بالبينات لليهود الذين أخبرنا الله عنهم مع من سبق من أنبيائه عليهم السلام مما دل على خبث طباعهم وسوء نفوسهم وعمه بصائرهم ، أخبرنا جل جلاله أنه جبلوا على هذا الخبث ، فإنهم قبحهم الله تعالى بدلا من أن يسلموا بما جاءهم من الحجج وما وضح لديهم من الدلائل بل وبما ثبت عندهم فى التوراة من النبوة بالمسيح وغيره ممن قدر الله بعثهم بعد موسى أنكروا وجحدوا ويأليتهم بعد إنكارهم وجحدهم تركوا المسيح وشأنه كما يفعل العدو العاقل ، بل سعوا وغيروا كلمة التوراة فى شأن المسيح عن مواضعها ،

وأغروا حكومة الظلم المحتلة من الروم بعيسى عليه السلام ، ولكن الرب الكبير المتعال اذى وعد رسله بالنصرة والتأييد رفعه إليه ونجاه من مكرهم ، فإن قوله تعالى خبرا عنهم : **"إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ"** طليعة جيش الباطل ،وقد ورد فى رواية "ساحر مبين" وكلتا الروايتين صحيحتان ، والجمع بينهما أو رواية "سحر" معناها هذه الأعمال سحر ، ورواية "ساحر" معناها أن فاعل هذا العمل ساحر ، و "مبين" أي بين وكذبوا أخزاهم الله ، لأن الساحر لا يدعى نبوة ولا رسالة ويقيم الحجة عليها بسحره ولكنه يعمل السحر طمعا فى نيل الدنيا.

قوله تعالى : **"وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ"**(111).

الوحي معلوم وله عشرة طرق أختص الله الرسل منها بأربعة وقد وردت فى البخاري في باب بدء الوحي ، وستة منها اشترك الرسل فيها مع أهل الإيمان الكامل ، وقوله : "أوحيت" أن كان هذا الوحي بواسطة الملك يثبت أنهم أنبياء ، وأن كان المراد بالوحي هو الإلهام كما قال : "وأوحينا إلى أم موسى" وهو الظاهر من هذه الآية يكون الوحي إلى الحواريين على لسان عيسى ، وجائز أن يكون بالإلهام من عند الله تعالى للقوم بالهداية والقبول من عيسى عليه السلام **"أَنْ آمِنُوا بِي"** أي صدقوا بي كما أخبرتكم به عن نفسى من صفات كمالى وجمالي وجلالى ومن اختصاصي بالعبادة دون غيري وتفريدى بالإيجاد والإمداد "وبرسولي" أي وبأن عيسى مرسل من قبلي ليبلغكم عني محابي ومراضي **"قَالُوا آمَنَّا"** أي صدقنا الله ورسوله **"وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ"** أي وأشهد لنا عند ربنا شهادة عيان بما ترانا نقوم أمامك من المسارعة إلى تنفيذ أمرك فيما تأمرنا أن نعمله ومن الانقياد لما تبينه لنا مما يتعلق بالقلوب انقياد استسلام وتسليم كامل ، فاثبتوا الإيمان أي التصديق بقلوبهم لأن الإيمان عمل القلوب ، ولا ينبغي الحكم عليه بالشهادة بل بمجرد الخبر ممن قالوا وأشهد بأننا مسلمون ، لأن الإسلام علم من أعمال الجوارح تقوم به الحجة على التسليم وقد يكون فى بعض الأحايين دليلا على الإيمان، وقد يكون فى أحايين أخرى نوع من النفاق.

قوله تعالى : **"إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"**(112).

معنى هذه الآية واذكر وقت أن قال الحواريون : **"يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ"** بعد إقراراهم وإيمانهم بالله وبرسوله **"هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ"** ، الاستفهام هنا للتقرير لسابق إيمانهم "ويستطيع" هنا بحسب ما فهمه أهل المعرفة بالله تعالى "هل يطيعك ربك" فيتفضل عليك بإجابة ما تطلبه منه جل جلاله كما فعل مع الخليل عليه السلام ، وكان الحواريون من العلماء بالله العارفين بسير رسله عليهم الصلاة والسلام وهذا ما يناسبه مقامهم ، فتكون "السين" زائدة ، ويؤيد ذلك قولهم بعد لنأكل منها وتطمئن قلوبنا كما قال الخليل عليه السلام **"بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي"**[1] وهذا مشهد الصديقين أو الأنبياء ، فإن مقام الطمأنينة فوق مقام الإيمان ، والأنبياء لا يقفون عند مقام الإيمان فحسب حتى تقوم الحجة التى تطمئن بها القلوب.

وقد رويت تلك الآية "بالتاء" كما رويت "بالياء" فتكون هل "تستطيع ربك" بفتح رب أي هل تستطيع أن تسأل ربك مائدة لتقوم الحجة أنك مقبول الشفاعة عنده ، ولا يتصور متصور من أن الحواريين كانوا فى شك من قدرة الله تعالى علي إنزال المائدة "أن ينزل" أيى يتفضل علينا بإنزال مائدة من السماء لا لأننا فى شك من قدرته على ما هو فوق ذلك ولا فى شك أنك رسوله بما أقامه سبحانه من المعجزات الباهرات على صدقك ، ولكنا فى جوع شديد إلى معجزة سماوية بد توالي

([1]) سورة البقرة : 260.

المعجزات الأرضية ، **"قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"** أي خافوا سريع عقوبة الله تعالى بامتحانكم ، فقد قامت الحجة على توحيده جل جلاله وعلى صدق دعواه بما أظهره من المعجزات الملموسة المحسوسة "أن كنتم مؤمنين" أي أن تحققتم بالإيمان بتصديق الله تعالى وتصديقي.

قوله تعالى : **"قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ"**(113).

معنى هذه الآية أنهم قد سألوا عيسى بن مريم هذا السؤال لا شكا ولا ريبة ولا عنادا ، ولكنهم سألوه إنزال المائدة من السماء لاحتياجهم إليها من الجوع وكونها من السماء أقوى دلالة على مقام عيسى عند الله تعالى خصوصا بعد توالى المعجزات الأرضية **"وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا"** يعنى أنهم بعد أن يلغوا مقام الإيمان بما أظهره الله لهم من المعجزات وما سمعوه من عيسى عليه السلام من علوم الإيمان أرادوا أن يبلغوا مقام اليقين الذى يكمل بطمأنينة القلب كما قال تعالى للخليل "أو لم تؤمن قال بلي ولكن ليطمئن قلبي" أي ليس مقامي وأنا خليلك مقام الإيمان ، بل مقامي يقتضي أن أكون على حق اليقين ، فكذلك الحواريين وهم أصحاب عيسى يريدون أن يصلوا إلى مقام اليقين بعد الإيمان بالغيب.

قوله تعالى : **"وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ"** أي ونعلم علم اليقين الذى هو تصور النفس رسوم المعلوم حتى تكون معالم أمام جوهر النفس لا يغيب بظلال الحس ، وإذا بلغ العلم إلى هذا المقام صار المعلوم أقرب إلى النفس من كل شئ ، فيبلغ المسلم به مقام المحاسبة أو المراقبة **"أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا"** أي أنك قد صدقت فى دعواك أنك عبد الله ورسوله سبحانه وتعالى **"وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ"** لأنفسنا ولغيرنا من معاصرينا ولمن بعدنا.

قوله تعالى : **"قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ"**(114).

تأويل هذه الآية الشريفة أن عيسى عليه السلام نادي الله تعالى ، فإن قوله "اللهم" فى الأصل يا الله حذفت ياء النداء وأبدل عنها بالميم فقال اللهم ، ومعناها ادعوا الله تعالى "ربنا" منادي حذفت منه ياء النداء أيضا ، ولما كان الاسم الله علما على الذات المقدسة بكامل أسمائها وصفاتها وكان المراد من النداء الفوز بمقصد خاص وهذا المقصد ينال من الاسم الرب جل جلاله ، قال اللهم ملتجئا إلى الله تعالى مستعينا به رعاية للعلم الذى خص به عيسى عليه السلام ن ثم قال "ربنا" أي يامر بينا بالطائف إحسانك وموجدنا وممدنا **"أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ"** والمائدة سميت مائدة لأنها تمد الآكلين بما عليها من الطعام ، أو أنها مأخوذة من مادة أى إعانة بما ينفعه ، أي أنزل لنا طعاما من السماء ، أى من حيث لا يتوقع الإنسان أن ينال طعاما، لتقوم الحجة على الحواريين أن الله سبحانه يطيع عيسى ويستجيب له لأنه عليه السلام عبده ورسوله وقد أطاعه ، وتكون حجة أيضا على عجائب قدرة الله تعالى **"تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا"** أي نجعل وقت تحقق الأمر فإنها نزلت فى يوم أحد فاتخذه أتباع عيسى عيدا لهم **"وَآيَةً مِنْكَ"** أي دالة على قدرتك سبحانك وصدق رسالة عيسى ومقامه.

قوله تعالى : **"وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ"** "وارزقنا" أي أدم عطاياك التي هي قوامنا في ضروریاتنا وكمالياتنا دائمة ميسرة "وأنت خير الرازقين" خبر عن عيسى عليه السلام بالحقيقة التى لا مراء فيها ، ومعنى أنت خير الرازقين أي أنه لا رازق إلا أنت فإنك تعطي بفضلك وكرمك لا لسبب ولا لعلة ، وتمنع كذلك الأرزاق ، فلا رازق سواك.

وفيما أخبرنا الله عن الحواريين وعن عيسى بيان لما تفضل الله به على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من كمال المعرفة والأدب ، لأن الحورايين قالوا عند طلبهم المائدة من عيسى "نريد أن نأكل منها" فقدموا الشهوة الجسمانية على الأعمال الروحانية ، ثم أخروا القسم الروحاني بعد الشهواني

بقولهم "وتطمئن قلوبنا" وأما عيسى عليه السلام فإنه قدم حقوق الروح على الجسم بقوله "أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك" ثم أفرد الحق جل جلاله بالقصد فى جميع شئونه دون غيره فقال "وارزقنا" الرزق الذى يجعلنا نشهدك واحدا أحد فاعلا مختارا "وأنت خير الرازقين" وهذا هو مقام الأدب اللائق بالرسل عليهم الصلاة والسلام . فالرسل وقع بهم العلم على عين اليقين فشهدوا من الغيب المصون ما لا يشهده غيرهم من الإبدال والصديقين ، وأهل الإيمان رفعهم الله والذين أوتوا العلم درجات ، وأعلاهم درجة الصديق الأكبر والصديقية بتفضل الله بها على من أقامهم خلفاء عنه فى أرضه وإبدالا لرسله عليهم الصلاة والسلام.

قوله تعالى : "**قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ**"(115).

تأويل هذه الآية الشريفة أن قوله تعالى "**إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ**" إجابة من الله تعالى بسؤال عيسى بن مريم الذى طلبه من ربه . إجابة لقومه الذين طلبوا منه أن يسأل الله تعالى إنزال مائدة من السماء تقوم بها الحجة على توحيد الله وقدرته ، وعلى صدق عيسى فى دعواه الرسالة وفى قوله "عليكم" إشارة إلى أن الله تعالى أراد إقامة الحجة عليهم ، لأنه تعالى لم يقل منزلها لكم ، لأن من طلب المعجزة أثبت أنه فى ريبة من صدق الرسول ويكون طلبه امتحانا لله تعالى ، فجعل سبحانه استجابته لعيسى بخبره تعالى أنه منزلها عليكم سببا فى وعيد الله تعالى لهم أنه سبحانه يعذبهم عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين ، أسأل الله تعالى أن يمنحنا الإيمان بالغيب والتسليم لرسله صلوات الله وسلامه عليهم.

قوله تعالى : "**فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ**" أي فمن يخالف آداب نزول المائدة بأن يدخر منها أو يخون فيها أو يشك بعدها أو يرتاب أو يتعدى حدود الله بعد تلك المعجزة الباهرة فإن الله يعذبه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين ، فلما أنزلها سبحانه وتعالى وهذا ما عليه أكثرية العلماء ، وقد تواتر أن بعضهم خان فيها وادخر بعضهم شيئا منها وارتاب البعض الآخر ، فعذبهم الله تعالى فى الدنيا عذابا لم يعذبه أحدا من عالم أهل زمانهم ن وذلك بمسخهم قدرة وخنازير ولهم عذاب يوم القيامة فوق هذا العذاب ، وأن قال بعض العلماء أن الله لم ينزلها عليهم لأنهم لما علموا أن الله يعذب من يكفر بعد نزولها بعذاب لا يعذب به أحدا من العالمين تركوا طلبها ، ولمن حكم بنزولها حجته ، ولمن حكم بعدم نزولها حجته ، وأولي التأويلين تأويل من حكم بنزولها والله أعلم.

قوله تعالى : "**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**"(116).

تأويل هذه الآية الشريفة أن سؤال الله تعالى عيسى بن مريم قد كان فى الدنيا بعد رفعه إلى السماء "إذ" فإن إذ تكون للماضي من الزمان ، ولو كان هذا الكلام يوم القيامة لكان المناسب "إذا" والحقيقة أن هذا الكلام يكون يوم القيامة بدليل قوله تعالى : "**هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ**" وللجمع بينهم نقول أن "إذ" ذكرت كثيرا فى موضع "إذا" كما فى قوله تعالى "ولو ترى إذ فزعوا" أي يفزعون فوضعت إذ موضع "إذا" وكقول أبي النجم "ثم جزاه الله عنا إذ جزي" والمعنى إذا جزي ، لأن المراد الجزاء يوم القيامة "فإذ" هنا بمعنى إذا وجزي ، بمعنى يجزي ، فثبت إذا أن سؤال الله تعالى عيسى يكون يوم القيامة . والاستفهام هنا إنكارى ، ومعلوم أن الحق جل جلاله علام الغيوب يعلم أن عيسى عليه السلام لم يقل شيئا من ذلك لكنه جل جلاله أراد بالاستفهام لعظيم الأمر وإعلام عيسى بأن قومه غيروا من بعده واتخذوه وأمة ألهين من دون الله.

"قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ" أي تنزيها لك وتقديسا أن يكون لك شريكا وولد ، وما أنا فى الحقيقة إلا عبد ذليل خاضع ، وما أمي إلا أمة من أمائك ، وليس من حقى أن أقول للقوم اتخذوني وأمي ألهين من دونك ، وما ليس من حقي كيف أقوله فلم ينكر عيسى القول ولم يثبته أدبا مع الله ورهبة منه ، فإن عيسى عندما سأله الله هذا السؤال كاد يصعق من الخوف خشية أن يكون قاله.

قوله تعالى مخبرا عن عيسى **"إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ"** والمعنى أن عيسى عليه السلام يقول لربه أنك تعلم ما تخفيه نفسى فيكون علمك بما قلته وما أظهرته أولي ، فلو أني قلته لعلمته سبحانك لأنك تنزهت وتعاليت علام الغيوب فلا يخفى عليك شئ من الظاهر ولا من الباطن ، وبهذا القول أظهر عيسى كمال الأدب مع ربه جل جلاله حيث فوض الأمر إليه ولم يحكم على نفسه بالقول ولا قام بنفيه عنه ، وهذا من كمال أدب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع ربهم لأنهم فى أرقى مقامات التفويض ، ثم أنه عليه الصلاة والسلام بعد أن فوض الأمر إلى الله ، قام ببيان حقيقة ما قال لقومه ، وقد أخبرنا الله تعالى عن ذلك فى الآية التالية.

قوله تعالى: **"مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"**(117).

أي أنه صلوات الله عليه قال لهم ما يجب أن يقوله بصفته عبد الله ورسوله ، **"أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ"** "أن" هنا تفسيرية أي اعبدوا الله ربى وربكم الذى أوجدنى وأوجدكم وأمدني وأمدكم بما سخره لنا فى السموات والأرض مما لا ب لنا منه وأكمل ، ومعنى اعبدوا الله أي خصوا الذات المقدسة بالعبادة ، لأن لفظ الجلالة علم على الذات الواجبة الوجود **"رَبِّي وَرَبَّكُمْ"** الذى تولانا وربانا وخلقنا وأكرمنا بما هو أهل له لفضله وكرمه.

قوله تعالى **"وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ"** بالموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الحق والترغيب والترهيب **"فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ"** أي فلما رفعتني إلى السماء بعد أن وفيتني ما قدرته على فى الأرض **"كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ"** أي الحفيظ عليهم القادر على أن توفقهم لما تحب أو أن تضلهم فتهلكهم **"وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"** أي أنك سبحانك علام الغيوب فلا يخفى عليك شئ ، وأنت الشهيد على جميع ما خلقت ومن خلقت ، أما أنا فعبد ذليل ليس لي أن أشهد إلا على ما رأيته بعيني وسمعته بأذني والأمر مفوض إليك وأنا عبدك ، ورسولك الخاضع لأمرك وإرادتك.

قوله تعالى **"إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"** (118).

"تُعَذِّبْهُمْ" أي أن تعذب القوم الذين اتخذوني وأمي الهين من دونك سبحانك فإنهم عبادك ، أي هم العبيد المقهورون تقهرهم بقهرك سبحانك والعباد المربوبون بربوبيتك جل جلالك ، فإن شئن أن تعذبهم أن ماتوا على الكفر ولم يتوبوا عن كفرهم.

قوله تعالى **"وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"** أي وأن كانوا تابوا عما قالوه من الكفر وقبلت توبتهم فتغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، أي شديد الانتقام والقهر الحكيم فى أمرك وإرادتك ، فلا تحكم بأمر إلا وفى طيه أنواع من الحكمة الدالة على خفى لطفك ، وفي هذه الآية إشارة إلى أن هذا الكلام يكون يوم القيامة فإن الخليل عليه الصلاة والسلام قال "فمن تبعني فإنه منى ومن عصاني فإنك غفور رحيم" فعيسى عليه السلام تأدب مع الله كمال الأدب ، ولو قال فإنك غفور رحيم لكان ذلك عن ضعف لا عن عزة وحكمة بخلاف قول الخليل فإنه قال فى الدنيا ، والدنيا واسعة تقبل فيها التوبة ، أما الآخرة فإنها مظهر جلاله الأكبر وجماله الأكمل ، فقول عيسى عليه السلام "أن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" رعاية مقتضى الحال ، والمعنى أنك أن غفرت لهم يوم القيامة فتكون مغفرتك لهم عن

عزة قائمة وحكمة عالية لا عن ضعف واحتياج ، وفى هذا المقام تكون المغفرة فضلا عظيما من الله تعالى.

قوله تعالى : **"قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"**(119).

هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى يبن لنا فيه أنه سبحانه وضع الأسباب بحكمة اقتضتها كمالات أسمائه وصفاته ولم تقتضيها ضرورة ملحة ولا علة باعثة لأنه تنزهت ذاته العلية عن العلة والسبب ، فوضع جل جلاله فيما وضع من الأسباب أن الصدق في العقيدة فى العمل والاختبار القلبي ينفع أهله يوم القيامة ، فهذه الآية الشريفة حجة وجذبة ، أما حجة فلأن خبر الله تعالى بالوعد لا يخلفه ، وأن أخلف وعيده فى الخبر ، وجذبه لأن أهل الإرادة تتضح لهم المحجة بمعنى هذه الآية الشريفة فتقوى بواعث الصدق عندهم ، حتى يكون حالهم المراقبة بعد المحاسبة ثم المشاهدة ، فيكون الحق سبحانه معالم بين أعينهم لا يغيبون إذا غاب أهل الغفلة ، ولا يحجبون عن شهود آيات الله المنبلجة فى الكائنات الدالات على كمال التنزيه والتفريد ، والإشارة عائدة إلى يوم القيامة **"يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ"** بما وضعه الله تعالى من الأسباب التى يكون بها النافع فى الحقيقة هو الله تعالى لأنه الواضع للأسباب والأواسط المسببة لها ، وهنا تتشوق الأرواح الطاهرة الى معرفة ما لهؤلاء الصادقين من جزاء عند ربهم فقال سبحانه مطمئنا لقلوبهم **"لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا"** هذه الآية بشرى من الله تعالى لأهل الصدق معه سبحانه ، لأن ذكر الموت أو الفناء بعد الفوز بهذا النعيم الذى لم تسمعه آذان ولم تره الأعين ولم يخطر على قلب بشر يحزن من تمتع بهذا النعيم ، وليتم الله تعالى سرور أهل الصدق بهذا المقام العظيم بشرهم بالخلود فيه ن ولما كان الخلود فحسب ربما يعتوره شئ من شوب ذكر الموت والفناء أزال الله عن قلوبنا ما ربما يلم بها فقال سبحانه "أبدا" ثم بين جل شأنه سبب هذا الخلود الأبدي بقوله تعالى **"رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"** والرضا عند أهل العلم بالله هو برد القلب عند نزول مر القضاء فرحا بقدر الله تعالى ، وهذا مقام قد يبلغ الرجال الولاية ومع ذلك يحرمونه منه لأنه من مقامات كمل الصديقين ، وقد أخبرنا الله تعالى أنه رضى عن أصحاب رسول الله وأرضاهم عنه بعد ذكر ما قاموا به لله ولرسولهε ، وذكر الرضا بعد الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار فيه بيان لعلو مقام الرضا عند الله تعالى.

قوله تعالى : **"ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"** الإشارة عائدة إلى ما أخبرنا الله عنه من إحسانه لعباده الصادقين أي هو العطاء العظيم ، وفي قوله "الفوز العظيم" دليل على أن العبارة لا تفي بقدره ، ولكنا نؤمن ونسلم لله خبره ونكل مقداره وهيئته لله جل جلاله حتى إذا تفضل ومنحنا هذا الافضال العظيمة يمكننا أن ندركها ، ولكنا نسأل الله تعالى أ، يعيننا على شكره ، وأن يجعلنا من أهل هذا المقام عنده سبحانه.

قوله تعالى : **"لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"**(120).

هذه الآية الشريفة حجة قائمة على أن السموات والأرض وما فيهن لله تعالى إيجادا وملكا وتصريفا ن وعيسى عليه السلام وأمه مملوكان لله مخلوقان له مقهوران بقهره ضمن من فى السموات ومن فى الأرض ، ودعوى النصارى أن عيسى قال لهم أنا وأمي الهان من دون الله دعوى باطلة كاذبة بدليل الحس والعيان ، وعيسى وأمه لا يخرجان عن كونهما عبدين لله عابدين له سبحانه ليس لهما أدني تصريف فى الأرض ولا فى السماء ، وكون عيسى خلق من غير أب لا تقوم به حجة على أنه أله من دون الله ، فأن الله خلق أنواع ملكوته الأعلى لاهوته وجبروته وعالم أعلى وعلين من لا شئ وهى كلها مخلوقة مقهورة لله ، وآدم عيه السلام فى خلقه أعجب من عيسى لأن آدم أبوه وأمه الطين ، وعيسى أمه

مريم وأبوه جبريل لأن الله تعالى أرسله فنفخ فيها من روحه فكان سببا قائما كقيام الوالد للولد ، وبعيدا جدا أن يكون عيسى قد قال أنا وأمي ألهان من دون الله ، ولكن الشيطان أخزاه الله بعد رفع عيسى أتي لمن فر من حواريه فخدعهم حتى أتبعوه فى أن أباه هو الله كما قدمت لك وكم خدع رجالا فأفسد عليهم عقيدتهم وعبادتهم ، ومن كان له ملك السموات والأرض وما فيهن تفرد سبحانه بالألوهية وصار كل ما سواه ومن سواه مقهورون بقهره تعالى ، وقد ختم الله تلك السورة بهذه الآية تقريرا لحقائق التوحيد . كما أفتتحها بأمر المؤمنين بالوفاء ، ومن ضمن تلك العقود عقد يوم ألست الذى يقول الله تعالى فيه "**أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ**"[1].

نسأل الله أن يمنحنا الفقه فى كتابه ويوفقنا للعمل بمحابه ومراضية . أنه مجيب الدعاء.

([1]) سورة الأعراف : 172-173.

[سورة الأنعام]

قول تعالى : **"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ"**(1).

هذه السورة الكريمة نزلت دفعة واحدة فى مكة إلا ست آيات منها نزلت فى المدينة ، ولم تنزل سورة بتمامها على النبيε إلا هذه السورة لأنها جمعت أصول الدين ، وما يتعلق بالعقيدة والآداب وبيان الغيب المصون ، فدل ذلك عل أن أول علم مقدم من علوم الدين هو علم الأصول ، فيكون فرضا على كل مسلم ومسلمة.

قوله تعالى **"الْحَمْدُ لِلَّهِ"** سبق الكلام عليها فى سورة الفاتحة ، ولكنا لا نخلي هذا الموضع من بيان فيه مزيد ، فمن المعلوم أن المدح أعم من الحمد ن والحمد أعم من الشكر ، لأن المدح قد يكون للعاقل وغيره ، فإنك قد تمدح بعض الجواهر الكريمة لما اختصت به من الصفاء وسطوع اللون واللطف . وقد تمدح بعض الحيوانات لما امتازت به من جمال الهيئة والتكوين ،ومن قبول التدريب والتأديب ، كما تمدح أهل صفات الكرم والعفة والشجاعة ، "والحمد" خاص للاله العظيم لما يتفضل به من النعم اختيارا ،وعمومة على الشكر أتي من جهة أن المحمود قد يتفضل بسوابغ النعم الجميلة على الحامد أو على غيره ، فهو عام من تلك الجهة ، والشكر هو تعظيم من أسبغ نعمة على الشاكر فقد ، و "ال" هنا للاستغراق فى الحمد بمعنى أن حقيقة أنواع الحمد ثابتة لله تعالى ، لأن الأسماء والصفات التى تفيض بالخيرات الموجبة للحمد ثابتة لله فلا يحمد فى السراء والضراء سواه.

وفي قوله تعالى **"الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ"** بيان لحكمة استحقاقه للحمد جل جلاله ، وجمع السموات لكثرة طبقاتها وأفلاكها الثابتة والسيارة وقدمها فى الخلق ، لما جمع فيها سبحانه وتعالى من الخيرات التى يفيضها على الأرض وما فيها ومن فيها ، وما من كوكب فى السماء إلا وهو خاص بخير ينتفع به أهل الأرض ولهذا قال تعالى **"وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ"**[1] كما أن فى خلق السموات والأرض حجة بالغة على أنه سبحانه أله واحد وخالق منفرد بإيجاد الخلق والأمر ، وفى ذلك من النعم ما لا يحصي والمنن التى لا تستقصي مما يوجب على الخلق تفريده بالحمد جل جلاله واختصاصه بالعبادة دون غيره من خلقه . فما فى الوجود من شئ أو شأن إلا وهو من خلقه وأمره.

قوله تعالى **"وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ"** وجعل هنا بمعنى صير "والظلمات" لياليها "والنور" ، وجائز أن تكون الظلمة هى العدم والنور هو الوجود ، وهذه هى صيغة الحمد التى يقبلها الرب من العبد وفاء لحقه جل جلاله ، لأن الله كلفنا بأن نحمده على نعماه فعجزنا عن القيام بالحمد ، فحمد جل جلاله ذاته بصيغة رضيها لنفسه وقبلها منا سبحانه وتعالى ، أما حقيقة الحمد فلا يستطيع القيام بها مخلوق على الإطلاق ، وفى قوله "الذى خلق السموات والأرض" أعلام بوجوب الحمد علنيا شرعا وعقلا لأن تفضله علينا بالإيجاد والإمداد نعم تعجز العقول عن حمده تعالى عليها ، قالε "ثمن الجنة لا إله إلا الله ، وثمن النعمة الحمد لله" فمن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله دفع ثمن الجنة ، ومن قال الحمد لله دفع ثمن النعمة.

([1]) سورة الذاريات : 22.

وقوله تعالى **"ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ"** جاءت هذه الآية الشريفة بعد ما تقدم من ذكر الدلائل الساطعة على كمال قدرة الله وتوحيده وتنزيهه عن الضد والند والولد والشريك أنزلها الله تعالى ليتعجب عباد الله المؤمنين من أهل الكفر بالله والملحدين ، الذين يضعون مخلوقا فى مكانة الخالق ، وكان بعض الخوارج يؤولها أنها نزلت فى أهل الإيمان الذين اختلفوا من الصحابة ، وهذا من الجهل البين ، وقد تأولها بعضهم أنها نزلت فى أهل الكتاب ، ولكن لم يرد نصر صريح يفيد ذلك ، وأولي التأويل لهذه الآية أنها نزلت تشنيعا على كل كافر بالله من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان والدهرين والفلاسفة وكل من جعل لله مساويا من خلقه أو ضدا أو ندا أو شريكا له فى ملكه.

وهذا التأويل أولى خصوصا بعد أن بين الله تعالى لنا فى الآيات السابقة أنه جل جلاله خلق السموات والرض وجعل الظلمات والنور ، ومن جعله السموات منسقة أفلاكها منتظمة مداراتها وبروجها ، وأفاض الخير مما جمعة فى سمواته على الأرض من أنوار وأمطار ورياح جمع فيها حكم ولآيات وبراهين قاصمات لظهور أهل الكفر بالله تعالى ، مما دل على عظمته وكبريائه وقدرته ، وأنه جل جلاله هو القادر الحكيم ، الذى خلق الأرض وكنز فيها من أنواع المعادن والعناصر المختلفة وجعل فيها من أنواع النباتات والبحار والأنهار والجبال ، وزين سطحها بأنواع الحيوانات ، وبحارها وأنهارها بالأسماك ، وأوديتها وغياضيها ونجدها وبطحائها بالطيور والحيوانات ، وصرف فى الأجواء والأرجاء النسيم العليل الذى به حياة كل حيوان ونبات ، وفوقه الهواء الذى به يطهر وجه الأرض مما عليه من الفضلات ، ولحمل السحب إلى حيث يشاء الله بما تحمل من الماء العذب ، وأودع فى السموات والأرض خزائن خيراته لعبادة.

أن الله خلق هذا الخلق العظيم وجعله مسخرا لبني الإنسان وأقام الدلائل الواضحات والحجج البينات على أن كل من فى السموات والأرض عبيدا له جل جلاله بما أقامه من الدلائل عامة وحياة الأناسي خاصة ، وبقائهم زمنا محدودا وتغيرهم فى مدة بقائهم ، ثم يفنون فناء العبيد المقهورين ، كيف يكون منهم من يشابه ربنا جل جلاله ، وكيف يعدلون به ربنا سبحانه ، ولو استعمل الإنسان عقله بعد تجرده من العلة والغرض والحظ والهوى لاتضح له أن السموات والأرض وما فيهن مخلوقات لله مقهورة بقهرة جل جلاله ، فكيف يعدلون بربهم شيئا مما حكمت عليه حقيقته بالحدوث والفناء .

قوله تعالى : **"هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ"**(2).

هذه الاية حجة بعد حجة على تفريد الله تعالى بالألوهية وإيجاد من سواه وما سواه ، لأن المخلوق من الطين قامت عليه الحجة أنه اضعف الخلق أجمعين قال الله تعالى **"لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"**[1].

"هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ" ومعنى خلقكم من طين ، أي خلق أصلكم الذى هو آدم من طين وأنتم مخلوقين أصلا من طين ، ومن تذكر ذكر ، ومن ذكر حضر فحفظ لنفسه قدرها ، ولزم أعتاب العبودية وسارع إلى القيام بالشكر على تلك النعم التى لا تحصي ، وإذا كان آدم مخلوقا من الطين ، وكنا نحن لم نشهد خلقه من الطين ، فإن الله سبحانه وتعالى حفظ لنا هذا المثل الأعلى فى أنفسنا فخلقنا من ماء مهين يجرى فى مجرى البول مرتين ، وكفى بذلك خسة ودناءة لو تدبر أهل الكفر بالله ، وأهل الغفلة عن المبتدأ والمنتهي ، فإن المبتدأ ماء مهين جرى فى مجرى البول مرتين والمنتهي جيفة قذرة تتحلل فى الطين ، ومن علم المبتدأ والمنتهي وتيقن أن المرجع إلى ربنا جل جلاله تأدب بما ينبغي أن يتأدب به العبد لسيده.

([1]) سورة غافر : 57.

قوله تعالى : **"ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ"** أما الآجل الذى قضاه يبتدئ من وضع النطفة المخلقة فى الرحم وتنقلها فى أدوارها الآدمية والبشرية إلى ساعة الموت ، هذا هو الأجل الذى قضاه.

وقوله تعالى : **"وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ"** الأجل المسمي عنده يبدأ من ساعة الموت إلى يوم القيامة ، والأجل الأول معلوم لنا وأما الأجل المسمي عنده فلا يعلمه إلا الله تعالى فإن عمر البرزخ مجهول انفرد بعلمه الله تعالى ، وهذا التأويل أولي ، وفى قوله تعالى : "عنده" أي فى غيب قدره **"ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ"** أي ثم أنتم أيها الناس الذين لم يقع بهم العلم على عين اليقين ولم يقوى إيمانهم بالغيب تشكون فى تفريدنا بالألوهية دون غيرنا بعد أن ثبت أننا خلقنا جدكم الأول من طين ومنه ولدتم فأنتم فى الحقيقة ممن هو من طين ، وتشكون فى أنه جل جلاله قدر لكم أجلين بخلاف غيركم من أنواع الحيوانات فإن لها أجلا واحد ، وقد بينت الاجلين فيما تقدم ، ومن شك بعد بيان الله تعالى فى ما بينه من دلائل تجلي كمال قدرته وحكمته وعلو كمال علمه بالجزئيات والكليات ، فهو رغم كونه إنسان لكنه أضل من الأنعام وأشر من إبليس.

قوله تعالى : **"وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ"**(3).

هذه الآية الشريفة حجة أخرى قصمت ظهور أهلا الكفر بالله وأهل الفسق وأهل الشك والريب ممن يحكمون على الله تعالى فيجعلون علم الله كعلمهم ، ويعتقدون أن الله تنزه وتعالى لا يعلم الجزئيات لأن علمه بالجزئيات يقتضي حدوث العلم ، فهو لا يعلم المطيع من العاصى على دعواهم الباطلة ، وإذا جهل المطيع والعاصي كيف يثيب ويعاقب ن وإذا فلا قيامة تقوم ، وهذا هو الكفر الصراح ، فأقام الحجة عليهم بقوله : **"وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ"** أي ليس فى السموات والأرض إلا آثار قدرته وحكمته التى خصصتها إرادته من حضرة علمه . فهو سبحانه وتعالى يعلم الكليات ظاهرها وباطنها ، والجزئيات صغيرها وكبيرها وما هو أخفي من ذلك ، لأن أسمائه وصفاته هي المتجلية فى كافة مخلوقاته " **مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**"[1] ، ويعلم ما توسوس به النفوس ويعلم عدد ذرات الأجرام العظام ، ويعلم عدد مثاقيلها بالموازين ، ويعلم خواصها قبل إيجادها فى الأعيان الظاهرة ،ويعلمها على ما هى عليه الآن وفى كل نفس وأقل ، ويعلم أدوارها وتنقلاتها وحركاتها وسكناتها ، ومن ضمن ذلك يعلم سركم وجهركم ، والسر هو الذي لا تحس به الجوارح ، والجهر ما يبرز عن الجوارح ، **"وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ"** أي ما تعلمه جوارحكم مما هو من كسبكم ، فقد يكون لكم خيرا فى الدنيا والآخرة ما كان من طاعة الله تعالى ، وقد يكون خيرا فى الدنيا بحسب نظركم ومألوفكم وشرا يوم القيامة بالعقوبة عليه والعذاب ، وكما يكون خيرا فى الدنيا والآخرة ، قد يكون شرا فى الدنيا والآخرة لتعجيل عقوبة الله وتأجيل عقوبته عليه يوم القيامة ، ونطوي بساط معنى تلك الآية حتى تسمعها آذان الأرواح أدبا مع الله تعالى وحفظا للعقول.

قوله تعالى : **"وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ"**(4).

هذه الآية الشريفة دلت على غلوهم فى العدول بربهم واتخاذهم من خلقهم من طين مساويين له وأندادا ، وعلى فريتهم ومريتهم وافترائهم بسوء الظن والشك والريب وحجة ذلك أنهم كلما أقام الله تعالى بينهم رسولا يدعوهم إلى الحق ويدلهم على سبيل السعادتين ، ويبين لهم ما نزله الله إليه ليبينه لهم ، أعرضوا عنه وجحدوا وأنكروا ، وفى الآية نفي وإثبات بأسلوب القصر ، فحكم الله عليهم بأنهم

([1]) سورة المجادلة : 7.

مقصورين على الأعراض عن قبول ما يتفضل الله به عليهم على السنة رسله لخبث طباعهم ونجاسة نفوسهم التى سجل القضاء عليها أنها لا تقبل عن الله شيئا . قال تعالى **"قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى"**[1].

قوله تعالى : **"فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ"**(5).

الفاء هنا "فاء" الفصيحة عن جواب شرط مقدر تقديره إذا ثبت عليهم ذلك فيما مضى **"فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ"** ، والحق هنا هو القرآن ومحمدε فإن القرآن حق ومحمدε حق ، لأنا إذا قلنا القرآن حق ثبت أن محمدا حق لأنه جاء به ، وأن قلنا محمد حق ثبت أن القرآن حق لأنه أنزل عليه.

قوله تعالى : **"فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ"** أي فسيمهلهم الله تعالى استدراجا لهم لينفذ ما قدره سبحانه عليهم من الضلالة والغواية ، ثم تأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون فى الدنيا بضرب الجزية عليهم أو خزيهم بالرق ، وفى الآخرة بالعذاب الأليم ليذوقوا وبال أمرهم.

قوله تعالى : **"أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ"**(6).

تأويل هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يشير إلى أهل مكة الذين كذبوا رسول اللهε بقوله ما معناه ألم يروا أهل مكة كم أهلكنا كثير من قبلهم ، **"مِنْ قَرْنٍ"** ومن هنا فى مقام النفي للعموم ، والقرن هو مدة اقتران جماعة من بدايتهم إلى موتهم ، وقدره بعضهم بسبعين سنة أو ثمانين سنة ، والقرن كما بينت لك قد يكون أكبر وقد يكون أقل بحسب عمر من اقترنوا ببعضهم.

قوله تعالى : **"مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ"** أي جعلنا لهم مكين فى أماكن تيسر ضرورياتهم وكمالياتهم فى الحياة لأن اللفظ وأن دل على المكان ففى طيه تيسير الكماليات بملاحظة التمكين ، وقوله تعالى **"مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ"** فيه العدول عن الغيبة إلى الخطاب مقتضى سياق الخبر الملحوظة فيه قل يا محمد عليه الصلاة والسلام ، وفى هذا السياق ـ ألم تروا وألم يروا ، ومكنا لهم ، ومكنا لكم ، وهى اللغة الفصحى والمخاطب هم الذين أخبرنا الله عنهم بسياق الغيبة وهم أهل مكة الذين كذبوا رسول اللهε ، ثم بين هذا التمكين فى الأرض بقوله **"وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا"** والمراد بالسماء هنا السحاب ويكون المدرار صفة للسحب ، وجائز أن يكون صفة للمطر الذى أنزله الله من السحاب ، والمدرار مأخوذ من الدر وهو نزول المطر الوفير الذى ينتظره أهل مكة ، فإن إنزال المطر المدرار يحي الأرض بعد موتها فيكثر الزرع والضرع والثمار والفاكهة ، وإنزال الأمطار إنما ينتفع بها بعد انتهاء نزولها ، ولما كان فضل الله العظيم لا ينقطع عن خلقه بين ذلك بقوله **"وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ"** أي تحت أشجارهم ومزروعاتهم ليدوم فضل الله عليهم ينتفعون به متى شاءوا ، ولا أنفع للعالم من الأمطار والأنهار ، فإن الأمطار والأنهار بها زهرة الحياة الدنيا ، فتكثر البساتين والحدائق والغياض والرياض التى تطيب لها الحياة.

قوله تعالى : **"فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ"** والهلاك هو الموت . ولكنه فى هذا المقام بالنسبة لقوله تعالى : **"بِذُنُوبِهِمْ"** خسف بهم الأرض كما فعل بقوم لوط ، أو أغرقهم كما فعل بقوم نوح أو أهلكم بطير أبابيل أو سلط عليهم الجراد والنمل والضفدع آيات مفصلات لمن كفروا بسلب ما تفضل الله به عليهم ، قوله تعالى :**"وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ"**.

([1]) سورة البقرة : 120.

وكما بينا فى الإهلاك نبين فى هذه الآية ، أن الله ينشئ فى كل حال قرونا متعاقبة ، ولكن الإنشاء هنا دليل على قدرة الله تعالى ، وأن كفر الأمم وجحودهم لا يضر الله شيئا ، بل وإيمانهم وأعمالهم الصالحة لا تنفع الله بشئ، فهو جل جلاله الضار النافع ، وما هلك من هلك إلا بكفره ومعصيته لله تعالى وما فاز إلا بمسارعته إلى محاب الله ومراضية سبحانه ، قال تعالى **"مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا"**[1].

قوله تعالى : **"وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ"**(7).

يطمئن الله تعالى قلب نبيه محمدε رحمة من الله به لما كان يعتوره من الحزن على من كان يكذبه من أهل الكفر بالله تعالى ، مبينا له صلوات الله وسلامه عليه ، أن أهل الكفر بالله لا يعقلون عن الله ولا عن أنبيائه عليهم السلام شيئا مهما كانت الآية حتى ولو بلغت أن تكون محسوسة ملموسة ، لأن الله سجل عليهم الكفر به سبحانه ، وتكذيب أنبيائه عليهم السلام.

ومعني هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يقول لحبيبه محمدε أن هؤلاء الكفار من أهل مكة بلغ بهم الكفر والجحود مبلغا جعل قلوبهم مقفولة وبصائرهم وأبصارهم فى عما عن تدبر آيات الله تعالى حتى بلغ بهم الحال أن الله تعالى لو أنزل عليهم كتابا من السماء محسوسا ملموسا لتأولوه كما تأول إبليس الرجيم عند أمر الله تعالى له بالسجود ، ولقالوا "أن هذا إلا سحر مبين" وذلك كفرا بالله تعالى وتكذيبا لك "ولو" هنا حرف إمتناع ، والامتناع ينفي المثبت ويثبت المنفي ، فتكون المعني ، إذا أنزلنا عليك كتابا فى قرطاس عيانا بيانا لقالوا هذا سحر مبين ، وما قالوا بعدم إنزاله ولكنهم قبحهم الله تعالى لو حصل إنزاله لقالوا ، وخبر الله حق ، لأن النفوس العنادية هى أشر النفوس ، وإنما يسلم لله ولرسوله ولأهل العلم بالله من صاغ الله جواهر نفوسهم من نور جماله سبحانه ، وقد تقدم الكلام على معنى السحر "ومبين" أي بين.

قوله تعالى : **"وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ"**(8).

معلوم أن "لولا" حرف امتناع لوجود سبب عدم إيمانهم بالإسلام لامتناع نزول ملك على محمدε ، والحال أننا لو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ، أي لانتهي دور الكون والنشأة الأولي التى جعلناها دار ابتلاء وتكليف وتعريف ، وأوجبنا فيها الإيمان بالغيب بعد قيام الحجة بالمعجزة ووضوح المحجة بالآيات التى أعجزت العقل ، ولا يشهد الملائكة إلا من ذكت نفسه وطهرت من شوب الشرك الخفي ودرن مقتضيات العناصر ، أو صيغت جواهر نفوسهم من أصفى الجواهر النورانية كالرسل صلوات الله وسلامه عليهم وإبدالهم رضى الله عنهم الذين منحهم الله نورا فى قلوبهم يقدرون به على مواجهة الملائكة وعلى التلقي منهم وحيا أو إلهاما كما بين الحديث الصحيح مراتب الوحي.

ومعني هذه الآية أن عباد الأوثان الذين يعدلون بالله ، وأهل الجحود بآيات الله ، وأهل الكفر بالله تعالى من أهل الملل والنحل المضلة بعد ما تقدم من تشنيع الله تعالى عليهم بأنهم عدلوا به وشكوا فيه سبحانه وأعرضوا عن رسوله محمدε استهزاء بما جاءهم غالوا فى كفرهم فقالوا **"لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ"** ، وكم قالوا ما هو أشر من ذلك فقد قالوا ما أخبرنا به الله عنهم بقوله **"وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ**

([1]) سورة الكهف : 17.

تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ"[1] ، وأمثال هؤلاء أبعدهم الله تعالى عن رحمته الواسعة وأقامهم فيما يغضب الله ودليل ذلك قوله تعالى **"وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ"** أي لا نطوي بساط هذا الكون وطويت السموات كطي السجل للكتاب وتقوم القيامة **"ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ"** أي لا تؤجل حياتهم بعد نزول الملك على حقيقته الملكية.

وجائز أن يكون معني "ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر" أي ولو أنزلنا ملكا فكفروا به بعد نزوله على صورته الحقيقية لعجل لهم العذاب فأهلكهم جميعا ثم لا يؤخرهم ليتوبوا كما فعل بقوم يونس عليه السلام ، فإن نزول الملك ظهور لغيب الملكوت الأعلى الذى إذا ظهر آمن به كل كافر قال الله تعالى مخبرا عما قامت قيامتهم ، **"رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ"**[2].

قوله تعالى : **"وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ"**(9).

أي ولو قدرنا بأن يكون الرسول إليهم ملكا لجعلناه فى صورة رجل حفظا لمرتبتهم البشرية حتى تقوم الحجة على خبث طبعهم ونجاسة نفوسهم وفقدهم القابل عن الله تعالى **"وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ"** أي لخلطنا عليهم الأمر فهم فى ريب لبسهم الدال على سوء نواياهم . قال الله تعالى **"وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ"**.

وهذه الآية الشريفة تدل على أن الله يعلم عن القوم أنه سبحانه وتعالى كلما أظهر لهم آية من الآيات القوية الدالة على توحيد وصدق رسوله محمدε أنكروا وطلبوا آية أخرى عنادا بالله تعالى وبرسله صلوات الله وسلامه علهم جميعا.

قوله تعالى : **"وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ"**(10).

تقدم فى الآيات السابقة أن قريشا كانوا يقولون مستهزئين "لولا أنزل عله ملك" فكان ذلك يحزن رسول اللهε ، ولرحمته ورأفته كان يرى أنه لم يحسن دعوتهم فطمأن الله تعالى قلبهε بقوله : **"وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ"** والمعنى أن الله تعالى يبين ما جعل عليه أهل الجحود من الاستهزاء بالرسل من قبلهε وأن النفوس الخبيثة والطباع النجسة مجبولة على إنكار الحق . فإذا وقع منهم الاستهزاء لآيات الله فلا تجعل فى نفسك غضاضة من سوء صنيعهم فإن أرسلناك لتقيم الحجة عليهم بتبليغك إياهم ما أرسلت به إليهم.

قوله تعالى : **"فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ"** أي فنزل بهم أو أحاط بهم ، وذلك من وعيد الله لهم لانتقامه منهم فى الدنيا والآخرة ، فإن الله تعالى عجل لهم النقمة فأذلهم وأعز نبيهε وأصحابه ، فكانت تلك النقمة بقتلهم واسترقاقهم وأسر من بقي منهم حيا ن وضرب الجزية عليهم وإجلاء أهل الكتاب منهم عن جزيرة العرب ، والانتقام منهم يوم القيامة بالخلود فى نار جهنم.

ومعني هذه الآية الشريفة أن الله تعالى أنزل بالذين سخروا من الأنبياء السابقين الانتقام الذى توعدهم به ، وهذا ثابت بالتفصيل فى الكتب السماوية ومنشور بالتواتر بين الأمم فصدق الله العظيم فى قوله تعالى **"وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ"**[3] ولا تزال تلك النقم تنزل بكل منكر مستهزئ

([1]) سورة الإسراء : 90 – 91 – 92 – 93.

(2) سورة السجدة : 12.

([3]) سورة النور : 40.

بما جاءت به الرسل وبينه العلماء من بعدهم ، وقد ظهرت جرثومة الفساد فى هذا العصر بسبب ما نشره دعاة النصرانية فى مدارسهم التى جعلوها لإفساد العقائد والأخلاق الإسلامية.

وأني أري سبب النقم التى تنزل بالمجتمعات الإسلامية من فساد ذات بينهم ، ومن التفرقة بين قلوبهم ومن تسليط غير المسلمين عليهم ، ومن مسارعة أهل النفاق فى الظلمة منهم ، ومن مغالاة الكافرين المتسلطين ، كل ذلك من ترك المسلمين التراحم بينهم وترك القيام بالفرائض والآداب والمعاملات الإسلامية حتى صارت البدع سننا محبوبة والسنن بدعا بمغوضة، وأصبحت الأمم الإسلامية بين مستعبد ذليل قد أتبع من كانوا أرقاء بين أيديهم ، وآخر مستضعف ضال عن حقيقة دينه قال الله تعالى : **"إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"**[1] أسأل الله أن يوفقنا لتغيير ما بأنفسنا حتى يجدد لنا ما كان لسلفنا الصالح أنه مجيب الدعاء.

قوله تعالى : **"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"**(11).

يقول الله تعالى لحبيبه محمدε قل للذين عبدوا الأوثان وكذبوا رسلي وكذبوا برسالتك بعد قيام الحجة بالمعجزة ووضوح المحجة ببيانك وعملك **"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ"** حال قيامكم بقضاء مصالحكم من التجارة **"ثُمَّ انْظُرُوا"** وثم هنا دلت على أن السير لم يكن للنظر بل لغيره من التجارات والمبادلات وجلب ما لابد لهم منه ، فلفت أنظارهم إلى التأمل والبحث أثناء هذا السير حتى تنكشف لهم حقيقة المصائب التى أعتورت من استهزئوا برسل الله وكذبوهم ، لأن السير لو كان للنظر لقال سبحانه فانظروا بدلا من "ثم انتظروا".

وفى هذه الآية الشريفة تهديد ووعيد لمن استهزئوا برسول اللهε فإنها حجة قصمت ظهورهم ، هذا لأن بلدان الذين كذبوا الرسل عليهم السلام لا تزل آثار ظاهرة فيها مثل قوم عاد وثمود وقوم لوط وقوم نوح وقوم موسى ، فإن قريشا كانوا تجارا يسافرون إلي الشام وإلى بلاد العجم ، وبلاد اليمن فيمرون على آثار تلك المدن وهم كالأنعام من غفلتهم . وفى هذه الآية تنبيه لهم إلى النظر فى سبب خراب تلك المدن ودمار أهلها بعد ما كانوا فيه من النعيم والأموال والزينة.

قوله تعالى : **"كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"** أي ما آل إليه أمر المكذبين من إهلاكهم بالانتقام منهم ، وكذلك فى هذه الآية الشريفة تخويف لمن ادعوا الإسلام وخالفوا أحكامه ، وصدق قول الله تعالى **"إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ"**[2].

قوله تعالى : **"قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ"**(12).

هذا أمر من الله تعالى لرسوله محمدε يأمره بأن يقول لمن عبدوا الأوثان وكذبوهε فيما جاءهم به من عند الله تعالى يسألهم بقوله **"لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"** ملكا وإيجادا وإمدادا ثم أمره سبحانه وتعالى أن يجيبهم بما هو معلوم بالضرورة بقوله سبحانه **"قُلْ لِلَّهِ"** أي هى لله ، وهذا الجواب لا ينكره أحد من الخلق من بني آدم ولا عباد الأوثان ، لأن الإنسان ديني بالطبع وكل من عبد غير الله فإنما يعبده ليقربه إلى الله تعالى ، فالذي خلق السموات والأرض وما فيهن بل وما يعبدونه من دونه مخلوق لله مملوك له سبحانه ، وإنما هى الآراء المضلة والمذاهب المفسدة للقوى الإنسانية جعلت الإنسان الجاهل يتخذ أولياء من دون الله وأندادا له ، فإذا سئل أهل الكفر من خلق السموات والأرض ،

---

(1) سورة الرعد : 11.

(2) سورة الرعد : 19.

قالوا خلقهن الله ، وهي لله ، لأن ذلك بديهي ، ولكنها الأهواء والحظوظ حجبت عيون البصائر عن النظر بعين اليقين **"كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ"** الكتابة من شأننا لا من شأنه جل جلاله ، لأنه الملك المطلق المتصرف فى ملكه كما يشاء ، ولكنه سبحانه يبين لنا بهذه الآية كمال إحسانه وعميم فضله وجميل عطفه على خلقه لتقوم الحجة له جل جلاله ، فهو جل جلاله يعطف على من عدل به الأنداد والأوثان وكذب رسله عليهم السلام عطفا يجعلهم يسارعون إلى التوبة والإنابة ليفوزوا بقسط من رحمة أرحم الراحمين ، لأن هذه الآية الشريفة دليل على أنه قدر فى سابق أزله أن رحمته وسعت كل شئ كما ورد فى الحديث الصحيح بسند الإمام بن جرير ، قال عن أبى هريرة عن النبيε ، قال "لما فرغ الله من الخلق كتب كتابا أن رحمتي سبقت غضبي" ، وقال عن عكرمة "إذا فرغ الله عز وجل من القضاء بين خلقه أخرج كتابا من تحت العرش فيه "أن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين".

قوله تعالى : **"لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ"** اللام هنا للقسم والكلام تم عند قوله "كتب على نفسه الرحمة" والجملة مستأنفة وهى تهديد شديد لأهل الكفر بالله الذين أنكروا يوم القيامة ، أي والله ليجمعنكم سبحانه وتعالى يوم القيامة للحساب على ما فرطتم فى جنب الله تعالى.

وقوله تعالى : **"إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"** أي في يوم القيامة ، ولنه قال إلى ليدل على أن الجمع إليها محتم عليهم لأن الله تعالى قدره فى أزله ليحسن إلى من سمع وأطاع وينتقم ممن خالف وأبي ، لأنها دار الجزاء بالفضل أو العدل ثوابا وعقابا ، ومن نسى يوم القيامة أو أنكره هلك مع الهالكين ، أعاذنا الله تعالى من نسيان الغافلين وإنكار الهالكين ، قال تعالى : **" الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا"**[1] وقال تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ"**[2] "لا ريب فيه" أي لا شك فى جمعهم يوم القيامة لأن يوم القيامة حق ، وجمعهم فيه حق ليثيب المحسن بإحسانه سبحانه ويعاقب المسئ بما يستحقه ، قوله تعالى **"الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ"** بدل من الكاف ولميم فى قوله ليجمعنكم أو عطف بيان.

"خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ" أي أهلكوها بمخالفتهم الرسل عليهم الصلاة والسلام واتخاذهم الأنداد والأوثان من دون الله تعالى ، والخسران هو الغبن وهو إهلاك ما خسره من مال أو عافية أو نفس ويخبرنا الله تعالى عن هؤلاء الكفار بقوله سبحانه **"فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ"** ، والمعنى فهم بما جبلت عليه نفوسهم من العناد والإنكار والتكذيب لا يصدقون الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما جاءوا به من عند الله تعالى.

قوله تعالى : **"وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"**(13).

بعد أن بين سبحانه وتعالى أن له ملك السموات والأرض ، وله ما فى السموات والأرض ، أخبرنا جل جلاله بأن له الزمان كما أن له المكان ، وقى قوله : **"مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ"** ـ "اكتفاء" أي ـ وما تحرك ـ كما قال تعالى: "سرابيل تقيكم الحر" أي "والبرد" لأن الحركة ناشئة عن السكون ولا تعرف إلا به ، ولا يعرف السكون إلا بالحركة ، ولا يوصف بالسكون والحركة إلا ما كان قابلا لهما من الأجسام الحية ، ولما كان الساكن أكثر من المتحرك أتى بالساكن اكتفاء عن المتحرك لأنه معلوم ملحوظ فى السكون ، وتلك الآيات حجج دامغة قاصمة لظهور أهل العناد لأنها خبر الصادق سبحانه ، وهى حقائق محسوسة ملموسة تسلم بها العقول ، فإن وجود الأكوان حادث وكل حادث لابد له

([1]) سورة الجاثية : 34.

(2) سورة ص : 26.

من محدث ، ومستحيل أن تقوم الحجة على شئ يتحرك ويسكن ويحدث بعد العدم ويعدم بعد الوجود موجودا بنفسه بل لابد له من موجد أوجده وصانع صنعه ، والله تعالى هو الخلاق العظيم.

"وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" الذي يسمع استغاثة عباده فيغيثهم ، ورفع حوائجهم إليه فيجيبهم سبحانه وتعالى بما شاء ، ويسمع جل جلاله كلام النفوس ، فهو العليم بالجزئيات والكليات قبل أن توجد الكائنات ، بعلم قديم أزلي أحاط بكل شئ من الواجب والجائز والمستحيل.

قوله تعالى : **"قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"**(14).

هذه الآية الشريفة أمر من الله تعالى لنبيه محمدε أن يقول للعادلين بربهم الأوثان وغيرها ، والمنكرين نبوته وما جاء به من خالص التوحيد ومن مراضي الله ومحابه فى أمره ونهيه وغيرهما ، **"قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا"** ، وكل الأغيار خلق مقهورون بقهره جل جلاله ، لا يجلبون لأنفسهم خيرا ولا يدفعون عنها شرا ، وهم أذل وأقل من أن ينفعوا أنفسهم فكيف اتخذهم أولياء من دون الله **"فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"** أي خالقهما وخالق كل ما فيهما وما بينهما والولي هو الذى ينفع بخيره وبره ويدفع بقدرته عمن تولاه.

قوله تعالى : **"وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ"** أي وهو يرزق كل ما هو غيره ومن هو غيره "ولا يطعم" أي ولا يحتاج إلى الطعام لأنه على عظيم عن النقائص غني بذاته عمن سواه وما سواه ، ومعنى "يطعم ولا يطعم" أي يرزق الخلق ولا يرزق ، ويرزق خلقه بكل أنواع الرزق وهو غني عن كل ذلك.

قوله تعالى : **"قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ"** أي قل أني قيل لي أسلم فأسلمت لله رب العالمين قبل أن يلم أحد من أمتي ، فكنت أول المسلمين إسلاما **"وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"** نهاه الله تعالى نهيا مؤكدا أن لا يكون من القوم المشركين بعد أن أكرمه الله بالرسالة وعلمه ما لم يكن يعلم ، وهذا بيان لما يجب أن يكون عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ومعنى "أمرت" أي قيل لي.

قوله تعالى : **"قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ"**(15).

هذه الآية قصمت ظهور أهل التمني الذين يزعمون أن الله تعالى لا يؤاخذهم بذنوبهم بسبب أنسابهم ، أو بسبب ما حصلوه من العلوم ، أو بسبب ما قاموا به من نفع عام من الوقوع فى معصية الله تعالى ، لأن سيد المحبوبين الذى أقامه الله مقاما لم يقم فيه أحد من رسله الكرام أخبرنا أن محبة الله تعالى يتفضل بها على من أتبعه صلوات الله وسلامه عليه ، **"قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ"** هذا خبر عن الصادق عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوى ، وهو أمر من الله تعالى له أن يخبر به أهل الجحود والإنكار ، وخصوص السبب لا يقتضي خصوص الحكم فسبب هذا الخبر من الله هو الرد على أهل الكفر بالله بأن أخوف الناس من الله هم الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وإذا كان الرسل صلوات الله عليهم يخافون عذاب الله يوم القيامة مع ما تفضل الله به عليهم ومع ما بشرهم به ، فكيف يكون حال أهل التمني ممن جهلوا أنفسهم وغرروا بالخلق حتى بلغ بهم التمني إلى أن وقعوا فى معاصي الله غير هيابين ولا وجلين زعما منهم أنهم بلغوا مقاما لا يؤاخذون فيه على أعمالهم المخالفة ، وأمن هذا الجانب مروق من الدين ، لأن من أمن جانب الله كمن يئس من رحمته سبحانه أعاذنا الله تعالى من الفتن العمياء الصماء وتفضل علينا سبحانه بحسن الاتباع لحبيبه محمدε .

قوله تعالى : **"عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ"** وصف اليوم بأنه عظيم لما ينال أهل الكفر وأهل النفاق فيه من الأهوال والشدائد والآلام الفادحة.

قوله تعالى : **"مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ"**(16).

أي يصرفه الله عنه بتوفيقه له فى الدنيا لاتباع رسوله محمدε أو بالتفضيل عليه بالعفو والمغفرة وقبول التوبة ، أو بالإحسان إليه بتبديل سيئاته بحسنات ، كما قال تعالى : **"فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ"**[1] ، والأمر يوم القيامة موكول إلى الله تعالى ، والفوز هو النجاة من الأهوال والظفر بالمقاصد ونيل الطلبة هو الفوز العظيم.

ومعني قوله : **"فَقَدْ رَحِمَهُ"** أي حفظه من العقوبة وتفضل عليه بخير يوم القيامة **"وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ"** الإشارة عائدة إلى الرحمة بأنواعها ومن يرحمه الله تعالى فقد فاز فوزا عظيما ، والمعني وذلك الفضل يعطيه الله العبد من الرحمة هو الفوز المبين الذى يفوز به من رحمه الله تعالى.

قوله تعالى : **"وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"**(17).

لما كان أعداء الله من المشركين العادلين بالله المستهزئين برسله ، ومن أهل الكتاب المكذبين لرسول اللهε المنكرين رسالته بعد أن بين الله في التوراة والإنجيل رسالته وأنه خاتم الرسل ،ε وأمرهم سبحانه وتعالى أن يقول لهم **"أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا"** أقام الله تعالى الحجة بهذه الآية أنه لا ولي إلا الله ، ومعنى الآية الشريفة أن الله تعالى هو الملك المطلق المقدر لكل شئ وأنه هو الضار النافع.

قوله تعالى : **"وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ"** أي وأن يصيبك بنوع من أنواع الضر كالفقر والسقم والبلايا المؤلمة **"فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ"** جل جلاله **"وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"** أي وأن يمنحك نوعا من أنواع الخير فى الدنيا ، كالعافية والغني عن شرار الخلق ، والأمن ونفوذ الكلمة والنصرة على الأعداء ، فهو سبحانه وتعالى على كل شئ قدير ، أي يتفضل بنعمه على من يشاء من عباده ، وكونه قدير أي قوي ينفذ ما يشاء من غير مانع يمنعه.

وفى هذه الآية بيان لانفراده جل جلاله بالضر والنفع ، وفيها طمأنينة لقلب رسول الله بعصمة الله تعالى ، ولكل من وفقهم الله لحسن اتباعهε.

قوله تعالى : **"وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ"** (18).

معلوم أن كل صفة تكون مذمومة من الخلق تكون مدحا لله تعالى ، فالعبد يذم عنه أن يكون قاهرا لأن القاهر من العبيد يظلم غيره بقهره إياه لمساواة الخلق فى الحقيقة ونفس الأمر ، والقهر من الله جل جلاله مدح وثناء لأنه سبحانه وتعالى يتصرف فى ملكه وفى خلقه الذين ابتدعهم وأوجدهم من العدم ، وهو جل جلاله أعلم بما يصلحهم فقهره جل جلاله عليهم لكمال عزته وعظمته وقداسته ونزاهته وعلوه جل جلاله ولكماله الذاتي فله سبحانه القوة المطلقة ، فهو فوق الفوق وفوق التحت وفوق كل شئ عظمة وكبرياء سبحانه ليس كمثله شئ فى كل شئ ، ومعنى **"الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ"** أنه جل جلاله ينفذ ما قدره وشاءه أزلا بقدرة وقوة وحكمة ، وقد عجزت العقول والنفوس الكاملة عن أن تحوم حول حقيقة سر قدره جل جلاله ، فهو جل جلاله يحمد ويمدح ويشكر على انتقامه وقهره وجبروته وبطشه ، ولا يحمد على السراء والضراء إلا هو سبحانه لعظمته وعلوه ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ن بل ولا تدرك العقول سر قدره ، فكيف تدرك ذاته وأسماءه وصفاته ، فالرب رب ولو تنزل ، والعبد عبد ولو رفع إلى قاب قوسين أو أدني ، وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه بنفسه هو القاهر فوق عباده ، وأن كل من فى السموات والأرض بل وما فوق ذلك من حملة

([1]) سورة الفرقان : 70.

العرش وما فوق ذلك عبيد مقهورون وعباد مربوبون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون تنزه وتعالى عن الظلم والتظالم.

قوله تعالى : **"وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ"** أي وهو الحكيم الذى قدر الأقدار بحكمته ، وأوجد الخلق بحكمته وأمد من شاء بما شاء بحكمته "والحكمة" هي وضع الشئ فى موضعه و "الخبير" هو المحيط خبرا بما أبرزته قدرته بد أن خصصته إرادته من حضرة علمه ما شاء إيجاده ، فهو سبحانه خبير بكل شئ من جزئي وكلي . قال تعالى : **"وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ"**[1].

قوله تعالى : **"قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ"**(19).

سبب نزول هذه الآية الشريفة ، أن قريشا كانوا يظنون أن الله تعالى لا يبعث رسولا إلا إذا كان غنيا ذا عصبة وقوة جهلا منهم بأن الله سبحانه وتعالى هو أعلم حيث يجعل رسالته ، ولما كان رسول اللهε من أشرف بيوت العرب لأنه من خيرة بني هاشم ن ولكن قدر الله تعالى أن يكون حبيبه ومصطفاه يتيما بين قومه ليس له ناصر منهم ، ليرفع به العالم لتقوم الحجة أنه سبحانه الفاعل المختار ، وأنه يعز من يشاء بعنايته وقدرته ، وقالت قريش لرسول اللهε أما وجد ربك من يرسله غيرك ، وأنا سألنا اليهود والنصارى فأخبروا أنه ليس لك ذكر فى النبوة وليس لك شاهد على أنك نبي ، فقصم الله ظهورهم بإنزال هذه الآية.

قوله تعالى : **"قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ"** ومعني هذه الآية الشريفة قل يا محمد لهؤلاء الكفار بالله تعالى "أي شئ أكبر شهادة" والجواب محذوف للعلم به ـ وذلك المعلوم هو الله ـ تعالى ـ أي أن شهادة الله تعالى هى الشهادة التي تقيم الحجة على صدق نبوته ، وفى قوله تعالى **"قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ"** يعنى أن الله الذى شهادته فوق كل شهادة هو الذى يشهد لي بصدق نبوتي.

قوله تعالى : **"وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ"** والمعني أن هذا القرآن المعجز الذى عجزتم عن الآتيان بأقصر سورة منه وأنتم فحول البيان وأبطال البلاغة وهو منزل من عند الله ، فوحيه إلى هذا القرآن حجة على أنه شهد لي بصدق نبوتي ، وفى قوله : **"لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ"** أي لأخوفكم به عاقبة إنكاركم وتكذيبكم ، وقوله تعالى : **"وَمَنْ بَلَغَ"** أي وأنذر من بلغه هذا القرآن ممن يأتوا بعد ، فإن معه من بلغة القرآن وسمعه كأنه رأي رسول اللهε وتقوم الحجة عليه كما تقوم على من سمع القرآن منهε.

وجائز أن يكون قوله تعالى : "قل أي شئ أكبر شهادة" على توحيده جل جلاله وتفريده بالإيجاد والإمداد ، والآية وأن كان سببها خاصا فهي حجة وبيان لحقائق كثيرة من السمعيات وغيرها.

قوله تعالى : **"أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ"** معني هذه الآية أن الله يأمر رسولهε أن يقول للمشركين **"أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى"** ، والاستفهام هنا للاستنكار ينكر على أهل الكفر اتخاذهم آلهة من دون الله تعالى ، وأتي بصفة الآلهة مؤنثة لأنها جمع تكسير وجموع الكسرة توصف بالمؤنث كقوله تعالى : "ولله الأسماء الحسنى" وفي الآية تشنيع على أهل الجاهلية الأولي الذين عميت أبصارهم عن النظر إلى دلائل التوحيد وحججه ، وسلموا لأهل المذاهب المضلة

([1]) سورة البروج : 20.

والآراء المفسدة فاتخذوا من دون الله آلهة ، وبعد أن ينكر عليهم كل ذلك أردف هذا الإنكار بالتبرئة مما هم عليه من الشرك بالله ، بقوله تعالى : قال يا محمد لهؤلاء الذين يشهدون أن مع الله آلهة أخري لا أشهد بشهادتكم لبطلانها.

قوله تعالى : **"قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ"** أي قل لهم إنما هو إله واحد "وإنما" هنا للقصر أي إنما الله إله واحد لا شريك له ،وقد قامت الحجة العقلية والنقلية عن الصادق سبحانه وتعالى الذى بلغ عباده على السنة رسله المؤيدين بالمعجزة ، ومن أظهر تلك الحجج وأدلها على الحقيقة هذه الآية وهى قوله **"قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ"** أي وقل لهم إنني أيضا برئ مما تشركون ، لأن هذا الشرك مستحيل ولأنه ضلال وباطل ، وهذه الآية يتبين منها على أن من هداه الله للإسلام عليه أن ينطق بالشهادتين ويبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام عليه أن ينطق بالشهادتين ويبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام بدليل قوله تعالى خبرا عن حبيبه محمدε : "وإنني برئ مما تشركون" وقد أكد التوحيد بأسمية الجملة وبكونها أفادت القصر ، وأكد براءتهε بأن التوكيدية وباسمية الجملة.

قوله تعالى : **"الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ"**(20).

يعنى سبحانه وتعالى أن الذين أتاهم التوراة والذين أتاهم الإنجيل ووفقهم للسمع والطاعة له سبحانه وتعالى يعرفونهε بما بينه الله عنه فى التوراة والإنجيل كما يعرف الوالد الرحيم العطوف ولده الوحيد من حيث المسارعة إلى السمع منه والطاعة له والحرص علي المسارعة إلى تنفيذ أوامره والعناية بنيل رضاه ، فأن محبة الآباء للأبناء فوق محبة الأبناء للآباء ن حيث الحرص على دوام العناية به وجلب الخير له ودفع الضر عنه.

وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عبد الله بن سلامة عن هذه الآية فقال أني أعرف رسول اللهε أكثر من معرفتي لابني ، لأني أعتقد أنه على الحق ولا أعلم ما يفعل النساء ، وهذه الآية الشريفة تدل على أن من أتي من اليهود والنصارى لرسول الله محمدε ودعاه إلى اعتناق الإسلام مما علمه فى التوراة والإنجيل من الآيات التي أنبأ الله بها رسله ببعثة محمدε الي الناس كافة بشيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وأن الذين كذبوهε وأنكروا عليه من أهل الكتاب دعاهم إلى ذلك الحسد والعناد وما سجله الله تعالى عليهم من الكفر به سبحانه.

قوله تعالى **"الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ"** معنى هذه الآية أن الذين أهلكوا أنفسهم بتكذيب رسول الله "محمد بن عبد الله" من أهل الكتاب ، الذين يعلمون حق العلم صدقهε وأنه رسول الله وخاتم النبيين ، وهو الرسول الأمي الذى يجدونه عندهم مكتوبا فى التوراة والإنجيل وكانت معرفتهم بهε كمعرفة الواحد منهم لأبنائه ، ولكن قاتل الله الحسد والعناد الذى أوقعهم فى الكفر برسول الله ، وبموسى عليه السلام ، لأنهم بتكذيب رسول الله "محمدε" كذبوا التوراة والإنجيل وموسى وعيسى عليهما السلام.

ومعنى قوله تعالى "فهم لا يؤمنون" أن الله تعالى أحبط إيمانهم بموسى وعيسى ولعنهم لعنة جعلتهم أعداء للإيمان يحاربون الله تعالى ورسوله فلا يؤمنون أبدا ، وبعد خبر الله تعالى عنهم بهذه الآية لا يقبل الله منهم إيمانا لو فرضنا وقوع الإيمان منهم ، لأن نفي الإيمان عنهم جائز أن يكون نفيا

للقبول أو نفيا للوقوع أو نفيا لهما ، وقد ورد أن كل إنسان له موضوع فى الجنة وموضع فى النار ، فإذا كفر أهل الكتاب بخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام وآمن بعضهم يخسر الكافر منهم موضعه فى الجنة ويضاعف عليه العذاب بأن يضاف له الموضع الذى كان فى جهنم لمن آمن فحوله الله إلى الجنة وزاده فضلا بأن أعطاه موضع من كفر برسول اللهε فحرم منه ، فالمؤمن يزداد نعيما وفضلا والكافر يزداد عذابا وحزنا على ما خسره مما كان له فى الجنة ، وخسارتهم أنفسهم إهلاكها وحرمانها ما كان لها فى الجنة بسبب كفرهم.

قوله تعالى : **"وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ"**(21).

معنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يخبرنا أنه لا أحد أشد طغيانا وأكبر عنادا وأقبح جرأة من الذين خسروا أنفسهم من أهل الكتاب الذين عرفوهε بما ورد عنه فى التوراة والإنجيل ، والذين افتروا على الله كذبا فاختلقوا عليه سبحانه أن له شريكا وندا وضدا من الأصنام بعد أن قامت الحجج الفعلية والبراهين العملية على بطلان ما اختلقوه على الله كذبا.

قوله تعالى **"أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ"** هذه الآية ردا على الذين أوتوا الكتاب من اليهود والذين كفروا كالنصارى الذين ادعوا أن له ولدا ، بعد أن قامت الحجج المعجزة وقام الدليل بما ورد فى التوراة بصدق رسول اللهε كذبوا بدلائل الله تعالى ما أقامه من البراهين الساطعة التى لا ينكرها عاقل ، وكان عملهم هذا حجة على كمال ظلمهم وعنادهم وحسدهم.

"إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ" نفي الله عنهم الافلاح وهو فى اللغة الفوز بكل المقاصد ، وبنفيه عنهم ثبت حرمانهم من الخير فى الدنيا والآخرة ، والظالمون هم الذين ظلموا أنفسهم بجحدهم آيات الله التى ثبتت لهم وكانوا مؤمنين بها من قبل بعثتهε ، وهذا الظلم واقع منهم على أنفسهم لأن الله سبحانه لم يظلمهم ، وكيف ينسب الظلم إلى الله سبحانه بعد أن بين لهم الحقائق جلية ، ولا يقع الظلم منهم على الله لنه تنزه وتعالى عن أن يظلمه عبد مقهور بقهره سبحانه أحدثه بقدرته ،وشر الخلق على الإطلاق من أنكر الحق بعد ثبوته لديه وبعد تصديقه به ، وقبح الله النفوس العنادية لأنها تقع فى هاوية العذاب الأليم وهى عليمة به ، وهنا كلام محذوف معلوم من سياق الآية وهو أنه لا يفلح الظالمون فى هذه الدار الدنيا لأن الله تعالى أذلهم وأخزاهم وشتتهم فى البلدان.

قوله تعالى : **"وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ"**(22).

هذه الآية الشريفة مرتبطة بالتي قبلها ومعناها أنه لا يفلح الظالمون فى الدنيا ولا يفلحون يوم نحشرهم جميعا ، فأنهم عند حشرهم يسألهم الله تعالى فيقول جلت ذاته أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، فيحصل لهم من الذعر والحزن على ما فرطوا فى هذا الجانب وعلى نسيانهم هذا اليوم وعلى كفرهم بمن عرفوه كما يعرفون أبناءهم ، حتى يتمنوا أن يكونوا ترابا أو يذهب بهم إلى النار مما ألم بهم من الحسرة والندامة ، حتى ينسيهم هذا الموقف مع اليقين الذى حصل لهم بإنكشاف الحقائق ما كانوا عليه من الشرك ، أو يدعوهم الفزع الأكبر إلى ارتكاب جريمة الكذب فيقولون ما أخبرنا الله به عنهم بقوله تعالى "والله ربنا ما كنا مشركين" فيقسمون بالله أنهم لم يكونوا مشركين ما تخلصا من هول الموقف وأما على ظنهم أنهم كانوا مؤمنين ، لنهم اعتادوا أن يقسموا لرسول اللهε ولأصحابه بالكذب أنهم معهم تخلصا من خشية العقوبة العاجلة أو مكرا أو خديعة لرسول اللهε .

وما تأوله بعض العلماء فى هذه الآية الشريفة فتأويل بعيد ، لأن الإنسان الذي كان يعرف الحق وينكره فى الدنيا لهوى وحظ وبئ ، وهو الإنسان الذي يبعثة الله يوم القيامة بحقيقته ومبناه ، لم يزد عليه شئ إلا كمال اليقين بتصديق الرسل عليهم الصلاة والسلام فيما جاءوا به مما كان ينكره فى الدنيا لخبث طبعه وعناد نفسه ، حيث كان الغيب الذي يخبر عنه الرسل لا تشهده النفوس اللقسة ، ولكنه يوم القيامة انكشف عيانا ، وكانوا فى الدنيا يسمعونه بيانا ، فمن سبقت له الحسنى من الله آمن مصدقا بالحقائق التي بلغته من غير أن تنكشف له وهم الذين آمنوا بالغيب.

قوله تعالى : **"ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ"**(23).

وأما أهل الكفر والنفاق وهم الذين أنكروا وجحدوا وهم بأعيانهم الذين قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ، ورويت الآية "والله ربنا" بفتح الباء ، وتأويلها والله يا ربنا ، وتأويل قوله تعالى **"ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا"** أي وبعد أن فعلوا ما بينه الله لنا فى الآيات السابقة من الإنكار والجحود ومحاربة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، وجحدهم ما بينه الله فى التوراة والإنجيل عن حبيبه محمد صلوات الله عليه عنادا وطغيانا وبعد اختبارهم وامتحانهم لم تكن فتنتهم إلا قولهم بعد ذلك والله ربنا ن على أن ـ فتنة ـ اسم تكن ، وأن وما دخلت عليه خبرها ، وعلى رواية "ولم تكن فتنتهم" بجعل فتنة خبر تكون أن وما دخلت عليه فى تأويل مصدر اسم تكن ، وقد وردت بالياء التحتية.

قوله تعالى : **"انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ"**(24).

النظر قد يكون بعيون الرءوس ، وقد يكون بعيون الإيمان ، أو بعيون الإحسان ، أو بعيون الإيقان ، والأمر هنا لرسول اللهε أن ينظر بعين اليقين الحق التى ترى غيب الأقدار عيانا بخبر الله تعالى ، فما تراه عيون الإيمان بيانا وتصديقا بمجرد الإيمان بالغيب ، ومعنى الآية أنظر يا خاتم الرسل تعلم أنهم كذبوا على أنفسهم لأن نفوسهم عناية وطباعهم خبيثة لا تقبل عن الله تعالى صرفا ولا عدلا ، ولما انكشفت لهم الحقائق أخذت منهم الحيرة كل مأخذ فرجعوا إلى ما جبلوا عليه من الكذب الذى كانوا يرتكبونه لنجاة أنفسهم من المصائب فى الدنيا ،ولكنهم جهلوا أن كذبهم هذا كذب على أنفسهم لأن الله تعالى على عظيم يعلم السر وأخفى ، فكان كذبهم هذا بلاء عليهم وخسرانا عظيما لأنه أكبر من كفرهم بالله وبرسله فى الدنيا.

وفى قوله تعالى **"كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ"** أي يكذبون ، فإنه جاء بصيغة الماضي لتحقق وقوعه يوم القيامة ، والأمر المتحقق الوقوع يأتي بصيغة الماضى وأن كان مستقبلا مثل قول الله تعالى "أتي أمر الله فلا تستعجلوه".

قوله تعالى **"وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ"** أي أن هؤلاء القوم يفترون على الله أن له ولدا وأن له شريكا وأندادا يشفعون لهم يوم القيامة وينفعونهم ، فلما انكشفت الحقائق ضل عنهم ما كانوا يفترون ـ أي فارقهم وهلك فى الحقيقة ـ وبقي عليهم العذاب الأليم بكفرهم بالله وبتكذيبهم رسوله محمداε.

قوله تعالى : **"وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"** (25).

تأويل هذه الآية الشريفة أن الله يثبت نبيه محمداε ويبين له سبحانه أن إنكار قومه عليه لحكمة اقتضاها مزيد إكرامهε ورفعة شأنه حتى يظهر للعالم أجمع أنه عبد الله المؤيد من الله ورسول الله الذى

ليس لـه ناصـرا إلا الله ، ولـو قدر الله تعـالى إجمـاع قومـه عليـه لظـن أهل العنـاد أنهم قوم يطلبـون ملكـا وجعلوا دعوى الدين سبيلا إلى الظفر بالملك.

فقوله تعالى : "ومنهم" أي من قومك العادلين بعبادة الله عبادة الأوثان **"مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ"** قراءة القرآن ودعوتك إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة فتسمع آذانهم وتفهم قلوبهم الألفاظ والآيات ولكن القضاء سجل عليهم – لحكمة آلهية – أن يكون فى آذانهم وقرا لا من حيث التمكين من السماع ولكن من حيث الفقه والفهم "والوقر" هو الثقل فى السمع أي في القوة المعني فتوصله إلى النفس ن كما يفقد اللسان الحكم على الطعوم فى مرضه فيكون الحلو عليه مرا ، فكذلك آذانهم ، وحكمة أن الله سبحانه وتعالى جعل من كفار قريش من يستمعون إلى رسول اللهε وهو يقرأ القرآن ويبين قواعد الإسلام وجعل فى آذانهم وقرأ مع سماعهم العبارة ليمنعهم عن قبول ما يدعوهم إليهε ، لتظهر مكانة رسول اللهε عند الله تعالى أن الله هو الذى أيده ونصره بقدرته وقوته ، حيث لم يكن لـه ناصر من قومه بل كانوا أعداء لـه وحربا عليه صلوات الله وسلامه عليه ، وهذه الآية تثبيت لفؤادهε ، وفيها الحجة القاصمة لظهور من يدعي أنه قام بين قومه ليؤسس لهم ملكا ، فانتفت تلك الدعوة بمحاربتهم لـه وظهر الحق مؤيدا بالله تعالى:

وقوله تعالى : **"وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا"** الجعل كالخلق إلا أن الجعل يكون لموجود من قبل والخلق قد يكون من العدم ، وتأويل هذه الآية "وجعلنا على قلوبهم أكنة" والأكنة جمع لكنان على وزن "سناق وعناق" وهو الغطاء الذى يمنع وصول ما هو خارج إلى الداخل ، وتأويل هذه الآية أن الله سبحانه كن قلوبهم فى غطاء سميك يحجب القلوب عن أن تقبل عن الله شيئا تأتي به رسله صلوات الله وسلامه عليهم لرداءة جوهر نفوسهم ، وما تقول فى جوهر نفس خلق من طينة الخبال "أن يفقهوه" أي أن تلك الآكنة لا تمنع القلب عن قبول السماع ولكنها تمنعه عن التلقي عن الله تعالي والتدبر فى آياته ، والفقه بالنسبة لما هو محدود محدث هو الإدراك ، وبالنسبة لما هو أزلي قديم هو العلم الذى هو تصور رسوم المعلوم ، وقلب لا يفقه عن الله شيئا خبث كله **"وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا"**

وقد شرح الله صدر رسولهε بهذه الآية لأنه كان يحزنهε الذى يقوله كفار قريش وكانت نفسه تكاد تزهق عليهم حسرات قال الله تعالى **"فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا"**[1] فثبتت تلك الآية فؤاد رسول اللهε.

وسبب نزول هذه الآية ابتداء من قوله **"وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ"** هو أنه حضر عند رسول اللهε أبناء ربيعة وأمية والوليد ابن المغيرة وغيرهم واستمعوا إلى حديث الرسولε فقالوا للنضر ما يقول محمد ، فقال لا أدرك ما يقول لكني أراه يحرك شفيته ويتكلم بأساطير الأولين كالذى كنت أحدثكم به عن أخبار القرون الأولي ، وقال أبو سفيان أني أري بعض ما يقول حقا ، فقال أبو جهل كلا لم أسمع شيئا ، فأنزل الله تعالى "ومنهم من يستمع إليك" الآية.

قوله تعالى **"وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"** تأويل هذه الآية الشريفة هو ان الله تعالى يخبرنا أن قريشا حرموا سماع القبول ورؤية التسليم ، وكانوا كلما قامت عليهم الحجة ورأو علامات ودلائل نبوة محمدε من كلام الله تعالى

([1]) سورة الكهف : 6.

المعجز للخلق أجمعين ومن المعجزات الباهرات بكل أنواعها لا يصدقون نبوتهε ، لأن التصديق محله القلب وقلوبهم فى أكنة ،وجمع الله تعالى عليهم بين عمي البصر عن شهود الآيات المنبئات بصدق رسالتهε وعمي البصيرة عن التدبر فيما بينه الله تعالى من الحجج والآيات والعلامات المنبئات المؤيدة لرسالتهε ، وكان تكذيبهم فى فاتحة الإسلام ، وإنكارهم عليهε حجة قائمة على أنه رسول الله حقا وأنهε المؤيد بروح الله تعالى الذى بعثه الله بالحق ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وأنهε رحمة للعالمين ن ولولا ذلك لأهلك الله قومه كما فعل بالرسل من قبلهε ، فإن الل أهلك قوم نوح لما حاربوه ، وأهلك قوم صالح وهود ولوط وأعداء الخليل والكليم وعيسى بن مريم عليهم الصلاة والسلام ، ورحم أمتهε مع شدة باسهم عليهε وأذيتهم لهε ومع ما قاموا به من البلاء كان يقول "اللهم أغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" فصلي اللهم عليه صلاة ننال بها الرضوان الأكبر والفضل العظيم فى الدنيا والآخرة.

وهذه الآيات من أولها تجعل المتدبر يعجب كل العجب من صنع قريش برسول اللهε ومن رحمته عليه الصلاة والسلام بهم وصدق الله العظيم إذ وصفه بقوله تعالى **"حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ"**[1] وقوله تعالى **"وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ"**[2] وقوله تعالى **"وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ"**[3].

قوله تعالى : **"وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ"**(26).

هذه الآية الشريفة أسجدت عقول فحول البلغاء لما تضمنته من امتزاج الحروف وتقاربها واتحاد المعاني وتشاكلها ، فانظر إلى كلمتي ينهون وينأون ، وإلى خفة حروفهما على اللسان في مخارجها ولطف نظمها وبديع تجانسها لتعلم أنه كلام الله القويم الذى قرب معانيها فى ينهون وينأون ، فجمع عليهم من أنواع الذم والتشنيع أنهم ينهون عن اتباعهε وعن قبول ما جاء به من عند الله لهم ، ومع هذا النهي يتباعدون عنه بأجسامهم وعقولهم ، ولم يكن النهي عن ذات رسول اللهε ، بل كان النهي عن قبول ما جاء به من عند الله تعالى ، "وينأون عنه" أي يتباعدون عنه ليحزنوه على ظنهم بسبب هجرهم له وبما يقولونه فيه ، وساء ظنهم فإن الله تعالى آنسه وسره بقوله تعالى **"يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ"**[4] وبقوله تعالى فى مقام "ينهون" **"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ"**[5].

ومعني الآية أن الله يخبرنا عن كفار قريش الذين عدلوا بالله الأنداد ، وعن اليهود والنصارى الذين حرفوا كلام الله واتخذوا لله ولدا أنهم ينهون عن اتباع رسول الله ويبعدون عنهε ""وأن يهلكون إلا أنفسهم" دلت هذه الآية الشريعة على أن نهيهم عن النبيε ، ونأيهم عنه على ما يظنون سببا فى إهلاكه وإهلاك دينه ، فرد الله تعالى عليهم بما أخزاهم وأذلهم وأهلكهم بقوله "وأن يهلكون" أي وما

([1]) سورة التوبة : 128.
(2) سورة القلم : 4.
(3) سورة الأنبياء : 107.
(4) سورة المائدة : 41.
(5) سورة الأنفال : 64.

يهلكون بقولهم وعمله هذا "إلا أنفسهم" لأنهم ينهيهم عنهε ونأيهم حرموا قبول محاب الله ومراضية سبحانه فباؤا بالخسران العظيم فى الدنيا بالآسر والرق وضرب الجزية عليهم والقتل ، وفى الآخرة بالخلود فى نار جهنم أعاذنا الله وإخواننا المؤمنين.

وقوله تعالى "**وَمَا يَشْعُرُونَ**" أي أن عنادهم ومسارعتهم إلى الحظ والهوى والطمع أوقهم فى حسد رسول اللهε فأعماهم عن التدبر فى كلام الله ، والنظر بعقول فى دلائل آياته سبحانه ، وصاروا لا يشعرون بما وقعوا فيه من الهلكة والضلال والقطيعة عن الله ولا ينفعهم ذلك ، يوم لا ينفع مال ولا بنون.

قوله تعالى : "**وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**"(27).

تأويل هذه الآية أن الله تعالى يخبر حبيبه محمداε بقوله "**وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ**" يعنى لو ترى يوم القيامة إذا حبسوا فى النار ، فإن معني وقف البيت والأرض أي حبسهما على كذا "فوقفوا" هنا أي حبسوا ، و "على النار" أي أنهم حبسوا عليها لا يتجاوزونها إلى غيرها ، وجائز أن تكون "على" بمعنى "في" وتكون "إذ" هنا بمعناها لتحقق الوقوع لأن الأمر المتحقق الوقع يعتبر واقعا لا مناص كما تقدم ، "فإذ" هنا هى التى تكون للماضي والموضع للمستقبل ، فحسن أن تحل "إذ" موضع "إذا" والعرب تضعها موضع إذا فى الأمر الذي يكون متحقق الوقوع حتى كأنه لتحقق وقوعه ووقع بالفعل ، وهؤلاء العادلون بربهم الأوثان والأنداد إذا حبسوا على النار طاشت أحلامهم وسقط فى أيديهم فتمنوا الأماني قال العربي "أن الأماني والأحلام تضليل" ، فقالوا عند حبسهم على النار كما أخبرنا الله عنهم "يا ليتنا نرد" أي تمنوا الرجعة إلى الدنيا ، فمعني نرد أي نرجع إلى الدنيا التى كفرنا فيها بالله، وحاربنا رسله وآل أمرنا إلى حبسنا فى النار بينما نحن نرى من آمنوا بمحمدε فى روضات الجنان يحبرون ، وشتان بين ما آل إليه أمرنا وما آل إليه أمر المؤمنين.

ومعلوم أن التمني ترويح البائس واليائس المتحقق عدم وقوع ما يتمناه لتعذره على نفسه "**وَلَا نُكَذِّبَ**" أي يا ليتنا نرد إلى الدنيا ونؤمن بما آمن به من فازوا ولا نكذب محمداε فيما جاءنا به من عند الله تعالى والمعني يا ليتنا نرد "ولا نكذب" أى تحصل لنا الردة ولا يحصل منا تكذيب ، ويكون يكذب مرفوعا لأنه معطوف على نرد ، وجائز أن يكون منصوبا فى جواب التمني ، والأفصح أن يكون مرفوعا "**بِآيَاتِ رَبِّنَا**" أي بدلائله وعلاماته وحججه "**وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**" أي من المصدقين الذين قبلوا من الرسل صلوات الله عليهم ما جاءوا به من عند الله تعالى.

وفى هذه الآية تهديد وتشنيع على أهل النفوس العنادية الذين أنكروا على رسول اللهε ، وكذبوه وجحدوا بآيات الله ، كما أن فيها يقظة لقلوب المترددين ، ويقين لأهل الإيمان من الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وحجة دامغة على أهل العناد والجدال العقيم.

قوله تعالى : "**بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**"(28).

معلوم أن الكفار بحسب أنواعهم لما وقفوا على النار تمنوا الرجعة إلى الدنيا ، وما تمنوها حبا فى الإيمان ورغبة فيه ، وإنما كان هذا التمني لما عراهم من الفزع الأكبر ومن الحيرة والدهشة مما شهدوا من هول الموقف ، وكيف لا وقد رأوا ما كذبوا به فى الدنيا قد أرداهم فى تلك الحيرة إلى أن أقسموا بالله أنهم ما كانوا مشركين ، فأقام الله عليهم الحجة وأظهر بشهادة جوارحهم ما كانوا عليه من

الكفر والنفاق والكبائر فبدا لهم هذا يوم القيامة ، إثباتا لكذبهم ، وهو الذى كانوا يخفون من قبل – أي من قبل أن يظهر لهم – ولما كان غيرهم ممن ابتدعوا المفاسد والضلالات من الرؤساء المتبوعين كانوا يخفون عن العامة أحكام الله وشرائعه ويبدلونها بما يوافق أهواءهم ، وكانوا يخفون أخبار الله تعالى التى بين بها نبوة محمدε ، وما كان عليه المنافقون من إظهار الإيمان بالباطل وإخفاء الكفر ، كل تلك الأنواع من أهل الغرة بالله جائز أن يكون المراد من الآية ظهور ما كانوا عليه ، وبدا لكل نوع من هؤلاء ما أخفاه فى الدنيا أو يوم القيامة.

وفى هذه الآية من التخويف والتهديد ما يلين لوقعه الحديد ، ولكن قلوب أهل الكفر بالله فى أكنة أعاذنا الله من سوء العاقبة ، فثبت أن تمنيهم الرجعة إلى الدنيا فرار من عذاب النار لا رغبة من أن يتجملوا بجمال العبودية لله تعالى والتصديق بالغيب ، كما فاز أهل الإيمان فى الدنيا.

"وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ" أي ولو ردوا بعد تكشف الحجاب وإظهار الحقائق جلية ، ووقوع ما توعد الله به أهل الكفر ، وما أعده من الفوز العظيم لأهل الإيمان لتناسوا كل ذلك كما وقع منهم نسيان يوم ألست بربكم ونسيان معاهدة الله تعالى للأرواح ، وقوله سبحانه خبرا عنهم "أنا كنا عن هذا غافلين" لأن هؤلاء الكفار بالله وأهل النفاق ينظرون بعيون رءوسهم فيشغلهم الكون المحسوس الملموس بما فيه من الخصوصيات والملاذ عن تدبر آيات الله وبياناته ، وهذا الكون الذى هو الحجاب القاطع عن الله هو البراق الموصل إلى الله تعالى ، وأن كل ما فيه من الأنواع المسخرة للإنسان دلائل قائمة على تفريد الله تعالى بالألوهة دون غيره وعلى وحدانية جل جلاله ، وعلى أن العبد محدث مقهرو مكلف شاكر من أبدعه وأعانه ووالاه ، ومع تلك الحجج البالغة فإنهم لم ينظروا إليها بعيون الإيمان ، ولكنهم نظروا إليها بعيون البهائم السائمة ، فكانوا أضل منها ، فصدق الله العظيم فى قوله تعالى : **"وَلَوْ رُدُّوا"** أي ولو رجعوا إلى الدنيا وفارقوا تلك الحقائق التى أزعجتهم وأهالتهم لحجبهم حسهم عن تدبر ما فى هذا الكون من على الآيات وجلى البينات ، وعما ينزله الله عليهم من محابه ومراضية **"لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ"** أي لما نهاهم الله عنه من الكفر بالله وتكذيب رسله صلوات الله وسلامه عليهم ومن ارتكاب ما حرمه الله **"وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ"** أي أنهم كاذبون فى أمانيهم التي يتمنونها.

قوله تعالى : **"وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ"**(29).

"الواو" هنا للعطف وجملة قالوا معطوفة على قوله تعالى "لعادوا" وهذا خبر من الله تعالى عن خبث طباع هؤلاء القوم ، والمعني **"وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ"** وقد بين قوله تعالى : **"وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ"** جملة معترضة مثبتة كذبهم فى أمانيهم لأنهم لم يتمنوا أن يؤمنوا حقا **"وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا"** هذا هو قولهم لو قدر رجوعهم إلى الدنيا وهى الكلمة التى كانوا يقولونها للرسل إنكارا للبعث قبل أن يروا ما رأوا ، ولن تنفعهم رؤيتهم لنار جهنم التى أفزعتهم إذا رجعوا فإنهم سرعان ما يقولون تلك الكلمة لأن الله تعالى لم يقدر فى أزله لهم خيرا حقيقيا ، والخير الحقيقي هو الله ومن والاه وما والاه وما سواه فشر كله ، قالε : "الدنيا معلونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه".

قوله تعالى خبرا عنهم **"وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ"** أنكروا البعث الذى أخبرتهم به الرسل عليهم السلام عن الله تعالى ، وإنكار البعث يغضب الله تعالى ، ولا ترى إنسانا يرتكب محارم الله تعالى وهو

يؤمن بيوم الحساب ، قال الله تعالى : " **الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا**"[1] ، وقال تعالى : "**بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**"[2].

فالإيمان بيوم القيامة يجعل الإنسان مراقبا لله فى كل قول وعمل وحال ، ومن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه فهو كافر ، والمؤمن هو الذى لم ينسي يوم الحساب ولا معية الله له ، ولا علم الله به ، ومتي كملت تلك الحقائق للعبد كان مع الله وكان الله معه ، ومن كان مع الله لا تعلم نفس ما أخفي له من قرة أعين ، قالε : "كن مع الله ترى الله معك".

قوله تعالى : "**وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**"(30).

هذه الآية خبر من الله تعالى يخبر به خاتم الأنبياء ، ومعناها ولو ترى يا محمد إذ وقفوا "وإذ" هنا بمعنى إذا كما تقدم "**وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ**" أي حبسوا على قضائه وحكمه سبحانه وتعالى ، ولديها قال سبحانه لهم : أليس هذا بالحق ؟ أي أليس يوم القيامة الذى ترونه الآن حقا بعد أن كنتم تكذبون به وتجحدونه ، قوله تعالى : "**قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا**" ، معناها أنه حق ، فثبت تصديقهم به ، بل بلغوا مقام اليقين الحق.

قوله تعالى : "**قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**" معني هذه الآية ان الله تعالى أقام عليهم الحجة بأنهم كذبوا فى الدنيا بالحق وأنكروا حتى وقعوا فيه ، فلم ينفعهم إيمانهم به يوم القيامة بعد كفرهم به فى الدنيا ،وفى قوله تعالى : "**فَذُوقُوا الْعَذَابَ**" ، إشارة إلى تنفيذ ما توعدهم به فى الدنيا ، مما كانوا يهزئون به ويؤذون الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لأجله ، وفى قوله : "**بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**" ، بيان إلى أن إنكار يوم القيامة والغفلة عن العمل له كفر بالله تعالى.

هنا ظهر أن الإيمان بالغيب هو الإيمان المقبول عند الله ، لأنه يدل على أن نفس المؤمن صيغت من جمال الله تعالى فقبلت عن الله ما يحبه ويرضاه ، وإنكار يوم القيامة ونسيان العمل له برهان على كفر المرء ، وأن نفسه صيغت من سجين ، والواجب على أهل الإيمان أن يقولوا آمنا به كل من عند ربنا ، ولا نفتح أبواب الفتن بأن نقيس القرآن بالعقل ، فنقول أن الله قدر عليهم الكفر فلم يعذبهم فإن ذلك سوء أدب مع الله تعالى ، والمتكلم فى هذا بعيد عن الحق محروم من التسليم لله تعالى ،والقرآن هو الحجة البالغة ، والعقل مخلوق مربوب مقهور يتلق عن الله ما ينال به السعادة فى الدنيا والآخرة.

قوله تعالى : "**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ**"(31).

معلوم أن الخسران لا يكون إلا فى البيع والشراء ، ولما كان المكذبون بيوم القيامة العادلون بربهم قد باعوا الجنة والإيمان بالله والعمل ليوم القيامة، فكفروا وكذبوا وأنكروا فكأنهم باعوا الإيمان والجنة بالكفر والنار ، فلما قامت القيامة ورأوا النار وأنهم مواقعوها تحققوا أنهم خسروا بكفرهم بالله وتكذيبهم محمداε وإنكارهم يوم البعث ، وأي خسارة أكبر من هذه الخسارة فإنهم والعياذ بالله حرموا الفوز بالنعيم المقيم وباءوا بخسران مبين.

وقوله تعالى : "**الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ**" ، أي كذبوا بقيام الساعة التى لا ينساها المؤمن ولو جلس على عرش ملك الأرض ، وكيف ينسى المؤمن يوم القيامة وهو يرى الموتى يحملون إلى القبور فى

([1]) سورة الجاثية : 34.

(2) سورة ص : 26.

كل يوم ، ويرى الدنيا فانية زائلة ، ويرى نعيمها مشوب بالمنغصات والمكدرات فلا يصفوا له يوم واحد ، وكيف ينسى يوم القيامة وقد بين الله يوم القيامة ن وما أعده فيه لأهل الإيمان من العفو والمغفرة ومن النعيم المقيم ومن الإحسان بجوار الأخيار من رسل الله ومن كمل اتباعهم ، ومن الفوز بالرضوان الأكبر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وسمع من الصادق الأمين فى الدنيا ما توعد به أهل الكفر بالله وأهل الغفلة عن العمل ليوم القيامة المنعمون فى حظوظهم فى الدنيا ، ثم الشقاء والعذاب بعد الموت ، وكشف الحقائق فى القبر حتى يكونوا فى آلام وهموم وأحزان ، ومن العذاب والخلود فى نار جهنم يوم القيامة ، ومع هذا كله فإنهم ينسون يوم القيامة وتشغلهم شهواتهم وحظوظهم فيقعون فى معصية الله حتى إذا وقفوا على النار ، أو وقفوا على حكم ربهم وقضاه ندموا على ما فرضوا فى جنب الله تعالى وقوله سبحانه : **"حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً"** أي قامت القيامة فجأة من غير استعداد لها أو علم بمجيئها ففاجأتهم مفاجأة أذهلت عقولهم وأدهشت أحلامهم وأوقعتهم فى الحيرة التى جعلت كل واحد منهم يتمني أن يكون ترابا ، حيث لا ينفع يومئذ ندم.

قال تعالى : **"قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا"** عندما باغتتهم القيامة بأهوالها التى أنذرهم رسول اللهε ضاق عليهم الموقف بما رحب فقالوا "يا حسرتنا" أي يا ندامتنا ويا خيبتنا "على ما فرضنا فيها" أي على ما أهملنا وغفلنا عن العمل لهذا اليوم الرهيب . هذه الآية إذا تذكرها المؤمن بالله ذاب قلبه من خوف العاقبة وخشي على إيمانه أن يسلب فيقع فيما وقع فيه هؤلاء أعاذنا الله بوجهه الجميل.

قوله تعالى : **"وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ"** هذا خبر من الله تعالى عمن أقسموا له سبحانه يوم القيامة أنهم ما كانوا مشركين مع ما كانوا عليه فى الدنيا من الشرك ، وبعد أن أظهر الله لهم يوم القيامة خفايا أنفسهم إلى أن قالوا : "يا حسرتنا على ما فرطنا فيها" ، والحال أنهم يحملون أوزارهم على ظهورهم "والوزر" هو الثقل لغة ، ومعني الأوزار هنا هي الآثام ولخطايا ، ولما كانت الأحمال توضع على الظهور ذكر هنا الأحمال والظهور ، وتأويل هذه الآية أن الله جمع على هؤلاء الكافرين من قريش وغيرهم ، عذاب النار لظاهرهم ، وآلام الحسرة والندامة لباطنهم ،ومعني "يحملون أوزارهم" أن حسرتهم وندامتهم وآلامهم قائمة بقلوبهم لا تفارقهم أبدا مع ما هم فيه من أليم العذاب وشديد العقاب.

قوله تعالى : **"أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ"** أي أثامهم التى ارتكبوها فى حياتهم الدنيا من الكفر والعناد وتكذيب رسول اللهε والغفلة عن يوم الحساب ، ولو تدبر الإنسان أن الذى خلقه وأمده بما لا بد له منه وأكمل ، هو الذى كلفه وأمره ونهاه ،وإلى محابة ومراضية دعاه لسمع وأطاع وأسرع ملبيا ،ولو صدق الله تعالى فيما أخبره سبحانه فى وعده ووعيده لعلم أن الدار الدنيا دار بلاء وعناء ودار رحيل وفناء فاز فيها أهل التقوى وخسر فيها أهل النفاق ، أعاذنا الله من سوء القضاء وقضاء السوء أنه نعم القريب المجيب.

قوله تعالى : **"وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ"**(32).

هذه الآية الشريفة قصمت ظهور أهل الكفر المنكرين ليوم القيامة القائلين أن هي إلا حياتنا الدنيا وبذلك حرصوا على الدنيا وطمعوا فيها فيها وغفلوا بالكلية عن الآخرة ولم يعملوا لها ، مع وضوح زوال الدنيا ودناءتها ، والحياة الدنيئة هى كحياة البهائم السائمة التى تحرص على المأكل والمشرب والمنكح ، أو تحرص على جمع الطعام كما يفعل النمل والجرذان والنحل ، ومعني هذه الآية أن الحياة الدنيا وما فيها من الملاذ والشهوات والرياسات ونفوذ الكلمة وعلو الجاه بغير الحق إلا حياة اللاعب

الذى ينفق أنفاسه وصحته وأمواله فيما يضره ولا ينفعه ثم بعد ذلك يندم ، أو كحياة اللاهي الذى لا يعلم شيئا ولا يدرك شيئا وقد يلهو بما يضره عاجلا أو آجلا ، فإذا انتهي وقت اللعب واللهو وقع فى الحزن والآسي ، وكفي بهذا تعذيب لأهل الكفر بالله تعالى.

قوله تعالى : **"وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ"** اللام هنا للقسم والدار الآخرة أي دار الإقامة فى النعيم المقيم أو العذاب الأليم "والآخرة" أي المتأخرة بعد الأولي "خير للذين يتقون" أي هى الدار التى يفوز فيها من علموا لها مما هو خير في الحقيقة ونفس الأمر وهو نيل رضوان الله الأكبر بعد الفوز بالنعيم المقيم بدليل قوله تعالى **"لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ"** أي الذين يخشون ربهم فيتقون الوقوع فيما يغضبه ، وأما الذين غفلوا عن العمل لتلك الدار ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وعاشوا فى الدنيا فى لهو ولعب فأولئك الذين ضروا أنفسهم **"أَفَلَا تَعْقِلُونَ"** أفلا يتدبر هؤلاء الكفار بالله بعقولهم آيات الله التى أنزلها على رسله عليهم الصلاة والسلام ، ودلائله التى أودعها فى مكوناته وآلائه التى تفضل بها عليهم ، وفى هذا الاستفهام من التوبيخ والتشنيع عليهم ما فيه.

قوله تعالى : **"قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ"**(33).

هذه الآية الشريفة تثبيت من الله تعالى لفؤاد رسولهε ، فساق الخبر جل جلاله مؤكدا "باللام وبقد" ، وأتي سبحانه بنعلم ليقوى يقيم رسول اللهε لأن علم الله أزلي لا افتتاح.

قوله تعالى **"إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ"** أكد الخبر بحرف التوكيد وأتي بضمير الغيبة هنا للدلالة على نباهة الخبر ، وأنه معلوم لله تعالى ، لأن رسول اللهε كان يدعوا لله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة دعوة يلين لها الحجر لما جمله الله به من الحرص على الخلق أجمعين ومن الرحمة والرأفة بجميع المؤمنين ، فهوε رحمة الله العامة لجميع خلقه من العوالم كلها ، فما من مخلوق خلقه الله من أعلى عليين إلى أسفل سافلين إلا وناله قسط من رحمتهε ، ولو لم يكن لهم إلا تأخير العذاب عنهم ببركتهε بدليل قوله سبحانه **"وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ"**[1] ورسول اللهε لا يزال فيهم إلى يوم القيامة فى حياته الكونية وبعد رفعه إلى الرفيق الأعلى بدليل قوله تعالى **"وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ"**[2] لأن هذا كلام قديم أزلي لا يتعلق بالصحابة فحسب.

فرسول اللهε حيا حياة كونية بما ورثه من العلم والأسرار لورثته ، ولو أنه فقد منهم لقامت القيامة ، وورثة رسول اللهε فينا بالصورة المحمدية ، ولكل وارث منهم قسط من معاني كمالاته ، فمنهم حفاظ شريعته ، ومنهم حملة أمانته ، ومنهم المبينون لأسراره ، ومنهم المتجملون بأحوالهε ، وعلمه كله فى العالم كله ، ولو اجتمعت الأمة بعلمائها لكانوا جميعا صورة كاملة لهε .

وقد كان بعض الصحابة رضوان الله عنهم يسمعون من التابعين كما حصل لأنس بن مالك مع الحسن البصري ، لما كان أنس رضى الله عنه فى البصرة وزاره الحسن البصري وهو مولي وتابعي ، وسأله قائلا "يا خادم رسول اللهε أسمعنا كلام رسول الله" فأسمعه ثلاثة عشر حديثا ، فقال له الحسن

([1]) سورة الأنفال : 33.

(2) سورة الحجرات : 7.

بين لنا أسرار هذه الأحاديث ، فقال "أنس إنما أنا خزانة علم يا بني" فقال "تأمرني أن أتكلم بما فهمت" قال "تكلم يا بني" فروي الحسن الأحاديث كلها التى سمعها من أنس ثم بدأ يشرح حديثا حديثا فنزل أنس عن الوسادة وقال أجلس هنا يا بني ، ونظر إلى أهل البصرة وقال " يا أهل البصرة أيكون بين ظهرانيكم هذا البحر وتردون على" ، والمقصد كله الفقه ، لا تحصيل العلم ولو كان كأمثال الجبال ، وكما حصل لأحمد بن حنبل غفر الله له ولنا مع محمد بن أدريس الشافعي عندما أركبه ركوبته ووضع يده على ظهر الركوبة ، وكان محمد بن إدريس غريبا فى بغداد ، فلقي أحمد بن حنبل عالم من علماء بغداد فقال " يا أحمد تترك سماع حديث رسول اللهε بالسند الأعلي وتسمعه بالسند الأدنى" فالتفت إليه أحمد وقال " يا أخي أن فاتني سماع كلام رسول الله بالسند الأعلى لم يفتني سماعه بالسند الأدني ولكنى أن فاتني فقه هذا الرجل فأتني كل خير" ، ظهر من هذا أن المراد هو الفقه الذى يعطاه العبد فى دين الله تعالى.

وكان حزن رسول اللهε بعد ما بيناه من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ومما جمله الله به من الحرص على هداية الخلق ومن الرحمة والرأفة مع جحود قومه وإنكارهم عليه وتكذيبهم له وأذيتهε وأذية من يؤمن به ، فكانت هذه الأحداث تحزنهε لكمال خشيته من الله تعالى ويقينه صلوات الله وسلامه عليه أنه ربما قصر فى الدعوة أو أتي بما ينفر ، والله تعالى أرحم بحبيبه محمد وأشفق ، فثبت فؤاده بإعلامه صلوات الله وسلامه عليه أن تكذيب الكفار لك وجحدهم بي بعد عدولهم إلى الأوثان والأنداد وبعد اتخاذهم لي ولدا ، كل تلك الضلالات والكفر بي ليست موجهة إليك لأنك رسولي وقد قامت المعجزة على صدق رسالتك فلا تحزن فإني أقمتك مقامي وجملتك بما لم أجمل به رسولا من قبلك . فإن الرسل من قبلك كان الرسول منهم إذا أنكر عليه قومه أو آذوه دعا عليهم فاستجبت له فأهلكت قومه ، كما فعلت بقوم نوح وهود وصالح ولوط وموسى وعيسى ، ولكنك رحمة للعالمين وقد قمت بالبلاغ المبين ، وهم قوم لا يعقلون.

قوله تعالى **"فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ"** هذه الآية الشريفة اختلف فيها العلماء فمنهم من أثبت أن القوم كانوا يعتقدون صدق رسول اللهε وصحة دعوته ، ولكنهم كانوا ينكرون ما جاء به من الحق لبغضهم الحق ، وقد ورد كما تقدم أنه كثيرا من كفار قريش جلسوا مع رسول اللهε ثم اختلفوا فتكلموا ، فمنهم من قال أني ما سمعت شيئا ولكني رأيت لحيته تتحرك بكلام ، وقال أبو سفيان أن كلامه لعلي شئ من الحق ، وقال أبو جهل أنه لصادق ما كذب أبدا ، ولكن أنكر أن تكون السدانة والسقاية والنبوة فى بني قصي ، فظهر أنهم لم يكذبوا رسول اللهε ولم يثبتوا عليه كذبا من طفولته ، ولكنهم جحدوا آيات الله تعالى ، وهى حججه وعلاماته وأدلة توحيده التى أنزلها فى القرآن المجيد ، والتي أظهرها فى الكون المحسوس الملموس ، وما أظهره جل جلاله من المعجزات الباهرات المؤيدة لرسول اللهε التى هي فى قوة صدق عبده ، ما قبلوا منه مما لا يقدر على إيجاده إلا الله تعالى ، والمعجزات كثيرة جدا صحت بالتواتر ، وأعظمها وأجلها كتاب الله الذى أعجز فطاحل العرب الذين كان بلغاء العرب يسجدون لكلامهم المعلق على الكعبة ، وبعضهم قال فأنهم لا يكذبون – أي أن بعضهم لا يكذب – وبعضهم رأي أن الكلام يشير إلى أن رسول اللهε لم ينطق عن الهوى ، وأن المتكلم حقيقة هو الله على لسان نبيه ، فلم يكن التكذيب لمحمدε ولكنه جحود بالله وكفر به أعاذنا الله وأخوتنا المؤمنين من اتباع الحظ والهوى.

قوله تعالى : **"وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ"**(34).

هذه الآية الشريفة تسلية وتعزية وتثبيت لفؤادهε ، ومعناها ان الله تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام ليكونوا شهداء لمن آمن بهم ، لأنهم سمعوا وأطاعوا وسارعوا إلى محاب الله ومراضية وصدقوهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى ، وحجة على أهل النفاق والكفر بالله ليفوز أهل الإيمان بالنعيم المقيم يوم القيامة وليهلك من هلك من المنافقين والكفار على بينة فيكونون كما قال تعالى " **فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**"[1].

كل هذه الآيات أدلة قائمة على أن رسول اللهε كان كما أخبر الله عنه بقوله **"حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ"**[2] فإن رحمته بالقوم وإشفاقه على أن يهديهم الله للإسلام كان يحزنه حزنا يكاد يذهب بنفسه صلوات الله وسلامه عليه ، ولم يكن كذلك الرسل من قبل كما بينا فيما سبق وقد أكد الخبر "باللام وبقد" ليطمئن قلب رسول اللهε وقوله "من قبلك" أي من قبل بعثتك إلى الناس كافة.

"فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا" تأويل هذه الآية الشريفة أن الله تعالى أرسل رسلا قبل محمدε فصبروا على تكذيب أممهم وأذيتهم لهم لأن "ما" هنا مصدرية "حتى أتاهم نصرنا" أي كان صبرهم وتحملهم بتكذيب من كذبوهم وأذيتهم لهم حاصل من الرسل إلى أن نصرهم الله بالانتقام ممن كذبهم وآذاهم ، فكانت نصرة الله تعالى لهم تأييدا وعزا للرسل عليهم الصلاة والسلام.

وفى هذه الآية الشريفة إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى بعد أن أخبر بما فيه تسلية وتعزية وتثبيت لفؤاد الرسولε نبهه إلى سر مكنون وهو أن الرسل الذين لم يبعثوا إلى الخلق كافة صبروا من غير أن يحصل لهم حزن على تكذيب القوم لهم ن ولا كادت تنبخع نفوسهم من الندم على إنكار القوم عليهم ، وتحملوا تلك الفظائع بالصبر حتى انتقم الله من أممهم ، فلا تدفعك الرحمة على قومك والرأفة بهم إلى الحزن ، بل أصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، فأنت حجتي على القوم وليست لك هداية الإحسان ولكن الذى عليك هداية البيان ، ومهما كانت رحمتك ورأفتك بالمؤمنين وحرصك على الكافرين فإن ذلك لا يغير ما قدرت ، فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، وفيها إشارة أخفي من ذلك وهى أن رحمة رسول اللهε التى تتأثر بما يراه أو يعلم وقوعه بأعداء الله من النقم العاجلة أو الآجلة تقتضي أن يجزن ، ولكن رحمة الله العلي المنزه عن التأثير والتأثر يستوي فى حضرتها النعيم المقيم والعذاب الأليم ، ولذلك فإن الله تعالى يعزي نبيهε ويسليه ويثبت فؤاده بالآيات البيناتε ، وذلك لأن الله لم يجمل أحدا من رسله بما جمل به حبيبهε حيث يقول تعالى **"حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ"** ويقول تعالى **"وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ"**[3] بإضافة عظيم إلى خلق أي على خلق الله تعالى.

قوله تعالى **"وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ"** معنى هذه الآية الشريفة أن أقدار الله التى قدرها وأخبر بها لا مبدل لها ، أي ليس لأحد سوى الله تعالى أن يغيرها ، وفيها مزيد تسلية لرسول اللهε وفرح لأهل الإيمان.

([1]) سورة الشورى : 7.
(2) سورة التوبة : 128.
([3]) سورة القلم : 4.

قوله تعالى : **"وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ"** يعني جل جلاله أن الله تعالى أنبأ محمدا ε نبأ من نبأ المرسلين الذين قصهم عليه فى القرآن مما يتسلى به عن عناد وكفر وتكذيب أعداء الله تعالى له.

قوله تعالى : **"وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ"**(35).

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن بعض كفار قريش طلبوا من رسول الله ε أن ينزل لهم آية تدل على صدق رسالته كما أنزل للرسل من قبله ، ومعلوم أن حكمة الله تعالى اقتضدت أن ينزل لأمة كل رسول آية تناسبهم ، فأنزل الله لموسى العصا وكانوا قد تفوقوا فى السحر ، وأنزل لعيسى آية ابراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى لأن القوم كانوا بارعين فى الطب ، وأنزل لخاتم رسله ε القرآن المجيد معجزا فى أقصر سورة منه بعد التحدي ، والنفوس القابلة للفيض المقدس يكفيها قليل الحكمة ، والذين خبثت طباعهم فلم يقبلوا القرآن ـ دل ذلك على خبث نفوسهم ـ وإنها نفوس عنادية ، فأبي الله تعالى أن يستجيب لهم فى طلبهم ، ولكن رسول الله ε الحريص على إيمانهم الرءوف الرحيم بالمؤمنين يسره جدا أن ينزل الله لهم آية تجعلهم يؤمنون حرصا على إيمانهم لأنه ε رحمة للعالمين ، ولما حصل له ε الحزن على أعراضهم عنه وتكذيبهم له أدبه الله تعالى بإنزال هذه الآية الكريمة ولهذا قال عليه الصلاة والسلام "أدبني ربى فأحسن تأديبي".

قال تعالى : **"وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ"** . والمعني وأن كان إعراضهم عنك وتكذيبهم لك وجحدهم الوهيتى كبر عليك لما جملتك به من الرحمة الواسعة فحصل لك الحزن الذى ربما يبخع نفسك حرصا على إيمانهم ، وقد بينت لك إنك أن جئتهم بكل آية ما تبعوا قبلتك وأنهم لا يكذبونك **"فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ"** أي فإن كنت لا تطيق صبرا على أعراضهم عنك وتكذيبهم وجحدهم بربهم ، فإن استطعت أن تتخذ نفقا فى الأرض "أي سردابا وطريقا فى الأرض" كما تصنع اليربوع النافق لتنجو بنفسها "أو سلما فى السماء" أي مرقي ومصعد "فتأتيهم بآية" من السماء أي ما يبتغونه منك ، وحذف جواب الشرط للعلم به ،ولأنه ملاحظ من سياق الآية ، وتقديره فافعل.

وفى هذه الآية الشريفة من كمال التأديب لرسول الله ε ما فيها ، وفيها أيضا إشارة إلى أن الله تعالى إذا أقام الحجة للقوم على قدر ما هم فى حاجة إله من طريق الحجة ، ولم يقبلوا يحكم عليهم بالكفر ولا يستجب لهم ، وهى حكمة الله الماضية ، وقد أنزل القرآن معجزة دائمة لا تنتهي عجائبه ، وهو غض رطب يؤنس الأرواح ويطمئن القلوب ويشرح الصدور ويسجد له العقول ، اللهم إلا من سجل عليهم القضاء القطيعة عن الله تعالى ، وكم أكرم الله رسوله محمدا ε بمعجزات باهرات تكفي من وهبهم الله القابل عنه ، أما الذين سألوا رسول الله ε أن ينزل لهم آية من عند الله فقد برهنوا على أنهم لم يقبلوا عن الله شيئا ، وفى هذه الآية الشريفة تأديب لأهل الإيمان بالله الذين يظنون أنهم بالتقوى وبالعمل الصالح يستحقون أن يعطيهم الله ما يحبون فى الدنيا وهو دليل على الشرك الخفي ، فإن الله قد يكرم العبد بالتوفيق والإخلاص ويحرمه مما يظنه خيرا فى الدنيا ،وتكون لله عليه المنة بإعطائه ما هو خير عنده سبحانه.

قوله تعالى **"وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى"** تأويل هذه الآية الشريفة أن الله لهم يشأ أن يجمعهم على الهدى فى أزله ، والأمر بين هداية وضلالة إذا شاء أن يجمعهم على الضلالة ، ومتي قدر

الله تعالى ذلك وقامت لهم الحجج كلها لم يقبلوا عن الله تعالى شيئا ن وهذا لطمأنينة قلب رسول اللهε وتعزيته ويتسلى صابرا على قضاء الله عليهم ، وفى هذه الآية الشريفة طهور يدار على أهل التوحيد الكامل ولا حجة لمن يقول شاء الله أن يضلهم وهو المضل سبحانه فكيف يعذبهم ، والقائلون بهذا القول جهلوا أسرار الإيجاد الإمداد والحجة البالغة لله تعالى ، لأن الله تعالى أخفي سر قدره عن خلقه وأقام لهم الحجج تلوا الحجج مينا سبل الحجة وطرق الوصول إلى نيل السعادتين بيانا أزال اللبس عن الحقائق وجعل العقول مهما كانت تعرف الحق ولا تنكره وقوله تعالى "فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون" ، ومن أطلع على سر القدر يعلم ما قدره الله تعالى عليه من المعاصي ، فإنه قد يكون له بعض العذر إذا خالف الأمر الظاهر الذى بعث به محمدε ، وقد أطلع على سر القدر سيدنا الخصر عليه السلام فنفذ ما علمه ، فلم يؤاخذه الله تعالى على مخالفة كليم الله تعالى الذى كان يعارضه بما يعلمه من الشريعة ، وليس على من يرتكب المعاصى إلا أن يندم على نفسه التى أقامها الله فيها يكره ، ويعتقد أن المقدر هو الله تعالى ويتوب إلى الله فيقبل توبته ويبدل سيئاته إحسانا ،وليس عليه أن يعترض على الله ، والواجب فى مثل هذه الآيات الشريفة أن يقول العبد "آمنا به كل من عند ربنا" ولك أن تقول أن الله بعث رسله صلوات الله وسلامه عليهم لهداية من سبقت لهم الحسنى أذلا وإقامة الحجة عن الذين سبقت لهم السوى أزلا.

قوله تعالى **"فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ"** . . وينهى الله تعالى خاتم أنبيائه بعد أن علمه ما لم يكن يعلم عن أن يكون من الجاهلين الذين لم يعلموا شيئا لخبث طبعهم ورداءة جواهر نفوسهم ، وجائز أن يكون النهي عن أن يكونε من هؤلاء القوم الجاهلين الذين يطلبون من الله إنزال آية لهم جهلا نهم بقدر أنفسهم فى جانب الله تعالى ، وكم فى القرآن من مثل هذه الآيات الشريفة التى تشيب المصطفين الأخيار كقوله تعالى **"فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ"**[1] **"عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ"**[2] وقوله سبحانه **"وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ"**[3] ففيها من الآداب الفاضلة الكاملة التى جعلهε أقرب الخلق إلى الله وأخوفهم من الله وأعلمهم بالله تعالى كما تجعل المصطفين الأخيار أقرب الناس إلى رسول الله أدبا من الله.

قوله تعالى : **"إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ"**(36).

عظم على رسول اللهε أعراض الكفار عنه وتكذيبهم له ، وجحدهم بالله تعالى حتى بلغ الحزن منه مبلغا عظيما ن فأنزل الله هذه الآية الشريفة تسلية لهε فقال تعالى **"إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ"** أي يقبل عن الله تعالى **"الَّذِينَ يَسْمَعُونَ"** أي يسمعون سماع قبول بآذان الإيمان ،وهم الذين جعل الله لهم حياة روحانية يعقلون بما عن الله تعالى.

قوله تعالى **"وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ"** تأويل هذه الآية الشريفة أن الموتي الذين ماتوا موته عزرائيل يبعثهم الله يوم القيامة ، وهؤلاء الذين لم يقبلوا ولم يستجيبوا لله تعالى ولرسولهε ، موتي لفقدهم الحياة الإيمانية ، فالله تعالى يبعثهم يوم القيامة ويشهدهم ما كذبوا به فى الدنيا حقا ، كما يشهد من مات موته

([1]) سورة آل عمران : 159.
(2) سورة التوبة : 43.
(3) سورة الحاقة : 44.

عزرائيل الحقائق المؤمن بها ، وبذلك يكمل يقينهم ، ولا ينفع المكذبين يقين يومئذ لأنهم فارقوا الدنيا كفارا . قال تعالى "يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا" لأن الآخرة ليست دار تكليف ولا تعريف ،وأهل الكفر بالله تعالى فى الحقيقة موتي عند الله وعند رسول الله ، وعند أهل العلم بالله ، والله تعالى يبعث الموتى جميعا لا فرق بين من فارق الحياة الجسمانية أو فارق الحياة المعنوية مع بقاء الحياة الجسمانية كالكفار بالله تعالى ، وبعث هؤلاء قد يكون تفضل الله عليهم بهداية الإحسان التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى ، وقد يوميتهم بعزرائيل ثم يبعثهم بعد الموت فتنكشف لهم الحقائق التى لم يؤمنوا بها كما تقدم ويكمل إيمانهم من حيث لا ينتفعون بالإيمان.

قوله تعالى "**ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**" هذه الآية الشريفة حجة على قيام الساعة وعلى أنها آتية لا محلة ، وأن منكرى البعث سوف يقفون مواقف يتمنون فيها أن يكونوا ترابا ولم يكونوا كذبوا الرسل عليهم السلام ، وفى قوله تعالى "ثم إليه يرجعون" دليل على أن الناس يمكثون فى قبورهم دورا كاملا يتفاوت زمانه بحسب ما قدره الله تعالى ، والذى خلق الخالق وأمدهم بما أمدهم به بقدرته العلية وإرادته وتقديره هو الذى يعيدهم وذلك أهون عليه من إيجادهم وإنما هى كلمة كن ، وقد سبق فى علمه القديم تخصيص إيجادهم فأماتتهم ثم بعثهم.

قوله تعالى : "**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**"(37).

وقال أعداء الله من الذين اتخذوا الأصنام والأنداد آلهة وجعلوا لله ولدا تنزه وتعالى "**لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ**" يعني هلا نزل عليه آية من ربه وقد بينوا كلامهم هذا بقولهم فيما أخبرنا الله عنهم "ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقي إليه كنز أو تكون له جنة " الآية . . وقالوا غير هذا جهلا منهم بما أظهره الله على يدهε من الآيات فى أن بعثه وهو يتيم لا ناصر له إلا الله بين جاهلية عمياء صماء يدعوهم إلى عبادة الله تعالى والاعتراف له بالالوهية ولأنفسنا بالذل والعبودية ، وكم من آية أنزلها الله فى القرآن أعجزت فحولهم وأظهرها الله تعالى أسجدت قلوب أهل القبول من الله وهم عنها عمون.

وجائز أن يكون مرادهم بالآية كفلق البحر بعصا موسى ونتق الجبل ، وكالمائدة التى أنزلت على عيسى وهم يجهلون حكمة إظهار تلك الآيات فى أزمنة الرسل السابقين عليهم السلام "من ربه" أي من ربه الذي يدعوا إلى عبادته وتوحيده القادر على أحداث العجائب الكبرى.

"**قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**" أي قال يا محمد أن الله قادر على أن ينزل آية فوق ما أنزل من قبل لرسله السابقين عليهم السلام ولكنهم يجهلون ، لأنك يا حبيبي خاتم الرسل وبعثت رحمة للعالمين ، والآية إذا نزلت وكذب بها القوم أهلكتهم كما أهلكت قوم عاد وثمود وهود ولوط وشعيب وقوم موسى وعيسى ، وأرسلت بعدهم الرسل تترى ولكنك يا خاتم الرسل بعثت لنجاة العالم أجمع إلى يوم القيامة ، فلم أشأ أن أنزل عليهم آية من آياتي المحسوسة الملموسة التى بإنكارها يهلكون جميعا فتضيع الحكمة من بعثتك خاتما للرسل ، وأن تقديري عدم إنزال الآية التى يريدونها رحمة بهم وسابقة الحسنى لمن يأتي بعدهم من خيار أمتك الذين يتمني الواحد منهم أن يكون رآك ببذل نفسه وماله وأهله.

ودليل ما فهمته فى هذه الآية قوله "**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**" أي يجهلون هذه الحكمة فى عدم إنزال الآية التى يطلبونها منك ، ولو علموا الحكة لتمنوا أن لا تنزل الآية اشفاقا على أنفسهم من عاقبة إنكار بعضهم لها، فإن الخير يخص والمصائب تعم ، قال تعالى "ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات

لم تعلموهم" إلى قوله "لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما"[1] ، يعني أن الله آخر فتح مكة عن عمرة الحديبية لأن بمكة رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات يجهلهم الأنصار فرحمة بهم آخر الله الفتح حفظا لهم وهؤلاء رجال فى بلد واحد فكيف ينزل الله على قريش آية فينكرها بعضهم كما أنكروا غيرها مما يستوجب هلاكهم جميعا ، وبإهلاكهم جميعا لا يعبد الله فى الأرض لأنه سبحانه بإهلاكهم يهلك مؤمنهم وكافرهم فأين نكون نحن أذن ، فلله الحمد حتى يرضى وله الشكر ملء السموات والأرض وملء ما شاء من شئ بعد.

قوله تعالى : **"وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ"**(38).

هذه الآية الشريفة قاصمة لظهور منكري البعث العادلين بربهم المكذبين لرسول اللهε الذين يقولون : **"لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ"** ، فالله تعالى يشنع على أهل الكفر به سبحانه وتعالى ، ويقيم الحجة عليهم بأن جميع بني الإنسان أمة من الأمم بل وأقل عددا من الأمم الأخرى وأضعف جسوما وأشد اضطرارا إلى الإيمان بربهم ، لكثرة ضروراتهم ولعجز الواحد منهم عن أن يقوم لنفسه بأقل الضروريات ، مع جهلهم بأنفسهم وبما هو نافع لهم ، مع أنهم هم الذين يبعثون يوم القيامة لحياة طيبة فى النعيم المقيم ، أو لشقاء وعناء فى العذاب الأليم ، ولو أنهم نظروا إلى ما أحاط بهم لفازوا بالحسنين ، فالله جل جلاله يبين لهم حقائق ما أحاط بهم فى هذه الآية ، ومعناها أن كل دابة فى الأرض ، "والدابة" هى كل ما تدب على الأرض من الحيوانات جميعها بأنواعها على الأرض اليابسة أو فى الماء من البعوضة الصغيرة إلى ما فوقها من حيوانات البحر على كثرة أنواعها ، وحيوانات البر وتفاوت أشكالها وألوانها وصغر أجسامها أو كبرها ، بل ولا طائر يطير فى الأجواء والأرجاء بجناحيه مع اختلاف أجناسها وأنواعها وأشكالها إلا أمم أمثالكم بحسب رتبة كل نوع منها ، وتصرفها فيما سخرت له تصرف الخبير المدرب ، مهتدية فى كل شئونها التى تحتاج إليها فى بقاء حياتها من مأكل ومشرب ومأوي وجب للمنافع ودفع للمضار وتدبير لما ينفع للمجتمع كالنمل والنحل والقردة كما يتصرف بنو الإنسان فى شئونهم الشخصية التى تدعوا إليها الضرورة ، وهذه الدواب بحسب اختلافها معلومة لله تعالى بأعمالها وحركاتها وسكناتها ، ومحفوظ عليها كل ما وقع منها وسيبعثها الله يوم القيامة كما يبعث البشر ويحشرها إليه كما يحشر البشر ثم يقول لها كوني ترابا ، لديها يتمني الكافر أن يكون مثلها ترابا.

ومن وسع علمه ما يعجز العقل عن حصر أنواعها ، ووسعت قدرته إيجادها وإمدادها سبحانه بما لابد لها ، وهو قادر سبحانه على أن يعيدها ، كيف يجحده بنوا الإنسان مع أن كل تلك الدواب تعرف الله تعالى وتلتجئ إليه عند الشدة ولها عقول على قدر مرتبتها ، وهذا الإنسان الذى جمله الله بالفضل والبيان وأقام له سبحانه وتعالى الحجج يجحد ربه ويكذب رسله.

وليس المراد أنها أمثالنا فى كل ما تفضل الله به علينا ، من أنه سبحانه خلقنا فى أحسن تقويم وسخر لنا ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه وأرسل لنا الرسل للهداية ، ولكنها أمثالنا فى أنه سبحانه هداهم الهداية العامة التي بها تعيش وتقوم برسالتها ، ويسخر لنا كل ذلك بعلم أزلي وتقدير رباني وحكمة علية ، فسبحان من لا يغرب عن علمه شئ ، العالم بكل شئ علما يفوق علوم مخلوقاته جميعها.

([1]) سورة الفتح : 25.

قوله تعالى **"مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ"** أي فى الكتاب الذى كتبناه أزلا وهو أم الكتاب فما عليه الوجود هو ما كتبه الله تعالى فى أم الكتاب أزلا من أول بدء الخلق إلى ما لا نهاية ، قال على عليه السلام "لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله تعالى".

قوله تعالى **"ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ"** حشر كل دابة سوى الإنسان إلى ربها بموتها فإن الموت حشر ، ومعنى حشرها أي تنفيذ قضاء الله فيها ـ وقهرها على الرجوع إليه ، ثم حشر بني الإنسان جائز أن يكون بالموت فإن الموت حشر ، وجائز أن يكون بالبعث يوم القيامة وهو حشر أيضا ، وجائز أن يكون بظهور جهنم تسوق الناس إلى أرض المحشر وهى ترمي بشرر وهو حشر أيضا، وذلك بعد قيام الناس من قبورهم حفاة عراة عزلا لا يدفع عنهم العذاب إلا الشفاعة العظمي التى وردت بصحيح الأحاديث الصحيحة ، ووردت فى القرآن بصريح الآية فى قوله تعالى "عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا" وذلك المقام هو الشفاعة العظمي التى يحمدهε عليها كل من بعثهم الله من الجن والأنس والملائكة ، ولما كان الحشر إلى الرب جل جلاله هو سوق الخلق إلى ما قدره الله لهم أو عليهم ، وجائز أن يكون الحشر حشر أهل الكفر والنفاق إلى جهنم . قال تعالى : **"يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا"**[1].

قوله تعالى : **"وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"**(39).

بعد أن أثبت الله تعالى أن الاستجابة له سبحانه لا تكون إلا لمن منحهم حياة الإيمان ، والذين لا يستجيبون حكم عليهم بأنهم موتي ، وفى هذه الآية الشريفة يبين لنا أن الذين كذبوا بمحمدε وبما جاء به من عند الله أو كذبوا بكل آيات الله تعال **"صُمٌّ"** لا يسمعون عن الله سماع قبول ، **"وَبُكْمٌ"** لا يتكلمون بالحق الذى تقوم به الحجة على صدقهم ، وأن سمعوا غير ذلك وتكلموا بغير ذلك **"فِي الظُّلُمَاتِ"** أي فى ظلمة الهوى والحظ فهم أضل من الأنعام كالبهائم السائمة التى قلدت والديها بغير بصيرة نافذة ، وفى هذه الآية برهان على كمال قدرة الله تعالى وإرادته وسابق علمه فى خلقه.

قوله تعالى **"مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"** أوجب الله علينا السمع والطاعة له سبحانه ، وأهل العلم به يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، والواجب علينا أن لا نأول صريح القرآن إلى غير ما يدل عليه لفظه ما دام صريح العبارة لا يخالف الآيات الشريفة.

ومعني هذه الآية أن الله تعالى له المشيئة المطلقة ، لأنه سبحانه خلق الأكوان من عدم بعلم سابق وإرادة خصصت ما شاء أن يخلقه جل جلاله وقدرة وحكمة أبرزت ما شاء إيجاده ، فمن شاء أن يضله من خلقه أقامه فيما يغضبه سبحانه ، ومن شاء أن يهديه أقامه فى محابة ومراضية ، لأنه جل شأنه يعلم أين يضع كل مخلوق من خلقه قالε "أعلموا فكل ميسر لما خلق له" وتأويل أمثال هذه الآيات بغير صريح لفظها أنما يكون من الخائفين على الله تعالى ، وتنزه الله سبحانه من الخوف عليه ، أما الخائفون من الله تعالى فقد اسلموا له سبحانه وأنابوا إليه جل جلاله ، لأنه سبحانه يتعبدنا بما تتحمله العبارة من المعاني اللائقة بجلاله ، وقد وردت أيات كثيرة صريحة فى هذا المعني . قال تعالى **" مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا"**[2].

([1]) سورة مريم : 85 – 86.

([2]) سورة الكهف : 17.

قولـه تعـالى **"وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"** . . أي ومن يشأ الله تعالى أن يهديه ـ أي يبين لـه سبيل النجاة والوصول إليه جل جلاله ـ يجعله على صراط مستقيم . أي يقيمه فيما يحبه ويرضاه من العقيدة والعبادة والعمل الصالح ويغفر له ذنوبه.

قولـه تعـالى : **"قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"**(40).

يأمر الله تعالى محمداε بقوله قل يا محمد لهؤلاء العادلين بعبادتي الأوثان والأنداد المكذبين بآياتي المنكرين يوم الحساب **"أَرَأَيْتَكُمْ"** والكاف فيها حرف خطاب ، أي أخبروني أيها الجاحدون الكافرون بالله تعالى العادلون به الأنداد والأوثان والكواكب الهة من دون الله والجاعلون لله ولد **"إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ"** أتجدون لكم نصيرا من الهتكم بالباطلة التى ابتدعتموها أو قلدتم فى عبادتها أهل الجهالة من آبائكم الضالين ، أو يحصل لكم اليأس والحيرة لأنها أحجار لا تنفع ولا تضر مخلوقة لله مقهورة بقهره جل جلاله ، وسوف تلجئكم الضرورة رغم أنوفكم إلى الالتجاء إلى الله تعالى والاستعانة به سبحانه والاستغاثة برحمته.

وفى قوله سبحانه **"أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ"** تهديد وتبكيت وتشنيع لهم وحجة على أنهم كذبوا فى كفرهم ، والجملة من متعلقات "أرأيتكم" وجملة أرأيتكم جواب الشرط مقدم ، والمعني أن الله تعالى يأمر نبيهε أن يقول للكافرين "أن أتاكم عذاب الله أوأتتكم الساعة" أخبروني "أغير الله تدعون" أى تسألونه وتتضرعون إليه بعد يأسكم م آلهتكم التى اتخذتموها ، وبعد قيام الحجة على أن تلك الآلهة أذل وأحقر من أن تنفع نفسها فضلا عن ان تنفعكم.

قوله تعالى **"إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"** أي صادقين فيما تدعونه من الإيمان بتلك الآلهة الباطلة التى تشيدون لها المعابد وتبذلون لها الأموال وتقدمون لها العبادة مع أنها صنعت ونصبت بأيديكم ،وهي فى تلك الدار الدنيا تضركم ولا تنفعكم ، وإذا نزلت بكم المصائب دعتكم الضرورة إلى الالتجاء إلى الإله الحق جل جلاله ، فيتفضل سبحانه ويرحم من التجأ إليه فى تلك الدار الدنيا أن شاء سبحانه وتعالى ، ولكنه يوم القيامة أعد لهم العذاب الأليم لمن مات على الكفر ، بل والخلود فى نار جهنم مع الآلهة التى عبدوها يوم لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، وهل بعد هذه الحجج الناصعة والبيانات التى تذيب قلوب أهل العقول يأبى من سجل القضاء عليهم الكفر أن يقبلوا عن الله تعالى:

قوله تعالى : **"بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ"**(41).

معني هذه الآية أن الكافرين إذا أحاطت بهم المصائب أو قامت الساعة ويئسوا من نصرة آلهتهم ، أو ساءهم ما نزل بهم خصوا الله تعالى بالدعاء لكشف ما نزل بهم دون غيره من آلهتهم ، فيكشف جل جلاله عنهم ما هم فيه حال حياتهم الدنيا **"إِنْ شَاءَ"** أي أن كان قدر ذلك أزلا ، ولا يكشفه عنهم يوم القيامة بل يحيط بهم لأنه لم يشاء جل جلاله أن يقبل من الكافرين به إيمانا يوم القيامة ، بل ولو بلغوا من اليقين أكمله.

"وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ" أي وتتركون ما أشركتكم به ، ترك نسيان لا ترك هجر وسلوان ، ولا يترك ترك نسيان إلا الذي ناله شر البلاء ولم يغثه من كان يعتمد عليه ، أما من أناله خير مما كان فيه يتركه تركا لا رجعة فيه ، ولا يرجع عن الحق إلى الباطل الذي ظهر باطلة إلا من سفه نفسه وخف عقله.

قولـه تعـالى : **"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ"**(42).

أي أرسلنا رسلا إلى أمم وجدوا قبل وجدوك ووجود أمتك فكذبوا بالرسل وبما نزلنا عليهم من الآيات ،وما أظهرنا على أيديهم من المعجزات فاستحقوا عاجل النقمة ، فأمهلناهم وأخذناهم فى مهلتنا لهم "بالبأساء" أي ما يعتيرهم من الفقر والزلازل وحبس الأمطار وتولية الظلمة وتفريق الكلمة والخروج على بعضهم بعضا ن وبلاء سوء الأخلاق حتى تعم الشحناء والبغضاء والحسد ، وشر البأساء تولية العدو الغاصب المفارق للدين ، فإنه يسومهم الخسف ويفسد عليهم أحوال الدين والدنيا . "والضراء" هي ما يصيب الأبدان من الأسقام والعقم وفساد الذرية وفقد الملائم والحرمان من المشتهيات الضرورية للإنسان ،وهذا الإبتلاء كان سببه تكذيبهم لآيات الله تعالى.

وفى هذه الآية الشريفة تخويف لمن كذبوا رسول اللهε أن يصيبهم ما أصاب من سبقهم ممن عملوا كأعمالهم ، بل ما عمله كفار قريش مع رسول اللهε من أذيته والإنكار عليه وتكذيبه وأذية أصحابه أكثر مما عملته الأمم السابقة مع أنبيائهم ، فتكون نقمة الله إذا نزلت بهم أشد وأنكي ، ولكن محمداε بكونه رحمة الله العامة والرءوف الرحيم بالمؤمنين والحريص على العالمين ، كان سببا فى أكرام الله تعالى لأعدائه مع ما فعلوه من العناد والشقاق ، فهدي الله أكثرهم إلى الإيمان ثم جمعهم بعد رفعهε إلى الرفيق الأعلى على الإيمان كما كان يحب صلوات الله وسلامه عليه فكم كان يقول "اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون".

قوله تعالى : **"فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"**(43).

معلوم أن "لولا" إذا دخلت على فعل كانت بمعني "هلا" وإذا دخلت على اسم كانت بمعني "إمتناع لوجود" كما تقول لولا زيد هلك عمر ، أي إمتنع هلاك عمر لوجود زيد ، وهى هنا داخلة على فعل فتكون بمعني "هلا" والمعني هلا **"إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا"** ويكون الجواب أنهم لهم لم يتضرعوا **"وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ"** أي غلظت وجمدت لسلطان الشهوة عليها ، فإن الإنسان إذا تسلطت عليه القوة الشهوانية استباح لنفسه ما تشتهيه فأكل كما تأكل الأنعام ، فغلظ القلب لفبساد الدم ومتي فسد الدم أفسد لطائف القلب فصار كالصخرة الصماء لا تصل إلى سيويدائه الحكمة ، فتكون الحكمة حول القلب لا تجد لها منفذ ن أو تكون دواعي الشهوة والحرص على الحياة الدنيا والطمع فيما يفني منها ساكن فى السويداء ، وقسوة القلب نتيجة المعاصي ، والمعاصي نتيجة التوسعة فيما يكره الله تعالى ، حتى يقع فيما حرمه الله تعالى . قال تعالى **"وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ"**[1] ، أما توسط أهل الإيمان فى طعامهم يجعل دماؤهم رقيقة ومتي رق الدم قويت لطائف القلب فلان للحكمة وهش لها وبش وصار كالجمرة المسعرة بالنسبة لوسوسة الشيطان فلا يكون له أي سلطان عليهم قال تعالى **"اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ"**[2].

وقال أبو الطيب المتنبي . . .

عزل العوازل حول قلب التائـــــــه

وهوي الأحبة منه فى ســـودائـــه

([1]) سورة محمد : 12.

(2) سورة الزمر : 23.

وكما تكون القسوة فى القلب عن قبول الإيمان فقد تكون عن قبول الباطل أيضا ، كما قال أبو بكر رضى الله عنه لبعض الصحابة وقد غلبهم الوجد لسماع القرآن "كذلك كنا حتى قست قلوبنا" أي كذلك كان فهم المعاني تقشعر منه جلودهم وتلين له قلوبهم ، حتى من الله عليهم باليقين الحق بدلائله وعلاماته فقست قلوبهم فلا تلين إلا بالمشاهدة العيانية لا بمعاني الألفاظ البيانية.

قوله تعالى - **"وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"** معلوم أن الشيطان حقيقة من الحقائق التى لا تعرف إلا بآثارها ، فأنك ترى أكثر الناس يلعنون الشيطان وينسبون إليه ما يقع منهم ، المعاصي والكبائر ، ولو سألتهم ما هو الشيطان لجهلوا حقيقته ، والحقائق التي تعرف بآثارها كثيرة كالعقل والروح والنفس والجن والكهرباء وغيرهم.

ولما كانت حقيقة الشيطان مخلوقة من النار لزم أن يكون فى جسم الإنسان شئ من النار محلا لاتصال الشيطان بالإنسان ، ولذلك فالشريعة المطهرة أمرتنا أن نجاهد شهواتنا التى تدعو إليها تلك القوة النارية الموجودة فى أجسامنا ،لأنها تدعو إلى الشهوة والغضب فقوله تعالى **"وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"** يعني أن النفوس تميل إلى ما يقبح شرعا وما يمدح شرعا ، فالشيطان يزين ويحسن ما يقبح شرعا للإنسان ، والنفس الملكية تحسن له ما يمدح من محاب الله ومراضية ، والشيطان فى الإنسان هو سبب البلاء وهو الذى أمرنا الله تعالى أن نجاهده فادح المجاهدة ،لأن إبليس الرجيم إذا وسوس فى صدور الناس ولم يجد ما يتصل به من دواعي الشهوة والغضب خنس وخسأ ، وشر وصلة بإبليس فى الإنسان هى الأماني ، قال تعالى: **"وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ"**[1].

وكلمة "لو" التى هي أساس الأماني باب من أبواب الشيطان ، فإذا كانت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم إذا حصل من أحدهم تمنيا ألقي الشيطان فى أمنيته فكيف الواحد منا ولا يكون التمني إلا فيما تدعو إليه النفس الغضبية أو الشهوانية فى الإنسان إذ تجاوز الحد الوسط فإن قوتي الغضب والشهوة تجدا منفسا لهما فى التمني . . أما إذا توسطا أعانا الإنسان على محاب الله ومراضية . ولكن كثيرا ما تكون الأماني مرتعا خصبا لوساوس الشيطان وتجعل له على صاحبها سلطانا فيلقي به فى مهاوي الضلالات أعاذنا الله تعالى من شره.

قوله تعالى **"وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"** أي زين لهم أعمالهم التى دعاهم إليها الحظ والهوى والشهوة والطمع . وحسن لهم صنيع كل ما يتفق مع تمنياتهم المعبرة عن رغبات نفوسهم . قال تعالى مخاطبا رسولهε **"قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا"**[2].

قوله تعالى : **"فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ"**(44).

بعد أن أخبرنا الله تعالى عن إرساله رسلا إلى أمم سبقت وأخذهم بالبأساء والضراء ليتضرعوا ،ولكنهم لم يتضرعوا بسبب قسوة قلوبهم وتزين الشيطان لهم أعمالهم . قال سبحانه **"فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ"** أي تركوا العمل بما جاءهم به رسلهم ، وانغمسوا فى عمل ما تدعوهم إليه نفوسهم ويتفق مع حظوظهم وأهوائهم ، **"فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ"** أي أغدق الله عليهم من الأشياء المادية ما يلائم رغباتهم وتمنياتهم ليقيم علهم الحجة حتى إذا أخذهم كان أخذه أخذ عزيز مقتدر بعد أن مكن لهم فى

([1]) سورة الحج : 52.

([2]) سورة الكهف : 103 – 104.

الأرض ، فأنزل عليهم غيث السماء مدرارا ، وأجراه فى الأرض أنهارا ، وأمدهم بالأموال والبنين ،وكل ما تشهيه أنفسهم وتلذ له أجسامهم ، فكانت كل تلك النعم موجبة إلى طغيانهم بالباطل ، وداعية إلى مغاضب الله ومعاصيه ، والكفر به جل جلاله ، وهموا فى طغيانهم يعمهون ، فلم يزدادوا بتلك النعم المفاضلة عليهم إلا علوا فى الأرض بالباطل وغلوا فى ارتكاب المنكرات واستهزاء بكل داع إلى الله وهم يجهلون ما يراد بهم وأمثال هؤلاء كثير فأنك ترى الظالم الطاغي إذا رأي وفرة أمواله وشدة شكيمته ونفوذ كلمته فرح بما أوتي ونسى المنعم المتفضل عليه الآمر الناهي ، بل ونسى يوم القيامة حتى يتمني أهل الجهالة مكانة من اليسار والنعمة فلا يلبث إلا ريثما تباغته النقمة فيصبح كأن لم يكن له ذكر يذكر ويصير عبرة للمعتدين ، ولا أبد بك فإن دول أوروبا وأمريكا واليابان غرتهم مهلة الله لهم بما آتاهم من زينة وأموال وصناعات وفنون ، وقد ساعدهم على ذلك تثاقل المسلمين ونومتهم نومة الغفلة ورقدة الجهالة ، فعثوا أهل هذه الدول فى الأرض فسادا وأهلكوا عباد الله وسلبوا مرافق حياتهم واستعبدوهم فاستحقوا أن تجرى عليهم سنة الله فى خلقه الواضحة فى قوله تعالى **"حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ"**[1].

ومن قرأ هذه الآية الشريفة وغره ما فيه بنوا الأصفر من الزبرج والزينة فليبك على نفسه فإن جبار السموات والأرض لم يرض من نفسه الظلم فكيف يرضاه من غيره وهو الحكيم العدل ، وإنما هو استدراج وفتنة عظمي يمحص الله بها عباده المؤمنين ، **" لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ"**[2].

وقوله تعالى **"فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ"** فيه بيان أن المفتوح عليهم هو كل باب يلائم طباعهم ، فلا يفتح لهم أبواب الرحمة ولا الهداية ولا العناية ولا التوفيق ، ولكنها كانت أبواب وفرة الأموال وكثرة الأولاد ونفوذ الكلمة وغيرها مما يطغي النفوس ويغويها.

قوله تعالى **"حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا"** والفرح هو سكون النفس إلى محبوب لها ، أي فلما سكنت أنفسهم إلى ما أتاهم الله استدراجا لهم حتى نسوا يوم الحساب **"أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً"** أي فاجأناهم بالنقمة من غير إنذار لكثرة ما أنذروا وحذروا فلم يقبلوا عن الله ما جاءهم به رسله عليهم الصلاة والسلام فلم يبق إلا مفاجأة النقمة أعاذنا الله وأخوتنا المسلمين.

قوله تعالى **"فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ"** أي فإذا هم يائسون ف هم وغم وندامة وحزن ، وقد أبلس إبليس أي يأس وقنط فى هم وغم وندامة وحزن حسدا لآدم عليه السلام.

قوله تعالى : **"فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"**(45).

معني هذه الآية أن الله تعالى محا واستأصل هؤلاء القوم لقطعه دابرهم أي مؤخرهم ومتي قطع دابر القوم كان من باب أولي قطع مقدمهم ووسطهم لأنهم ظلموا عباد الله تعالى "والحمد لله رب العالمين" أي والشكر والثناء الحسن لله الذى نصر أنبياءه وأولياءه ، وأهل الإيمان به وأهلك أعداءه بقطع دابرهم ، ومكن لأهل الإيمان به فى الأرض كما مكن لأهل محبته فى الأرض من قبل . وفى قوله "والحمد" بيان لأن إهلاك الظلمة والكفرة ومحو المفسدين فى الأرض من أجل نعم الله على أهل الإيمان يجب عليهم أن يشكروا الله ويحمدوه ويثنون عليه بما أولاهم من نعمة النصر والظفر.

([1]) سورة يونس : 24.

([2]) سورة الأنفال : 42.

قوله تعالى : **"قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ"**(46).

أثبت الله تعالى عجائب قدرته بما بينه فى الآيات السابقة من قوله تعالى **"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ"** فكذبوا فأخذناهم بالمصائب الخاصة ، وفى هذه الآية أظهر إطلاق القدرة بقوله تعالى **"قُلْ أَرَأَيْتُمْ"** ، إلي أخر الآية والمعني : قل لهم يا خاتم الرسل يا من لا رسول بعد **"أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ"** بعدولكم عنه وتكذيبكم بآياته وبما جئتكم به "أن أخذ الله سمعكم" أي جعلكم صما لا تسمعون الحق أو تسمعونه فلا تقبلون أن تعملوا به عنادا وكفرا "وأبصاركم" فيجعلكم عميا لا تبصرون أبدا ، أو جعلكم تبصرون ولكن بغير أدراك ولا قبول ، "وختم على قلوبكم" أي سلب منها القابل للفكر فى آيات الله تعالى المنبلجة فى الأكوان وفى آياته التى أنزلها على رسله ، لأنه سبحانه بقدرته خلق لكم السمع والبصر والأفئدة وتفضل فأمدكم بها وجعلها وسيلة لتحصيل العلم به جل جلاله ، فتكون نعمة بها تنعون فى الدنيا ، ومنة من الله تعالى تنالون بها معرفته سبحانه قال جل جلاله : **"وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"**[1].

فإذا أنتم غفلتم عن نعم الله تعالى وكفرتم باستعمالها فى غير ما خلقت له وهو القادر الذى وهبها لكم بالفضل لتفوزوا بالسعادتين ، فإن القادر الذى أعطي قادر على أن يسلب السمع والبصر والقلوب إذا حل بالعادلين بالله تعالى المكذبين لرسولهε ما توعدهم الله به ، لديها تقهرهم الضرورة إلى الالتجاء إلى من أعطي بفضله فيلجئون إليه مستغيثين به جل جلاله ، لأن آلهتهم التى اتخذوها من دون الله وعبدوها واثقين أنها تنفع وتضر تنكشف لهم حقائقها التى هي عليها وهى العجز والذلك والخزى ، فيضطرون إلى الاستغاثة بالله ليكشف عنهم ما نزل بهم ، وهذا تهديد من الله تعالى ووعيد لأعدائه ، وهو الحق الصراح الذى لا ينكره كافر ولا لاحد ، وكم تحداهم الله بمثل هذه الآيات والعجز يخرس ألسنتهم مع ما هم عليه من الشحناء والبغضاء والعداوة لرسول اللهε .

وفى قوله "به" ، مع أن المؤخوذ منهم جمع يناسب أن يقول "بها" فتفريد الضمير هنا إشارة إلى ما أخذ منهم ، والمأخوذ منهم هو السمع والبصر والقلب فعاد الضمير عليه بالأفراد "انظر" يا محمد كيف نصرف الآيات أي تتوالى عليهم الآيات وتتجدد فى كل وقت فتظهر ظهورا يعجز العقول ويجذب القلوب **"ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ"** أي يعدلون فيتحولون وينقلبون ويعرضون عن الحق.

وفى هذه الآية دليل على أن الله وهب لهم السمع والبصر والقلب ليفوزوا بسمع آياته وبالنظر والعبرة فى موكناته ، وبالبحث والنظر بقلوبهم فيما أحاط بهم من بدائع إبداع صنعته جل جلاله ، ومن آثار رحمته وعجائب قدرته ، ومع ذلك لم يزدادوا إلا إعراضا ونأيا ، فقامت الحجة أن الله تعالى سجل عليهم الشقاء فى الدنيا والآخرة. قال تعالى : **"كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ"**[2] ولا حجة لهم يوم القيامة لأنه جل جلاله أعطاهم الألات القابلة وبين لهم محابة ومراضية على السنة رسله وحجب عنهم سر القدر ، فكان هو المنعم عليهم بالسمع والطاعة ، وما ارتكبوا ما ارتكبوه إلا عنادا وعلوا فى الأرض بغير الحق وتكذيبا لرسله صلوات الله وسلامه عليهم.

قوله تعالى : **"قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ"**(47).

([1]) سورة النحل : 78.

([2]) سورة المدثر : 31.

لما كان رسول اللهε خاتم الرسل فلا نبي بعده ، أكمل الله لنا به دينه فأنزل الآيات البينات التى قصمت ظهور أعدائه سبحانه فإنه جل جلاله كان ينزل على كل نبي بقدر أحداث زمانه ، وأنزل على محمدε بيان جميع الأحداث إلى يوم القيامة ، فلم تبق حجة لمنافق أو جاحد أو منكر ، ومعني هذه الآية **"قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ"** أمر من الله لرسولهε بأن يقول لهم أخبروني **"إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ"** أي سريع نقمه فى الدنيا قبل الآخرة **"بغتة"** أي فجأة من غير علم منكم ولا نظر إلى أسبابه ، كما نزل بمن عدلوا بالله تعالى الأوثان وكذبوا رسله وأنكروا آياته من قوم عاد وثمود وقوم موسى وغيرهم وما ذلك منكم ببعيد **"أَوْ جَهْرَةً"** أي بعد نظركم إلى أسبابه وظهور علاماته ، فإذا جاءكم هذا العذاب لوقوعكم فيما وقعتم فيه وتكذيبكم حبيبي محمداε هل يهلك ممن جاءهم العذاب إلا القوم الظالمون ، أي إلا الذين عدلوا بالله تعالى وكذبوا رسوله محمداε وظلموا أنفسهم بمخالفتهم الحق الذى لا ينكره إلا حسود معاند، فإنها المصيبة تعم ومع إنها تعم فإن أهل الإيمان من المسلمين الذين إذا عجل الله عقوبته بأهل الكفر به ينجيهم الله يوم القيامة وأن أصابهم من هذا العذاب ما أصاب الكفار إلا أنهم ينعمون يوم القيامة ، والله جل جلاله أكرم حبيبه محمداε فلم يقدر عذابا على أهل الكفر به رحمة بمن أسلموا وأنابوا إلى ربهم قال تعالى : **"وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ"**[1] وقد جعل الله عذاب أهل الكفر به انتقاما منهم لأهل الإيمان ، فكانت المصائب خاصة بأهل الكفر بالله ، ولا يزال ولن يزال أهل الإيمان بالله محفوظين من هذا العذاب الذى يستأصل أهل الكفر وأهل الإيمان معهم ، فلم نسمع فى التاريخ أن الله انتقم من أهل الكفر به فعمت النقمة أهل الإيمان أبدا كما كان يحصل فى الأمم السابقة ، فكم خسف الله الأرض بأقوام كذبوا رسلهم فعمت المصيبة المؤمن والكافر إلا أمة محمدε ، فإن الله شاء أن يجعل النقمة التى ينزلها على أعدائنا تكون بسيوفنا وبأن يجعلهم أرقاء تحت أيدينا ومن أهل ذمتنا ، أما ما نحن فه الآن من تسليط أعداء الله علينا فإنما ذلك لأنا خالفنا شريعة ربنا وتساهلنا فى الواجب علينا له سبحانه ، ولو أنا رجعنا إلى ما كان عليه سلفنا الصالح لمكن الله لنا فى الأرض كما مكن لهم وجعلنا أعزة على الكافرين أذلة على المؤمنين.

قوله تعالى : **"وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"**(48).

هذه الآية الشريفة تثبي لفؤاد رسول اللهε الذى كان يحزنه جدا عناد الكافرين وخبث المنافقين وكانε يحب أن يهدى الله بدعوته جميع الخلق ، ولكن الله جل جلاله هو الذي يهدى ، فبين فى هذه الآية أن الرسل عليهم أن يبشروا أهل الإيمان الذين يقبلون عنهم ما جاءوا به من عند الله ، وأن ينذروا أهل الجحود المكذبين لآيات الله تعالى ، وليس عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أن تكون دعوتهم جاذبة لقلوب الخلق فإن ذلك فعل الله تعالى وتقديره أزلا ، قال سبحانه **"مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا"**[2] وما على الرسل وعلى ورثتهم من بعدهم إلا هداية البيان وأن يدعوا الناس إلى الحق وليس عليهم أن يقبل الناس منهم ، فإن قبول الناس بهداية الله تعالى خلقه هداية الإحسان.

([1]) سورة الأنفال : 33.

([2]) سورة الكهف : 17.

فمعني الآية أن الله تعالى يخبرنا أن وظيفة الرسل عليهم السلام محصورة فى أن يبشروا من قبل وسمع وأطاع بما وعدهم الله به ، وبأن ينذروا أن يخوفوا من لم يقبل منهم وأبي وأنكر وبذلك فإنهم قاموا بما أوجبه الله عليهم.

قوله تعالى **"فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ"** معنى هذه الآية أن الله يخبرنا أن الذين أنذرهم الرسل إذا قبلوا وصدقوا الله ورسوله وأصلحوا قلوبهم وأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم كما أمر الله تعالى **"فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ"** أي أنهم لا خوف عليهم فى الدنيا ولا عند الموت ولا فى البرزخ ولا يوم القيامة **"وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"** فى تلك الواقف كلها ، أما فى الدنيا **"فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ"** لأن أهل الإيمان بالله فى حياتهم جملهم الله بجمال التوحيد الخالص فاسلموا إليه سبحانه وأنابوا إليه جل جلاله وتوكلوا عليه فى كل شئ وفوضوا إليه أمورهم فى كل شئ ، فطمأن قلوبهم فى حال الرخاء بتوفيقهم للذكر والشكر والطاعة، وفى حالة الشدة بشرح صدورهم للتضرع والابتهال والاستغاثة بالله والإلتجاء إليه ، فلا يخافون من دسيسة نفوسهم ولا من وسوسة شيطانهم ولا من تسليط عدو ظالم ولا هم يحزنون من شئ ولو انزوت عنهم الدنيا ، لأنه إذا أقبلت عليهم الدنيا أعانهم الله بها على طاعته ، وأن انزوت عنهم الدنيا كان انزواؤها فراغا لقلوبهم عن الاشتغال بها وعن العمل بغير ما يحب الله ويرضاه، كما قالε "اللهم أتنى مما أحب وأجعله معينا لى على ما تحب ، وما زويت عنى مما أحب أجعله فراغا لقلبي فيما تحب".

أما كونهم لا خوف عليهم ولا ه يحزنون عند الموت ، فإن المسلم عند الموت تصول عليه صولة الموت من لقاء الله والهم والحزن على أولاده وأقاربه فيشتغل عن الاستعداد للقاء الله ، فيرسل الله له ملكا يقول له "أي عبد الله ما أخافك" فيقول "ذنوبي" فيقول "أبشرك أن الله غفر لك ذنوبك وأعد لك النعيم" فيذهب خوفه ويبدل بأمن وطمأنينة ، ثم يقول له "ما يحزنك يا عبد الله" فيقول من ورائي من أولادي وأهلي وأقاربي" فيقول له "أبشرك أن الله أقام نفسه وكيلا عنك عليهم" فيزول حزنه ، وتتوالى عليه البشائر والمسرات والأفراح.

وأما فى البرزخ فإن الملكين إذا سألاه وجاء إبليس يوسوس إليه ليفته أيده الله وثبته وأنطق لسانه بالتوحيد الخالص وهى فاتحة البشرى فى الآخرة، وأما فى يوم القيامة حيث يكون المحشر والهول الأكبر فإن الله يتفضل على أهل الإيمان به بنجائب من النور تلقاهم عند قيامهم من القبور فتحملهم إلى الفردوس الأعلى وهى بشرى من الله يوم القيامة لأوليائه ، وتكون البشرى العظمي يوم لقاء الله تعالى حيث ينادي أولياءه فيزيدوهم بأن يمنحهم رضوانه الأكبر الذى لا سخط بعده وصدق الله العظيم ، وهذا معني قوله تعالى **"فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"** ومعني ما ورد فى موضع آخر **"لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ"**[1].

قوله تعالى : **"وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ"**(49).

تأويل هذه الآية الشريفة أن الذين كذبوا بآيات الله تعالى التى أنزلها على رسله ليبلغوها عباده يمسهم العذاب حتى يعلوهم فيعمهم ، ومس العذاب لهم لم يكن ظلما من الله تنزه وتعالى بل هو عدل لأنه جزاء وفاق ، كما قال الله تعالى **"يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ"** أي بما كانوا يكذبون ، وكل ما ورد فى القرآن من لفظ الفسق فهو الكذب والخروج عن الطاعة.

قوله تعالى : **"قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ"**(50).

([1]) سورة يونس : 64.

تأويل هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يقيم الحجة على المنكرين نبوة حبيبه محمدε ، ويعلمنا كمال التوحيد وحقيقة تنزيهه سبحانه وتعالى من أن يكون له شريك أو شبيه ، فيأمر حبيبه ورسوله محمدε **"قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ"**.

والمعني أنه يقولε لأعدائه أني لست آلها أملك خزائن كل شئ ، وأفعل ما أريد فأقدر على هدايتكم هداية الإحسان ، أو أعطي من أشاء وأمنع من أشاء فإن ذلك فعل الله الواحد الأحد : قوله تعالى : **"وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ"** أي لا أعلم الغيب المصون بذاتي لأن العالم بذاته هو الله تعالى ، وأنا أن علمت فإنما بتعليم الله تعالى وما كان لى أن أقول ما ليس لي به عليم **"وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ"** لأن الملك إذا ظهر للناس على صورته الحقيقة أصعقهم ولا يطيقون النظر إليه ،فإني أن قلت لكم ذلك كان من الواجب عليكم الإنكار على وترك قبول ما أدعوكم إليه **"إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ"** و "أن" بمعني ما النافية ، والمعني أني ما أتبع بدعوتي إياكم إلى الحق إلا ما أوحاه الله إلى ، والوحي معلوم وأنواعه عشرة : أربعة خاصة بالرسل عليهم الصلاة والسلام ، وستة عامة للرسل وغيرهم كالرؤيا الصالحة والفراسة والإلهام والإفتاء فى دين الله والفعل الحسن والأخذ بالمشورة.

قوله تعالى **"هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ"** هذه الآية الشريفة مثل ضربه الله تعالى للمنكرين نبوة حبيبهε "والعمي" هو فقد حاسة البصر التى تدرك الألوان والأشكال والأبعاد ، والأعمى هنا هو الكافر الذى لم يجعل الله تعالى له قابلا يقبل عن رسله عليهم السلام ولا عقلا يعقل به عن الله تعالى وهو هنا الكافر **"وَالْبَصِيرُ"**هو المؤمن الذى ينظر بعين الإيمان فيرى الحجة البالغة على كمال صدق رسول اللهε وأنه بعثه الله بالحق بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

قوله تعالى : **"وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ"**(51).

هذه الآية أمر من الله لنبيه محمداε أن يخوف بالقرآن من علموا حقيقة الإسلام ، فإن الخوف نتيجة العلم فقوله تعالى **"وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا"** أي يعلمون علم يقين قيام الساعة وما يقع فيها مما وعد الله به أوليائه وما توعد به أعداءه **"إِلَى رَبِّهِمْ"** أي إلى أمر الله وقضائه جل جلاله حيث يكون الملك هناك لله جل جلاله **"لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ"** أي ليس لأحد ممن يدعون لأنفسهم فى هذه الدار الدنيا أن لهم ملكا وسلطانا زورا وبهتانا وجهلا لأنهم لو رجعوا إلى عقولهم وعلموا نشأتهم الأولي لآمنوا بالله ورسله ، فثبت أن الذين ينذرون بالقرآن هم الذين هداهم الله فصدقوا وعلموا حقيقة ما أنزله على نبيه عليه الصلاة والسلام قوله **"وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ"** أي ليس لهم مندون الله ولي ينجيهم من هول يوم القيامة ويتولاهم بعنايته ورحمته ومغفرته ، ولا شفيع من دونه تعالى يتقرب إلى الله فيشفع لهم لرفع هول ذلك اليوم ، وهؤلاء هم أهل الإيمان الكامل الذين يقبلون إنذار الرسل عليهم السلام لهم **"لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ"** أي ليتقوا ما يغضب الله تعالى عليهم فيسارعون إلى محاب الله ومراضية جل جلاله.

وهذه الآية الشريفة ليست دليلا على أن الله ليس له أولياء ولا شفعاء يشفعون فى خلقه يوم القيامة لأن الله أثبت بالقرآن أن له أولياء ، وأنه يكرم أولياءه فينفع بهم ذريتهم ومن والاهم فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى **"وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ"**[1] وقال **"وَكَانَ**

([1]) سورة الطور : 21.

أَبُوهُمَا صَالِحًا"[1] وقال " **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا"**[2] إكراما لأمها التى كانت صالحة ، وقال سبحانه مخبرا عن فضله على أوليائه **"لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ"**[3].

قوله تعالى : **"وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ"**(52).

سبب نزول هذه الآية ما ورد عن الصحابة رضى الله عنهم ، منها ما رواه ابن حبان والحاكم عن سعد ابن وقاص أنه قال : لقد نزل قوله تعالى **"وَلَا تَطْرُدِ"** فى ستة أشخاص ، أنا وعبد الله بن مسعود وأربعة آخرون ، وكان ذلك بعد أن مر علينا بعض رجالات قريش فقالوا لرسول اللهε أتريد منا القعود مع هؤلاء ، أنا نستحي من ذلك فاطردهم نتبعك ، فوقع فى نفس النبي ما الله أعلم به ، فأنزل سبحانه قوله تعالى **"وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ"** إلى قوله جل شأنه **"أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ"**.

وروي أحمد والطبرانى ، وأبن أبي حاتم عن بن مسعود أنه قال مر ملأ من قريش على رسول اللهε ، وعنده خباب بن الارث وصهيب وبلال وعمار ، فقالوا يا محمد أرضيت بهؤلاء وهل من الله عليهم من بيننا ن لو طردتهم لاتبعناك ، فأنزل الله فيهم قرآنا من أول قوله تعالى **"وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ"** إلى قوله سبحانه **"وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ"**.

وأخرج بن جرير عن عكرمة انه قال : جاء عتبة بن ربيعة ، وأخيه شيبة ، ومطعم بن عدي ، والحرث بن نوفل فى جماعة من أشراف بني عبد مناف ، وتحدثوا إلى أبي طالب فقالوا : لو أن بن أخيك يطرد عنه هؤلاء العبيد لكان أعظم فى صدرونا ، وأرضي لنفوسنا ، وأدني لاتباعنا له دون حرج ، فكلم أبو طالب النبي فى ذلك ، فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو فعلت هذا حتى ننظر ما يريدون ، فأنزل الله قوله **"وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ"** إلى قوله تعالى **"أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ"** وكان عند رسول اللهε بلال وعمار بن ياسر ولسمان مولى أبي حذيفة ، وصالحا مولي أسيد ، وأبن مسعود ، والمقداد بن عبد الله ، وواقد بن الحنظلي وأشباههم ، فأقبل عمر بن الخطاب بعد نزول الآيتين فاعتذر عن مقالته السابقة ، فأنزل الله تعالى "وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا" إلى قوله سبحانه "ولتستبين سبيل المجرمين" وهناك رويات أخرى كثيرة تفيد جميعها أن المتكبرين من أهل الكفر قد طلبوا من النبيε، أن يخصص لهم مجلسا لا يقعد معهم فيه أحد من هؤلاء العبيد والموالي والفقراء والمساكين.

قوله تعالى **"وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ"** أي لا تبعد عن مجلسك أحد من المؤمنين الذين يذكرون الله **"بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ"** والغداة هى أول النهار ، والعشى هو آخره **"يُرِيدُونَ وَجْهَهُ"** أي يقصدون بدعائهم وعبادتهم وذكرهم لربهم ـ من بداية النهار إلى نهايته ـ رؤية أنوار وجهه سبحانه ، فتطمئن قلوبهم بذكره ، ويزداد إيمانهم بدوام عبادته.

قوله تعالى **"مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ"** أي ليس عليك حساب ولا عتاب فى شأن من أقبلوا عليك ، ولا تكن فى حرج بسبب من أدبروا عنك نفورا من عبادى الصالحون الذين يبتغون المزيد من فضل ربهم بالتفقه فى دينهم **"وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ"** أي لا وزر عليك فى من أدبر عنك من المتكبرين الذين تحرص على هداهم فيأبون القعود مع عبادي الصالحون ، فأمر هؤلاء وهؤلاء موكول إلى ربهم وخالقهم يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وأعلم أن

---

(1) سورة الكهف : 82.
(2) سورة آل عمران : 37.
(3) سورة الزمر : 34.

طرد الفقراء من المؤمنين الضعفاء ظلم وعدوان ، وكل من يطلب فهو من الظالمين الذين يظلمون أنفسهم جهلا ، قبل أن يظلمون غيرهم بغيا.

قوله تعالى : **"وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ"**(53).

فى هذه الآية ارتباط ظاهر بالآية قبلها ، فهى بمثابة بيان أسباب الحكم بظلم كل من يطالب بطرد المؤمنين بالله الذين أقبلوا على مجلس رسول الله يدعون ربهم بالغداة والعشى ، ولا يبغون بدعائهم سوي رضاه سبحانه.

قوله تعالى **"وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ"** بمعني كما أبتلينا السابقين وفتنا الأمم الماضية ، كذلك نفتن قومك يا محمد فنختبر غنيهم بفقيرهم ، والقوى منهم بالضعيف ، والحقير فيهم بالشريف ، والسيد الحر بالعبد الرقيق ، والعكس أيضا صحيح لكي يظهر لك دخائل نفوسهم وما كمن فى قلوبهم **"لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا"** فيظره لك مدى استكبارهم بغير الحق ، ومبلغ استهزائهم واحتقارهم للمؤمنين الصادقين ، وهم غافلون عن أن قولهم هذا فيه استنكار على الله وعجب منهم من أن يمن على هؤلاء من دونهم ، ومنهم الضعيف الفقير ، والعبد الحقير ، والعجمي الغريب ، فرد الله عليهم بحجة قاصمة لظهورهم فقال جل من قائل **"أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ"** أي أليس الله بأعلم بعباده ، يعلم كافرهم من شاكرهم ، وعظيمهم من حقيرهم ، فليست العظمة عند الله بكثرة المال والأولاد ، ولا بالقوة وبسطة الجسم ، ولا بالجاه والحسب والنسب الطيني ، وإنما العظمة عند الله بالإيمان والقلب الرحماني المجمل بحلل الصبر والرضا والشكر ، والله وحده هو المطلع على دخائل نفوس عباده ، ويعلم حقيقة الشاكر من الجحد ، والصابر من الجزع ، والراضي من الساخط ، فليس العظيم عند الله من كثر ماله وقوى بدنه وذاع صيته ، ولكن العظيم حقا هو من عمر بالإيمان قلبه ، وسكنت إلى الله نفسه ، ورضى فى السراء والضراء بقضاء ربه ، فشتان بين من كانت صفاته عوراض زائلة ، ومن كانت صفاته حقائق باقية ، وما قدرنا الفتنة والاختبار إلا ليميز الخبيث من الطيب فيعرف الرسول كيف يختار أصحابه.

وفى هاتين الآيتين أسرار كثيرة نذكر منها ما بطن من سر الغني فى صورة الفقير . سر الشرف فى صورة المهانة ، وخفى الحقارة والدناءة فى مظهر الانفة والكبرياء ، ووجود حقائق العزة في صورة المذلة ،والعكس صحيح أيضا، ولذلك أمر الله نبيهε أن يبقى فى مجلسه أغنياء الأخلاق العظيمة الفاضلة، ويعرض عن أغنياء الأموال الحقيرة الفانية.

وهناك سر آخر يرمز إليه قوله تعالى **"يُرِيدُونَ وَجْهَهُ"** فوجه الله تعالى غيب مصون وعلم مكنون ، لا تدركه الأفكار والعقول لأنه فوق إمكانيات البيان بالعبارات ، وأعلى من أن تومي إليه الإشارات . ولكنا نخاطب ذوق كل ذى قلب حفظه الله من أدران الحظوظ والأهواء موضحين أن من رحمة الله تعالى بنا أن خطابنا على قدر عقولنا ومدارك أفكارنا فأخبرنا بأنه سبحانه فى كل مكان بقوله **"وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ"**[1] وقال : أن له يدين **"خَلَقْتُ بِيَدَيَّ"**[2] ووصف نفسه بالسمع والبصر بقوله **"إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ"**[3] . وكما قال سبحانه **"وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ"**[4] وعلى هذا النسق

([1]) سورة الأنعام : 3.
(2) سورة ص : 75.
(3) سورة الحج : 75.
(4) سورة آل عمران : 28.

يقول سبحانه "يريدون وجهه" وهذا عند العارفين يسمي علم التشبيه والمثال الذى بينه الله بقوله تعالى **"وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى"**[1].

ولما كان الوجه هو اول ما يراه المخاطب ممن يخاطبه ، والطالب ممن يسع إليه ويطلبه ، فكذلك وجه الله هو أول مشهد يشهده طالبه الساعى إليه على صراطه المستقيم . فيشهد غيب البطون فى سر الظهور ، ويرى حقيقة الظاهر فى آيات المظاهر ، وذلك عندما يتحقق المريد من حقيقة الكائنات وما فيها من أنوار رب البريات ، بعد أن تفتت ذراتها أمام عيون قلبه ، وغاص فى معانيها بأنوار فكره ، فعرف حقيقتها الأولية ومادتها الأصلية قبل دخولها فى عالم التلوين ، وظهورها فى عالم التكوين . عند ذلك تشرق أمام عينيه أنوار ربه ، ويشهده ظاهرا أينما وجه وجهه سر قوله تعالى " **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ"**[2] أي نور الله جل جلاله كما هو واضح جلى بصريح قوله سبحانه **"اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"**[3] وهذا العلم لا يؤخذ من كتب وأوراق وغوص بين السطور . ولكن يؤخذ من أفواه رجال رزقهم الله نورا فى قلوبهم ، نسأل الله تعالى أن يظهرهم ويجمع أهل القابل والصدق عليهم . حتى تعود لنا أنوار سلفنا الصالح ومدهم . .

وتتضمن هذه الآية إشارة إلى سر "الفتنة" فى قوله تعالى **"وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ"** أي اختبرنا بعضهم ببعض ، وأظهرنا دخائل نفوس الطرفين ، لأن تزاوج الاضداد فى الوجود من سنن الله فى خلقه . فالأسود يظهر الأبيض ، والفوق يشير إلى التحت ، والعلو يبين السفل ، والحسنات تدل على السيئات ، وهكذا اختلاف درجات النفوس البشرية مثلها كمثل النار تظهر خالص الذهب من كل شائبة تشوبه ، فالنفوس الشريرة المتكبرة الكافرة تظهرها النفوس الخيرة المتواضعة المؤمنة ، والأشياء المادية الظاهرة تشير إلى الشؤون المعنوية الباطنة ، كما ترى من قطعتي الحجر بكثافتهما الظلمانية ، يبعثان بساطع النور إذا تلاقا فى صدمة قوية . كذلك فتن التصادم بين الناس فى كل زمان ومكان ، تبين أخلاق أهل السوء من أخلاق أهل الإحسان . نسأل الله أن يحفظنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن أنه هو الحفيظ القدير.

وتشير هذه الآية إلى صفة الشكر ومقام الشاكرين الذين وصفهم الله بالقلة عددا بقوله سبحانه **"وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ"**[4] وهو أعلم بهم لأنه جل قدره اصطفاهم وجملهم بصفة من صفاته لقوله تعالى **"إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ"**[5] والله يحب من خلقه من كان على خلقه . نسأله تعالى أن يغفر لنا ذنوبنا وأن يجعلنا من عباده الشاكرين.

قوله تعالى : **"وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"**(54) **"وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ"**(55).

بعد أن بين الله تعالى مقام المريدين لوجهه الكريم ، الطالبين لجنابه العظيم . ناسب أن يذكر صفات بضع عباده الذين يحب لهم أن يلحقوا بهم ويكونوا معهم فقال وهو أصدق القائلين **"وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا"** فقد روي بعض الصحابة أن نفرا من المؤمنين جاءوا رسول اللهε وقالوا لقد

---

(1) سورة النحل : 60.
(2) سورة البقرة : 115.
(3) سورة النور : 35.
(4) سورة سبأ : 13.
(5) سورة الشورة : 23.

فعلنا بعض الخطايا وأصبنا ذنوبا عظاما ، فلم يرد عليهم حتى أنزل الله قول تعالى **"وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا"** أي إذا حضر عندك قوم من أهل الإيمان الذين يصدقون بآياتنا وكتبنا ورسلنا **"فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ"** أي أمان ن الله لكم ، وعفو وغفران عن ذنوبكم فقد **"كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ"** أي تعهد على نفسه وكتب لكم الرحمة وغفر الذنوب والخطايا.

قوله تعالى **"أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ"** أي يا أيها المؤمنون بالله لا تقنطوا من رحمة الله ، أن من أرتكب منكم ذنوبا أو اقترف بعض السيئات وهو في حالة من الجهالة أو النسيان أو الغفلة **"ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ"** أي تدارك الأمر ورجع إلى الله نادما ذليلا منكسر القلب ، عازما على إلا يعود إلى ذنب أبدا فالله تعالى يقبل توبته ويغفر ذنوبه **"فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"** أي يغفر الذنوب ويستر العيوب ويرحم التائبين المستغفرين ، بل وقد يتفضل عليهم فيبدل سيئاتهم حسنات وهو على ذلك قدير.

قوله تعالى **"وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ"** أي وكذلك نفصل المجمل ونبين ما هو أكمل ، فنشرح الآيات ، ونوضح ما خفى من مبهمات ، ليدلكم رسولنا إلى ما فيه رضائنا فيعود إلى الصراط المستقيم كل المذنبين من أهل الإيمان الصادقين **"وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ"** أي لأجل أن يظهر طريق المجرمين المتكبرين الذين يرتكبون الكبائر عن عمد وهم عليها مصرين ، ومن طريق المؤمنين الصادقين الذى إذا وقعوا فى ذنب عادوا إلى الله تائبين نادمين.

وفى هاتين الآيتين بعض الإشارات نذكر منها نوع من الناس تتألم نفوسهم من المعاصي ، وتتأذى من فعل السيئات ، وتلوم صاحبها على ما وقع فيه من الخطايا والذنوب ، وهذه النفس اللوامة تدفع صاحبها إلى البحث عن النجاة لأنها نفس مؤهلة للخير ، فإذا سمعت عن منقذ أو مرشد أو رجل صالح أسرعت إليه تطلب منه الإرشاد إلى طريق الرشاد وهى التي أشار إليها القرآن فى الآية الأولي.

وهناك إشارة أخرى إلى رحمة الله الكبرى ونعمته العظمي سيدنا محمدε الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وجمله بصفتي الرأفة والرحمة بالمؤمنين ، وهو المشار إليه بقول الرحمن الرحيم "كتب ربكم على نفسه الرحمة".

وأخيرا إشارة ثالثة تشير إلى أن مهمة جميع الرسل والأنبياء ، وكل من نهج نهجهم من الوارثين الصالحين الأولياء هى بيان طريق أهل الهداية من المؤمنين ، وذكر صفاتهم وأخلاقهم الدالة على عقيدة قلوبهم . لكي يظهر طريق أهل الغواية من المجرمين ، الذين دلت أعمالهم وأحوالهم على خبث نفوسهم . ويتم اتضاح الفرق بين الطريقين ، ولهذا سميت كتب وصحف الرسل بالفرقان لأن جميعها تفرق بين عقيدة الكفر وعقيدة الإيمان ، نسأل الله النجاة فى الدنيا ويوم الدين.

قوله تعالى : **"قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ"**(56) **"قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ"**(57) **"قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ"**(58).

بعد أن بين الله تعالى فى الآيات السابقة ما يجب على الداعي إلى الله أن يعامل به المؤمنين الذين نور الله قلوبهم بقابل التلقي ، شرع فى هذه الآيات الثلاث يبين ما يجب فى معاملة المشركين الكافرين فقال تعالى أمرا حبيبه ومصطفاهε **"قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ"** أي قل للمشركين الذين يشركون بالله آلهة مخلوقة مثلهم ، أن ربي نهاني عن إتباعكم فى عبادة أصنامكم التى صنعتموها بأيديكم ، أو التي عبدتموها من دونه وهى من مخلوقاته جل وعلا.

قوله تعالى **"قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ"** أي وأمرني أن أخبركم أني لا أتبع أهواءكم وحظوظ أنفسكم التى تسول لكم عبادة مالا ينفعكم ولا يضركم **"قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ"** إذا اتبعتكم واقتديت بكم ، لأن من اقتدي بأهل الحظوظ والأهواء بعد أن جاءته بينة من مولاه يكون قد ضل طريقه وخسر نفسه وتاه عن الطريق المستقيم.

قوله تعالى **"قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي"** أي قل لهم أني هداني ربي وجعلني على بينة من أمرى وهو الحق والواضح والبيان الساطع الذى لامراء فيه **"وَكَذَّبْتُمْ بِهِ"** فكيف العمل معكم بعد أن كذبتم بالله ربكم وخالقكم وأنكرتم نور الحق المشرق واتبعتم ظلام الباطل المهلك.

قوله تعالى **"مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ"** سبب نزول هذه الآية الشريفة أن كبار المشركين وغلاة الكافرين كانوا إذا سمعوا آية من آيات الإنذار بالعذاب ، يبادرون إلى القول لرسول الله يا محمد أئتنا به عاجلا أن كنت صادقا حقا فكان الرد عليهم بما أخبرنا الله به من قوله **"إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ"** أي ليس بيدي إمكانية إنزال العذاب ، ولا هو بأمري وتحت حكمي وسلطاني ، وإنما الحكم والسلطان لله وحده لا شريك له **"يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ"** ولهذه الآية معنيين ، المعني الأول أن يقص الحق أي يقول الحق، والمعني الثاني أن حكم القصاص منهم نظير ظلمهم وكفرهم بيد الله وحده.

ويقال أن لهذه الآية قراءة أخرى "يقضى الحق وهو خير الفاصلين" وكلا القراءتين بمعني أن الله تعالى يقول الحق وينفذ الحق ويقضى الحق وهو سبحانه الذى يفصل فى كل أمر خيل فصل ويحكم خير حكم لأنه هو أعلم بخلقه وكل ما عداه مخلوقون لا يعلمون شيئا إلا ما علمهم الله وأمرهم به سبحانه.

قوله تعالى **"قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ"** أي قل لهؤلاء الذين يستعجلون العذاب لو كان فى يدي عذابكم الذي تطلبون سرعته وعجلته **"لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ"** أي لقضيت لكم ما تستعجلونه واسترحت من الحاحكم فى طلبه ، ولكن العذاب بيد الله والأمر موكول إليه وليس لي من الأمر شئ.

قوله تعالى **"وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ"** أي وهو العليم بأهل الشرك والظلم الذين يستحقون العذاب ، وهو الأعلم بمتى يحل بهم ، وبالوقت الذى فيه يعاقبهم ، فالله يمهل ولا يهمل.

وفى هذه الآيات القرآنية كثير من الإشارات الذوقية التى يجب على كل داع إلى الله تعالى أن يتحلى بها قدر الاستطاعة ، ونذكر منها:

1- أمر الله حبيبه ومصطفاه بتبليغ رسالة توحيد الله وعبادته دون سواه فى صيغة نهي لهε وليس للمشركين فقال تعالى **"قُلْ إِنِّي نُهِيتُ"** الآية لوم يقل "أني نهيتكم" وذلك ليكون النهي أوقع في قلوبهم ، وأبعد غورا فى نفوسهم ، وأقوي أثرا فى جذبهم إلى الحق دون أدني مساس بكبريائهم.

2- وفى قوله جل شأنه **"قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ"** نهي ثان يثبت به الله تعالى حرص رسول الله على هداية المشركين إلى الحق ، وذلك ببيان أن ما يعبدون من دون الله باطل جاءت به أهواءهم وشهوات أنفسهم ، ومصالحهم الدنيوية الزائلة ، وأن ما جاءهم به هو الحق لأنه من عند الحق سبحانه وتعالى.

3- وقوله سبحانه خبرا عن رسولهε **"قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ"** فيه بيان من رسول الله للمشركين يوضح فيه أسباب عدم إتباعه لهم فيما يعبدونه ن وإعلام لهم بأن الإنسان إذا ترك وشأنه بغير دستور سماوي وأمر الهي يهديه طريق السعادة فى الدنيا والنجاة في الآخرة ضل ضلالا مبينا وخسر خسرانا عظيما وأهلك نفسه وأهلك غيره معه.

4- قوله الله تعالى لنبيه **"قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي"** فيه وضع النقيضين معا لكي يسهل الحكم على أيهما أحق بالاتباع ، فبين أن ما هم عليه جاء من وحي أهواءهم وشهوات أنفسهم ومصالحهم المتناقضة ، وأن ما جاءهم به ليس من عنده وإنما هو من ربه وربهم سبحانه وتعالى وهو الحق الذى يجب أن يتبع ، وهذه أحسن الطرق فى الدعوة إلى أي قضية وهو أسلوب فى منتهى الحكمة والموعظة الحسنة.

5- وقوله **"وَكَذَّبْتُمْ بِهِ"** فيه إشارة إلى سماحة رسول اللهε وحلمه ، حيث لم يغضب ولم يثور لتكذيبهم له ولم يدع عليهم بالعذاب والهلاك كما فعل الرسل السابقين وإنما فوض الأمر إلى الله فى تسليم كلي وخضوع نهائي وقال بقول الحق سبحانه **"إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ"** وهذا هو الأسلوب الأمثل الذى يجب على الدعاة أن ينتهجوه فى دعوتهم إلى الله تعالى خاضعين لقوله سبحانه **"ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ"**[1] : نسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعا لما يحب ويرضى.

قوله تعالى : **"وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ"**(59).

بعد أن بين الله تعالى فى الآيات السابقة كيف أمر رسولهε بتبليغ قومه رسالة التوحيد ، ودعوتهم إلى عبادة الله دون سواه فى صيغة حكيمة تنطوي على أداب عليه وأخلاق محمدية لا تخدش لهم كبرياء ، ولا تثير فيهم نعرة الجاهلية ، وجملة بالرأفة بهم عندما يكذبوه ، ويحلم عليهم كلما آذوه . ناسب أن ينزل عليه هذه الآية التى تشير كلماتها إلى النصر القريب الكامن طي الغيب العجيب ، حتى يزداد المسلمون إيمانا على إيمانهم ، وحماسا كاملا لدينهم.

قوله تعالى : **"وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ"** أي وعند الله مفاتيح كل الشؤون المعنوية المقفلة ، ومفاتيح كافة الأشياء المادية المغلقة **"لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ"** أي لا يحيط بحقيقتها ويعلم سرها إلا هو الفتاح العليم الذى يفتح بما يشاء على من يشاء من عباده سر ما أخبرنا به الله من حديث بعض خلقه الذين **"قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ"**[2] وقوله سبحانه **"فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ"**[3] وكذلك يأتي الفتح بمعني النصر كما هو واضح من قول الله تعالى **"الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ"**[4] كما يأتي الفتح أيضا بمعني الحكم لقوله وهو أصدق القائلين **"قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ"**[5].

قوله تعالى : **"وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ"** أي وعلمه محيط بكل ذرة فى الوجود سواء كانت فى تراب الأرض وصخور الجبال أو جذوع الأشجار أو بذور النبات أو مياه البحار والأنهار أو حيوانات

([1]) سورة النحل : 125.
([2]) سورة البقرة : 76.
(3) سورة الأنعام : 44.
(4) سورة النساء : 141.
(5) سورة سبأ : 26.

البحر أو غير ذلك من معادنهما وكائناتهما **"وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا"** أي وما تجف ورقة من نبات أو شجرة إلا وعلمه محيط بوقت سقوطها لأنها فى سابق علمه من قبل أن تنبت على ساقها.

قوله تعالى : **"وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ"** أي ولا عنصر من عناصر المعادن ولا ذرة من ذرات النبات ولا برعم من براعم العشب والكلأ فى باطن الأرض **"وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ"** من قبل أن يخلق الله الأرض ومن عليها ثابت فى علم الله الأزلي السرمدي الأبدي . ولا نخلى هذا المقام من بيان بعض ما تشير إليه هذه الآية من أسرار فنقول أن الغيب هو ما غاب عن مدارك الناس وهو ينقسم إلى نوعين . الأول يتعلق بما يغيب عن علم الإنسان من خواص ماديات الأكوان ومنافعها وكيفية إخضاعها لخدمته فى حياته الدنيوية وهذا الغيب قد يكشفه الله للمؤمن وللكافر وينتفع به البار والفاجر . والثاني هو الغيب الإلهي المعني المتعلق برحمة الله وفضله الموصل إلى نيل الرضى فى الدنيا والفوز بالفلاح العظيم فى الآخرة ، وهذا الغيب لا يكشفه الله تعالى إلا لمن سبقت لهم من الله الحسنى وهم الأنبياء والمرسلون ،والصديقون والأولياء والصالحون ، الذين يرثون رسالة خاتم النبيين سر قول رب العالمين **"عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ"**[1] لأن جميع هؤلاء هم مفاتيح العطايا الآلهية والآيادي الربانية ، يهدى بهم الله من يشاء ويقيم بهم الحجة على من يشاء ، ولهذا وصف سيدنا على كرم الله وجهه رسول اللهε "بأنه الفاتح لم أغلق والخاتم لما سبق" وقال رسول اللهε "أن لله خزائن وللخزائن مفاتيح فطوبي لمن جعله الله مفتاحا للخير مغلاقا للشر" إلى آخر الحديث . نسأل الله أن لا يخلى الأمة المحمدية من رجل تفتح على يديهم علوم الغيب المصون وغرائبه ويكونوا مفاتيح للخير وخزائنه أنه قريب مجيب.

قوله تعالى : **"وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"**(60).

أي وهو الله الذى يميتكم الموتة الصغرى التى هى النوم ،فيقبض طاقة الحس والحركة والفكر والإدراك حتى يغلبكم سلطان النوم بالليل ، وخص الليل بالذكر لأنه الوقت الذى تنام فيه الأكثرية الكبرى من المخلوقات.

قوله تعالى : **"وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ"** أي وعلم كل صغيرة وكبيرة من أفعالكم التى قمتم بها بواسطة جوارحكم أثناء يقظتكم بالنهار سواء كانت هذه الأعمال خيرا أم شرا ، وقد خص النهار باليقظة والتكسب لأن الكثرة الغالبة من المخلوقات تعمل فيه فالعمل ، بالليل استثناء والعمل بالنهار هو الأصل وقوله **"ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ"** أي يرد عليكم طاقة اليقظة والحس والحركة خلال النهار **"لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى"** أي ليستوفي كل مخلوق أجله الذى قدره الله له فى الحياة ، ويتكسب منها ما قضاه الله عليه أزلا ، **"ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ"** أي وبعد أن يتم كل مخلوق أجله المعلوم ، ويأتي يوم المحتوم فى طي الغيب المصون ، وفق الإرادة الآلهية ودخوله فى الحياة الرزخية ترجعون فى النهاية إلى ربكم ليحاسب كل فرد منكم بما كسبت يداه.

قوله تعالى **"ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"** أي بعد قضاء الحياة الرزخية يعيدكم إليه ويبعثكم يوم القيامة للحساب ، فيخبركم بكل ما عملتم ، ويجازيكم على كل صغيرة وكبيرة ، أما بالثواب أن كانت خيرا ، وأما بالعقاب أن كانت شرا ، نسأل الله تعالى أن يعاملنا برحمته ولا يعاملنا بعدله ، حتى ننال حسن الثواب والنجاة من العقاب.

([1]) سورة الجن آية : 26 – 27.

قوله تعالى : **"وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ"**(61).

هذه الآية فيما إشارة ذوقية تبين ارتباطها بالآية السابقة ارتباطا محسوسا ملموسا يشهده بعين العيان كل إنسان منحه الله فؤادا زكيا وبصيرة نافذة فيرى مدى القهر الآلهى الواقع على جميع الخلق ، والمتجلي فى ظاهرة الموت المؤقت والمسمي بالنوم ، والمحتم حدوثه كل أربع وعشرين ساعة ليكون واعظا ونذيرا . . لكل من كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد بأن الموتة الصغرى نذير بالموتة الكبرى فيعمل لها قبل أن يأتي وقتها.

قوله تعالى : **"وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً"** أي يخصص سبحانه لكل عبد من عباده ملائكة يحفظونه فى منامه ، وفى أثناء سعيه على معاشه ،ويكتبون أعماله ، ويحصون عليه سكناته وحركاته . ويسجلون حسناته وسيئاته.

قول تعالى : **"حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا"** أي وعند الموت فى نهاية العمر يجد ملائكة الله الموكلون بقبض الأرواح حاضرون **"وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ"** أي لا يهملون فى أداء واجبهم ولا يقصرون فى طاعة ربهم، ولا يعصون الله فيما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون دون تأخير أو مجاملة.

قوله تعالى : **"ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ"**(62).

بعد أن أثبت الله تعالى فى الآيات السابقة أن عنده مفاتيح الغيب ، وأن كل ما فى البر والبحر من رطب ويابس سواء كان ثابتا أو متحركا فهو محاط بعلمه السابق ،وأنه جل جلاله هو القاهر فوق كل ما سواه ، لأن كل ما سواه من خلقه ، وكل مخلوق عبد لخالقه . ناسب أن يبين سبحانه النهاية الحتمية لكافة مخلوقاته فقال تعالى : **"ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ"** بعد تمام تطورات خلقهم ووفاتهم فى نهاية آجالهم ، ومكثهم فى برزخهم إلى ما شاء الله ربهم ، سوف يبعثون من قبورهم ويردون إلى الله خالقهم.

وقوله تعالى : **"مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ"** فيه تنبيه لأمر بديهي مؤكد ، وهو أن كل مولى سوى الله تعالى باطل لا شك فى بطلانه ، لأن المولي الحق هو الذى يرد إليه الخلق فى النهاية.

وقوله تعالى : **"أَلَا لَهُ الْحُكْمُ"** فيه إيقاظ للغافلين ، وزجر للظالمين ، وبشرى للضعفاء والمساكين ، بأن الحكم لله رب العالمين **"وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ"** الذى يحاسب عباده يوم الدين ، حسابا سريعا لا مثيل لسرعته ، لأنه حساب يليق بقدرته ، ولهذا عجزت كل الخلائق عن وصفه.

وتشير هذه الآية إلى حتمية الرجوع فى النهاية إلى الله الولي الحق ، بعد محو الخيالات والأوهام التى تجعل فلانا مولى فلان . وعلانا أنفع من علان . حتى بلغ الأمر بأن بعض الشعوب والدول كانت تتوهم ولاية دول أخرى لأنها أقوى منها وأكبر ، فلما جد الجد لم تجد لها مولى سوى الله تعالى.

وتشير كذلك إلى سر الحساب ومدى سرعته ، وتثبت عجز الخلائق عن وصفه كيفيته ، لأنه سر من أسرار العلوم الربانية ، التى تتعلق بالقدرة الآلهية ، ومعلوم أن كل أمر يتعلق بالله الحق ، فهو أعلى من أن تدركه عقول الخلق ،وعلم الله قديم أزلي ، وقائم سرمدى ، ودائم أبدي ، فلا يحيط به أحد إلا بقدر ما يشاء الله تعالي.

قوله تعالى : **"قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ"**(63) .

أي قل أيها الرسول لقومك وللناس أجمعين ، فى كل زمان وفى كل مكان وإلى يوم الدين ، **"مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ"** أي رياح البر وعواصفه ، وغضب البحر وهياج أمواجه . وينقذكم من

الهلاك المحيط بكم فى حلكم وترحالكم **"تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً"** أي تتوجهون إليه بالدعاء جهرا وسرا قولا وحالا ، حين يدهمكم أمر فوق طاقتكم أثناء سفركم فى البر أو البحر ن تتضرعون إليه مبتهلين وتناجونه متبتلين **"لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ"** أي حال تضرعكم لله جهرا ، وتبتلكم له خفية ، تقولن اللهم ربنا نجنا من هذه الأهوال التى دهمتنا ، حتى نكون لك شاكرين ، ونعبدك ذاكرين ومقدسين.

وفى هذه الآية إشارة على أن الله سبحانه لا يترك أحد من عباده إلا وأقام عليه الحجة وأظهر له البرهان على أنه جل شأنه أله واحد لا شريك له فى ملكه ، فيرسل أولا رسله مبشرين ومنذرين فمن كان عنده القابل وصفاء النفس صدقهم وآمن بما جاءوا به وسارع إلى طاعة ربه وعمل بما أمر وانتهي عما نهي ، وأما من كان مظلم القلب من كثافة حجاب الغفلة وأستغرقه فى لهوه وغروره فيكذبهم ويبعد عنهم ولا يعلم بما جاءوا به ، فيقدر الله له شئ من البلاء والمرض والكرب فى المال والولد ، وذلك لكي يزول الحجاب وتكشف الغفلة ويذهب الغرور ، فيرى الحق ظاهرا جليا ن ويعرف الله ربا حكيما قادرا وليا ، ويرى بعين اليقين كل الموجودات هالكة إلا بقاء لها ، فيدعو ربه دعاء ظاهرا وخفيا ، واني أرى أن هذه هى حجة الله على أكثر الناس الذين لم تصلهم دعوة الرسل ، وأن قال معظم العلماء بأن أهل الفترة ناجون واستدلوا بقول الله تعالى **"وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا"**[1] فأقول لهم بلسان علم الإشارة أن البلاء الذى يجرد الإنسان من غفلته وغروره ويعرفه قدر نفسه ويلهمه رشده هو بالنسبة له خير رسول والدليل قائم فى قوله الله تعالى **"اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ"**[2] فالملك يوحى إلى المبتلي بالمرض أو المصيبة أو الكرب العظيم أو ضيق الصدر الأليم بالدعاء إلى الله العلى الكريم فيفرج الله كربه عبده وبهذا الفرج والنجاة يدخل العبد فى زمرة الشاكرين بعد أن يأس منه جميع المرشدين والوعاظ من العلماء العاملين ، ولكن الله تعالى ابتلاه ثم كلمه سبحانه وهداه سر قوله جل علاه **"وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ"**[3] فالله تعالى يقيم الحجة على جميع الأنام بإرسال الرسل وبالإلهام لقوله تعالى **"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا"**[4] ونكتفي بهذا القدر فى هذا المقام.

قوله تعالى : **"قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ"**(64).

فى هذه الآية أمر من الله تعالى لرسولهε بأن يقول للناس كافة أن الله هو الذى ينجيكم من أهوال البر والبحر كما ينجيكم من كل مرض أو ابتلاء فى المال والولد ومن كل هم وغم وكرب ثم أنتم بعد النجاة والسلامة تشركون بالله فتقولون لولا كذا وكيت ما نجونا ، والفضل فى نجاتنا يعود إلي فلان وعلان ، وهذه هى عادة أكثر الناس بعد نجاتهم من الأهوال التى أحاطت بهم ، والقلة القليلة هى التى تذكر فضل الله رب العالمين ، وتدخل فى زمرة الشاكرين وصدق الله فى قوله وهم الحليم الغفور **"وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ"**[5]

قوله تعالى : **"قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ"**(65).

([1]) سورة الإسراء : 15.
([2]) سورة الحج : 75.
(3) سورة الشورى : 51.
(4) سورة الشمس : 7 – 8.
([5]) سورة سبأ : 13.

بعد أن أمر الله تعالى رسولهε فى الآيتين السابقتين أن يخبر الناس كافة بقدرته سبحانه على أن ينجيهم من ظلمات البر والبحر ، ويكشف عنهم سوء ما يصيبهم من كرب وهم وغم . ناسب أن يخبرهم أيضا بقدرة الله تعالى على أن يضرهم بما كسبت أيديهم ،وذلك تهديدا لهم وأعلانا بأن الله تعالى هو الضار وهو النافع ، ولا ضار ولا نافع سواه فى حقيقة الأمر.

قوله تعالى **"قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ"** أي أن الله قادر على أن يرسل عليكم عذابا من فوقكم مثل الصواعق وقطع البرد الضخمة ، وسيول المطر المنهمر ، أو من تحت أرجلكم مثل الزلازل المدمرة ، وانشقاق الأرض وخسفها ، أو من مصائب تصيب أبدانكم واهليكم كالمرض بأنواعه العديدة ، وذلك ليكون العذاب رسولا إليكم بدلا من رحمة الله العظمي ونعمته الكبرى سيدنا محمدε ، فيذكركم بقدرة الله عليكم ، ويجعلكم تلجأون إليه سبحانه ، لأن من الناس من تصلحه الرحمة والعناية ، ومنهم من يصلحه العذاب والبلايا . ومنهم من لا يستجيب للكرامة ، ولا تردعه الإهانة ، فتقام عليه الحجة البالغة.

قوله تعالى **"أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ"** واللبس هو اختلاط الأمر وعدم وضوح الحق من الباطل فيختلط بكم من ليس منكم فيفرق جمعكم ويشتت شملكم فتكونوا فرقا متنافرة وأحزابا متقاتلة تعلو سيوفكم رقاب بعضكم "ويزيق بعضكم بأس بعض" وهذا ما نراه بعيون رؤوسنا واضحا جليا فى عصرنا والعصور من قبلنا ، فقد استعمل عدونا نفر منا فى إذيتنا فأوقعنا فى شديد الحرج من أن نشتغل بقتال بعضنا ونترك عدونا ينظر إلينا مسرورا بما يصيبنا بأيدينا.

قوله تعالى : **"انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ"** أي فكر بعقلك ، وتأمل ببصيرتك كيف نعيد الآيات ونكررها فى كل زمان ومكان بين جميع الأجيال المتعاقبة لعل الناس يفقهون صروف الدهور ويفهمون مضمون حوادث العصور ، ويدركون حقائق الأمور ، فينتفعون بالصالح منها ويتجنبون مضارها بالتوبة إلى الله والرجوع إليه مسارعين إلى طاعته عازمين على ترك معصيته.

روى بن حاتم عن زيد بن أسلم قال رسول الله بعد نزول هذه الآية "لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف" فتساءل بعض الناس مستنكرين "أيحدث هذا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وإنك رسول الله" وقال آخرون "لا يكون هذا ونحن مسلمون" فنزل قول الله تعالى "وكذب به قومك" إلى قوله سبحانه "وسوف تعلمون".

قوله تعالى : **"وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ"**(66) **"لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ"**(67).

قوله تعالى **"وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ"** يمكن أن يكون المقصود به أهل مكة وغيرهم مكة وغيرهم من المكذبين الذين أنكروا على النبي محمد رسالته وكذبوا نبوته وقرآنه مع أنه هو الحق والصدق ، كما يمكن أن ينطبق أيضا على من استبعدوا وقوع القتال بين المسلمين وهم يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وبينهم كتاب الله يستشهد كل فريق بآياته ، ويدعى أنه يقاتل أخاه بأمر القرآن وبيناته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قوله تعالى **"قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ"** أن كان المقصود بالآية الكافرين المكذبين فيكون معناها قل لهم ما أنا إلا عبد مثلكم ولست أملك قوة الوكالة عليكم ، ولا حول ولا سلطان لى على قهركم على الإيمان بي ، وأن كانت هذه الآية وأمثالها قد نسخت بآيات القتال ،إما إذا كان المقصود بها المسلمون الذين لم يتصوروا وقوع الحرب والقتال بين من يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فيكون المعني قل لهم عندما يحدث ذلك الأمر الخطير لن أكون بينكم ، ولا وكالة لي عليكم إلا بمدي قوة

الإيمان فى قلوبكم ، لأن قوة الإيمان وحدها ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله بحقها ، يمنعان المؤمن من رفع سيفه فى وجه أخيه المؤمن.

قوله تعالى **"لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ"** أي لكل خبر وقت يتحقق فيه صدقه ، ولكل نبوءة من أنباء القرآن زمن تستقر فيه ظاهرة جلية ، لأنها خبر من صادق أمين عن رب عالم بالغيب والشهادة ، وقد أمر رسول اللهε بتبليغه للمؤمنين فى زمنه وكل زمان ومكان بعده ، ولما كان الرسول لا ينطق عن الهوى وأن هو إلا وحى يوحى إليه ، فقد وقع القتال بين المؤمنين الصادقين ، وأهل الردة الذين منعوا الزكاة ، كما وقع القتال بين أهل الإيمان والمسلمين الذين خلت قلوبهم من نوره فى زمن معاوية وأنصاره الذين غرتهم الحياة الدنيا ، وها هي الأنباء تستقر ظاهرة فى أيامنا حيث نري بعض المسلمين يقاتلون فى جانب نبي الأصفر إخوانهم المسلمين الأتراك[1] ، وقد تحققت النبوءة ورأينا بأسنا بيننا أشد من بأس أعدائنا وأعداء ديننا.

قوله تعالى **"وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ"** أي وسوف تأتي أزمان تعلمون فيها صدق هذا النبأ وصحة هذه الآيات ، وترونها تتحقق عيانا بيانا ، وها نحن قد علمناه بأسماعنا ، ورأيناه بعيون رؤوسنا وفقهناه بقلوبنا بعد أربعة عشر قرنا من الزمان ، وسيحدث فى الأزمنة القادمة ما هو أشد هولا مما نراه اليوم ، لأن كلمة "سوف" تفيد التسويف لأزمنة بعيدة أخري ، نسأل الله تعالى أن يتدارك أمة الإسلام بلطفه ورحمته ، وأن يظهر أهل الإيمان فوق جميع خلقه . حتى تتوحد قلوبهم ويجتمع شملهم فيعود لهم مجد أسلافهم أنه سبحانه نعم الموافق لأقوام طريق.

قوله تعالى : **"وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"**(68).

قوله تعالى : **"وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"**(68).

بعد أن بين الله لنا أسرار قدرة وصدق آياته ، وحدوث ما أنبأنا به سبحانه على لسان رسوله ، ناسب أن يبين لنا أيضا كيف نخرج من هذا البلاء، ونرفع عنا ما وقعنا فيه بجهلنا من بؤس وعناء ، وكيف نصلح ما فسد من أمورنا ونعود إلى مجد أسلافنا ، فقال تعالى **"وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا"** وأن كان الحديث فى ظاهره موجها إلى رسول اللهε إلا أن المقصود به أمته فى كل زمان ومكان ، وتأويله أن على المؤمن إذا صادف مجلسا لقوم من الجهلاء ، يستهزؤن بالدين وأهله ، ولا تخرج أحاديثهم فى مجالسهم عن ذمهم والحط من شأنهم ، فعليه أن يتجنبهم ولا يقعد معهم إذا لم يأنس فى نفسه القدرة على تغير أحاديثهم وهدايتهم إلى الحق بقوة بيانه لآيات الله وبياناته التى يجهلونها.

قوله تعالى **"فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ"** أي أعرض عن مجلسهم حتى يعودوا إلى حديث يفيد ويصلح ، ويبعد عما يضر ويفسد وقوله تعالى **"وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ"** فيه إثبات لحقيقة أن الحديث الموجه إلى الرسول ، مقصود به القوم المرسل إليهم هذا الرسول ، وبهذا يكون تأويل هذه الآية أن على المؤمن الذى ينسيه الشيطان فيقعد مع أهل الجهالة الظالمين لأنفسهم وللمؤمنين الذين يخوضون فى حقهم **"فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"** فى طي هذه الآية معنيين.

([1]) يشير رضى الله عنه إلى غدر "الحسين" أمير الحجاز بإخوانه الأتراك المسلمين وتعاونه مع الإنجليز.

المعني الأول يقول : إذا وقع منك إيها المؤمن نسيان بسبب الشيطان فجالستهم فاترك مجلسهم بمجرد تذكرك أن هذا ليس مجلسك ولا مكانك.

والمعني الثاني يقول : إذا وقع منك أيها العالم العامل الوارث لعلوم سيد المرسلين وخاتم النبيين نسيان فجالستهم بغرض وعظهم وإرشادهم وتذكيرهم بآيات الله فلا تجالسهم ولا تقعد معهم بعد القيام بواجب الذكرى خصوصا إذا لم تجد منهم قبول لكلامك وظلوا على عنادهم وظلمهم ، فالإنذار لا يفيد أهل العناد ، والذكرى لا تنفع للظالمين. .

قوله تعالى : **"وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ"**(69).

فى هذه الآية ترجيح للمعني الثاني الذى أوردناه سابقا ، فقد روى أن بعض المسلمين قالوا للبنيε ليس لنا من مجالسهم مفر لأننا إذا قمنا من كل مجلس لهم لا نستطيع أن نجلس فى مكان وحدنا ، لأنهم فى المسجد وفى البيت الحرام ، وكثيرا ما يقتحمون علينا مجالسنا عامدين متعمدين ، فأنزل الله قوله تعالى **"وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ"** أي ليس على المسلمين فى حالة الضرورة من وزر ولا ذنب إذا جالسوهم ، ولكن بشرط أن يتقوا الانسياق معهم فى أحاديثهم الضارة ، ويحذروا مجاراتهم فى الخوض فى آيات الله والاستهزاء بعباد الله بحكم العادة أو المجاملة.

قوله تعالى **"وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ"** أي ولا بأس على أهل العلم من المؤمنين إذا جالسوهم أن يحاولوا نهيهم عن الخوض فيما يجهلون بتذكيرهم بآيات الله المنبئة بقدرته عليهم وأنه سبحانه يمهل ولا يهمل لعل هؤلاء الجاهلون يخشون الله تعالى ويرجعون عن غيهم ولغوهم فى قول المنكر والاستهزاء بعباد الله تعالى ، ويتقون الله تقاة تهديهم سبيل الرشاد ، فينال المؤمنون ثواب هدايتهم إذا قدر لهم الهداية . وفى هذه الآية والآيتين السابقتين بعض الحقائق والمعاني التى نذكر بعضها فيما يأتي.

الحقيقة الأولي : أن النفوس البشرية جبلت بطبيعتها على التأثر بمن يواجهها سواء كان محبوبا لديها أو مبغوضا منها ، فإذا جالس المسلم مشركا أو كافرا او جاهلا أو نماما أو مغتابا أو هازئ بعاد الله ارتسمت صورته على جوهر نفسه وشغل بقوله وأنس إليه قلبه فغلبه على أمره لأن الشيطان يساعد أهل الشر ويزين لهم أعمالهم ، ولهذا حذر الله المسلمين من مجالسة المفسدين بقوله تعالى **"وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ"**[1].

والحقيقة الثانية : أن الشيطان ليس له على النبي أقل سلطان ، وبالتالي لا يؤثر فيه أي تأثير . ولا حتى يستطيع أن ينسيه شئ من الخير . ولكن لما كان صلوات الله عليه حريص على هداية الناس جميعا ، لذلك جعل من سنته مجالسة المشركين والكافرين والمنافقين وأهل الشر أجمعين ، فى محاولة هدايتهم إلى صراط الله المستقيم ن وحتى لا يقتدي به ضعاف الإيمان من المسلمين فيوقعهم الشيطان في حبائل أنصاره من أهل الغواية الظالمين ، لذلك وجه الله تعالى الكلام إليهم فى صورة خطاب إلى رسول اللهε بقوله سبحانه "فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين" أسأل الله تعالى أن يجعلني وإخواني من أهل التقوى الوارثين ، وأن يتولانا بولايته ويجعلنا من أهل عنايته.

قوله تعالى : **"وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ"**(70).

([1]) سورة هود : 113.

بعد أن نهي الله أهل الإيمان به عن مجالسة الظالمين ، الذين يخوضون فى أعراض المؤمنين ، وكان نهيه لهم فى صورة نهي لرسوله الأمين، حتى يكون له فى نفوسهم وقع أقوى وأوجب ، ناسب أن يأمرهم أيضا وبنفس الصيغة المثلي السابقة بترك أهل اللعب واللهو الذين غرتهم الحياة الدنيا فسخروا بدينهم.

قوله تعالى **"وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا"** أي وأترك مجالس القوم الذين جعلوا دينهم سخرية لهم ، يلعبون بأوامره ويلهون بشعائره ، ويستهزؤن بالقائمين به **"وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا"** أي وخدعتهم حياتهم الفانية عن الحياة الباقية ، لأن معني غر أي خدع ، ويقال أغتر بالشئ أي خدع به ، ورجل غر أى غير مجرب ، والغرة أيضا هى الغفلة ، والمعني أن الدنيا خدعتهم بزخرفها الفاني ومتاعها الزائل فاضاعوا حياتهم سدى ولم يعملوا لأخرتهم شيئا ، مما سيجعلهم يندمون حين لا ينفع الندم.

قوله تعالى **"وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ"** أي ونبه العقول وأيقظ القلوب ، وذكر الأرواح ، حتى لا تهلك النفوس بما ارتكبت من سيئات فى الحياة الدنيا ، لأن سبل أي هلك و "تبسل" أي تلقى فى الهلاك الأبدي.

قوله تعالى **"لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ"** فى هذه الآية إثبات لحقيقة قائمة لا يجادل فيها إلا جاهل مكابر ، وهى أن النفوس مخلوقة وبالتالي ليس لها من دون خالقها وليا يتولاها فى جميع مراحل أطوار حياتها ، كما ليس لها من دونه شفيع يقبل الشفاعة فيما يوم القيامة ، وينقذها من العذاب والهلاك الذى يحل بها.

قوله تعالى **"وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا"** أي من دون الله لا نجاة لها ولو قدمت ما فى الأرض جميعا فداء لها من العذاب لما تقبل منها **"أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا"** أي أهلكوا بما اقترفوا من أعمال سيئة فى دنياهم الزائلة ، وفى هذا وعيد وتهديد من الله القادر الفعال لما يريد ، لو فقه حقيقته أهل الغفلة الذين غرتهم الحياة الدنيا لسارعوا إلى العدول عن لعبهم ولهوهم بدينهم ، وتابوا وأنابوا إلى ربهم من قبل أن تزهق نفوسهم ويأتي يوم لا تقبل فيه توبة ولا فدية ، وإنما يجازي كل امرئ بما كسبت يداه.

قوله تعالى **"لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ"** أي أعد لهم فى الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون ، شراب من حميم يغلي فى البطون، ولهم فوق ذلك عذاب أليم وعقاب عظيم جزاء استهزائهم بالدين نوما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . نعوذ بالله تعالى من أن نظلم أنفسنا أو أن نركن إلى الظالمين ، ونسأله سبحانه التوفيق إلى ما فيه رضاه فى الدنيا ، والنجاة من عاقبة يوم الدين أنه قريب مجيب.

وفى هذه الآية بعض الإشارات نذكر منها : أن الرسالة المحمدية فيها عمومية تشير إلى الناس كافة ، وكذلك فيها خصوصية تشير إلى الذين أمنوا من أولي الألباب خاصة ، فهى ف ظاهرها تقيم الحجة على المنكرين اللاعبين اللاهين ، وفى باطنها هداية تنفع أهل الذكر من المؤمنين الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم.

وإشارة أخرى تبين أن الله تعالى خلق الناس جميعا فى أطوار واحدة ومن نفس واحدة ، وأشهدهم جميعا يوم أن واثق الرسل على نصرة خاتم النبيين ،وخاطبهم جميعا يوم ألست بربكم وعاهدهم على الإيمان وحذرهم من النسيان . ثم أرسل إليهم الرسل ليذكروهم بما واثقهم به الله وبما عاهدهم عليه . فمن كانت نفسه سليمة فى وجوهرها تذكر وآمن واستجاب طائعا نجا وأفلح . ومن كانت نفسه خبيثة غير سليمة نسى وأبي وأنكر وظل عاصيا حتى خسر الدنيا والآخرة ، أعاذنا الله بوجهه

الجميل من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ونسأله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت والإيمان الكامل أنه مجيب الدعاء . .

قوله تعالى : **"قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ"**(71).

بعد أن أمر الله نبيه والذين معه وكل المؤمنين بالله ورسوله فى أي زمان وأي مكان بأن يتركوا الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا غرورا بالحياة الدنيا وزينتها ، وكفرا بالدار الآخرة ونعيمها ، ناسب أن يذكر فى هذه الآية أسباب ذلك فقال تعالى **"قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا"** أي قال يا محمد لهؤلاء الجاهلين الذين كفروا برب العالمين ، أندعوا من دون الله أصناما من صنع الأولين ، مع وضوح عجزها عن نفعنا إذا عبدناها ، أو ضرنا أن تركناها ، لأنها حجارة لا حول لها ولا قوة **"وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ"** أي ونعود إلى الكفر بالله خالقنا وخالق أعمالنا بعد أن تفضل سبحانه وهدانا إلى صراطه المستقيم ، فكيف نرجع إلى طريق تحققنا من ضرره وبطلانه وتأكدنا من هلاك كل من يسير فيه فنكون **"كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ"** أي فيكون مثلنا كالذى حصل له خبال ومس أفقده ميزان العقل الذى يميز به النافع من الضار ، ولا يستطيع أن يفرق بين طريق الحق والهداية من طريق الضلال والغواية ، نعوذ بالله تعالى من الميل إلى الحظ والهوى.

قوله تعالى **"لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا"** يجوز أن يكون معناه أن هذا التائه الحيران لفقده العقل والتميز بين النافع من الضار له أصحاب عقلاء صالحين ينادونه قائلين هلم إلينا وتعال معنا لندلك على الطريق الصحيح الذى يوصلك إلى بيتك وأهلك وينجيك من الهلاك أو الضياع فى متاهة خبالك ، ولكنه لا يسمع لهم ولا يعى حقيقة قولهم فينفر منهم . وجائز أن يكون أصحابه من رفقاء السوء الذين يدعونه إلى طريق الشر والفساد قائلين له هلم إلينا لندلك على طريق حظك وهواك وكل ما تميل إليه نفسك من شهوات وفيه الهدى والنجاة من الهلاك فيوقعونه فى الضلال معهم إذا استجاب إليهم وصدق كذبهم ، ولهذا أمر الله حبيبه ومصطفاه بقوله جل علاه **"قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى"** والهدي أنواع سبق لنا بيانها وشرح أنواعها ، ولكن لا نخلي هذا المقام من المزيد فنقول أن الله تعالى أمر رسوله أن يخبر العقلاء الطائعين ، والعصاة الجاهلين ، أن الهدى الحقيقى هو هدى الله تعالى ، لأنه وحده يملك هداية الإحسان ، وكل من سواه لا يملكون إلا هداية البيان ، وشتان بين الهدايتين ، فالأولي هداية أكيدة ، والثانية هداية محتملة.

قوله تعالى **"وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ"** أي وقد أمرنا أمرا مقدسا وجب علينا طاعته والتسليم له ، لأنه أمر من رب العالمين عالم الأرواح وما بطن ،ورب عالم الأشباح وما ظهر ، ولتحققنا من أن طاعتنا له فيه الأمن والسلامة فى الدنيا ، والنجاة والفلاح فى الآخرة ، وذلك هو الفوز العظيم . .

ولا نخلى هذا المقام من الإشارة إلى أن أسلوب الاستفهام المنطوى على استنكار الباطل وضرب الأمثال لبيان الحق واضحا جليا هو من أكبر أساليب البلاغة فى الوصول إلى إقناع ذو العقول الراجحة والألباب المفكرة. ويا حبذا لو اتبعه أهل العلم والمعرفة الذين يتعرضون لدعوة الخلق إلى الله الحق ، أسأل الله أن يجعلني وإخواني إبدالا للمرسلين ، وورثة لرسالة خاتم النبيينε .

قوله تعالى : **"وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ"**(72).

بعد أن ضرب الله لنا الأمثال المقربة لإظهار الحق ، والهادمة لأسس الشرك والضلال والكفر ، وأمرنا بالتسليم لربوبيته ، والقيام بطاعته ، ناسب أن يذكر فى هذه الآية أهم ركن من أركان الإسلام

وهى شريعة الصلاة لأنها صلة بين العبد وربه إذا أقيمت بشروطها الظاهرة وحقيقها الباطنة لقوله تعالى **"وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ"** أي وأن تطيعوا الله وتقوموا بأداء فريضة الصلاة كما سنها رسول الله من أقوال وأعمال بدنية ، وخشوع ومراقبة فى أداب قلبية ، لأن كل صلاة نقص شئ من أعمالها أو غاب العبد عن مراقبة الله فيها لا تعد إقامة عند العارفين ، وأنما تسمي صلاة عادة تقليدية وليست لا تعد إقامة عند العارفين ، وإنما تسمي صلاة عادة تقليدية وليست صلاة عبادة حقيقية وهذا سر قوله تعالى **"وَاتَّقُوهُ"** أي وراقبوه مراقبة الخاشعين ، وخافوه خوف الأولياء الصالحين وتمثلوا نعمة الإيجاد ونعم الإمداد لتكونوا من عباده الشاكرين.

قوله تعالى **"وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ"** أي وهو الخلاق العليم الذى إليه تعودون ويوم القيامة إليه تحشرون فيحاسب كل عبد بقدر ما أعطاه من مواهب وما منحه من علوم ، سواء كانت علوم شؤون معنوية يمنحها الله لعبده فى خصوصية ، أو علوم الأشياء المادية التى يكشفها رب البرية لعبد من عباده لينتفع بها الجميع فى عمومية ولا يظلم ربك أحدا ، فيثيب الطائع بقدر خشوعه وتقواه ، ومدى مراقبته لربه فى الصلاة ، ومن كان حاضرا مع الله فى صلاته ، كان الله معه فى حياته وبعد وفاته ، أسأل الله تعالى أن يرزقني وإخواني أعلي مقامات مراقبته أنه مجيب الدعاء.

قوله تعالى : **"وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ"**(73).

أي هو الله الخالق البارئ المصور الذى أوجد من العدم وعلى غير مثال سبق تلك السموات العالية المرفوعة بغير عمد ، وتلك الأرض بسهولها ووديانها المنبسطة المعدة بمناخها لحياة النبات والطير والدواب ، كما خلق وصور وأوجد جميع ما فيهن وما بينهن على اختلاف أشكالها وأحجامها وأنواعها . أليس كل هذا دليل لا يدحض على أنه إلا له الحق وكل ما سواه باطل.

قوله تعالى **"وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ"** أي ويوم القيامة يقول الله تعالى للأرواح والأشباح اجتمعا وأخرجوا من قبوركم وقوموا إلى بعثكم فيتم المراد من أمره سبحانه فى الحال وبمجرد قوله "كن" أي كما خلق الخلق بأمره كن يعيده يوم القيامة بقوله كن ، سر قوله تعالى **"كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ"**[1] لأن **"قَوْلُهُ الْحَقُّ"** أي لا ريب فى وقوعه وقوع حق وصدق **"وَلَهُ الْمُلْكُ"** يوم القيامة وحده لا شريك له فى ملكه حيث تنعدم الملكية الموجودة للإنسان فى الدنيا.

قوله تعالى **"يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ"** أي ابتداء من وقت نفخ إسرافيل في صور الموجودات بأمر الله الملك الجليل ، تقوم كل الحقائق تنادي بلسان الحال والمقال **"لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ"** فيرد كل موجود فى هذا اليوم المشهود **"لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ"**[2].

قوله تعالى **"عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ"** أي أن هذه الأخبار عن المستقبل البعيد والتى تغيب عن إدراك الأكثرية الكبرى من الناس ، هى عين الحق والصدق لأنها بوحي من الله تعالى الذى يعلم كل ما غاب عن إمكانيات الإبصار بالعيون والإدراك بالعقول ، كما يعلم حقائق كل ما هو مشهود فى هذا الوجود لأنه سبحانه عالم الغيب والشهادة ، وكل علم ومعلوم فهو من وحيه جل شأنه.

قوله تعالى **"وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ"** أي أنه سبحانه هو الحكيم الذى أوجد كل الشؤون المعنوية واللطائف الروحية الباطنة ، بل وكافة الأشياء المادية والجوارح البدنية الظاهرة . أوجدها جميعا بحكمة علية لا مثيل لها ، ومن ثم فهو الخبير بما كان من حقائق الموجودات ، وبما هو كائن من أنواع

([1]) سورة الأنبياء : 104.

(2) سورة غافر : 16.

المخلوقات ، وبما سيكون من مصير الخلائق فى الآخرة بعد البعث والنشور ، وسبحان من جعل فضله بين الكاف والنون ، فأوجد كل مشهود فى هذا الكون ، بل وكل غائب فى عالم البطون بكلمة "كن فيكون" التى بها قامت الأرض وما فيها وما عليها من غرائب ، واستوت السموات بشموسها وأقمارها ونجومها وكل ما نراه من عجائب الكواكب.

قوله تعالى : **"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"**(74).

بعد أن أقام الله الحجج الساطعة والبينات الواضحة ، وضرب الأمثال المقربة ، وذكر الدلائل والبراهين المبينة لحق وحدانية وعلو قدرته ، ناسب أن يأتي فى هذه الآية بأسلوب الدعوة إلى الحق فذكر سبحانه الحجج التى أجراها على لسان الخليل إبراهيم فكانت أكبر حجة وأقوى بيان وأنصع دليل على صدق دعوة رسول الله وخاتم النبيين سيدنا محمد الأمين.

قوله تعالى **"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ"** أي وأذكر لقومك قول أبيك إبراهيم الخليل **"لِأَبِيهِ آزَرَ"** وهناك اختلاف بين أهل التأويل وعلماء التاريخ فى مسألة أبوة آزر ، فمنهم من قال أنه أبوه حقا ، ومنهم من قال أنه عمه ، وأنا أميل إلى القول الأخير اعتمادا إلى إشارة الله فى قوله تعالى **"لِأَبِيهِ آزَرَ"** بإضافة الاسم إلى الأبوة ، وقد جرت عادة العرب أن ينسبوا الولد إلى بنوة أعمامه ويقيدوها بذكر الأسماء فيقول الولد أبي محمد ، وأبي إسماعيل ، وأبي صالح ، أما إذا كان الأب الحقيقي فيقول هذا أبي ولا يذكر أسمه ومثال ذلك فى سورة يوسف **"إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ"**[1] وفى آية أخرى **"اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي"**[2] دون ذكر الاسم لأن أبوه الحقيقي ، وحتى فى مسألة الأخوة يفرق بين الأخ الشقيق وغير الشقيق كما قال تعالى فى قصة يوسف "قال أنا يوسف وهذا أخي" وسكت ولم يسمه لأن أخوه الحقيقى الوحيد ، ولو كان أخا غير شقيق أو له أخوة غيره ، لقال هذا أخي فلان تمييزا له . وحيث أن الله ميز أبا إبراهيم بآزر فهذا دليل على أنه ليس أبوه الحقيقى ، وهذا يتفق مع ما ورد عن الصادق الأمينε من أن الله تعالى حفظ نبيه محمدا فى الأصلاب الطاهرة والأرحام الطيبة التى لا تشبها شائبة . وآزر هذا كان صنميا متعنتا بل وكان عدوا لله.

قوله تعالى : **"أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً"** أي كيف يطاوعك عقلك على أن تجعل الأصنام المصنوعة بيد البشر آلهة تعبد وهى لا تضر ولا تنفع **"إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"** أي أني أري بعد تمحيص وتفكير سليم أنك وقومك بل وكل من يعبد الأصنام فى ضلال بين ظاهر ، والضال هو التائه الحيران الى لم يهتدي إلى الحق والصواب مع شدة وضوحه وظهوره لكل ذى عين يبصر بها وأذن يسمع بها وفؤاد يمحص به مدلول ما يرى وما يسمع ، أعاذنا الله تعالى من سابقة السوء.

ولا نخلى هذه الآية من ذكر إشارتها التى تحث الإنسان على استعمال عقله فى تمحيص ما تسمع أذنه ، وما ترى عينه ، وما تلمس يده ، ثم يقوم بعرض النتائج على قلبه ويستفتيه فى التفريق بين الحق والباطل وبيان الصواب من الخطأ ، وهذا لا يمنع المرء من سؤال أهل الذكر فيما لا يعلم . .

قوله تعالى : **"وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ"**(75).

أن كلمة "وكذلك" فى بداية الآية يشير إلى ارتباطها بالآية السابقة بمعني أنه كما وفقنا إبراهيم إلى رؤيا ضلال أبيه آزر وقومه الذين اتخذوا الأصنام آلهة بمجرد نظره إلى ظاهر الملك ، كذلك تريه

([1]) سورة يوسف : 4.

(2) سورة يوسف : 93.

أسرار الملكوت المنطوية طي ظاهره من سموات مرفوعة ، وكواكب سيارة ، وأرض مبسوطة فيها من عجائب المخلوقات ما لا يعد ولا يحصى.

قوله تعالى **"وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ"** ولكي يصل إبراهيم إلى اليقين الحق يلزمه رؤية المعاني المنطوية طي آيات السموات والأرض وما فيهن وما بينهن أي شهود الملكوت بعد شهود الملك.

قوله تعالى : **"فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ"**(76).

أي فلما دخل عليه الليل أثناء دعوته لقومه بتوحيد الله ،وهم يجادلونه ويزعمون أن آلهتهم التى يعبدونها حق وصدق ، وكانت الكواكب السماوية من ضمن الآلهة التى تعبد ، فعندما رأي كوكب الزهرة الذى يظهر أحيانا فى أول الليل ويغيب فى الحال وبسرعة ،أشار إليه ، **"قَالَ هَذَا رَبِّي"** وكان فى قوله هذا تهكما صريحا واستهزاء وسخرية بقومه ، وذلك لساطع البرهان وقوة الحجة **"فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ"** أي لما غاب كوكب الزهرة بتلك السرعة لفت أنظارهم إلى أن الإله الذى يغيب ويأفل وينتقل من حال إلى حال يثبت أنه مخلوق ، لأن التغير والتحول من صفات المخلوقات.

قوله تعالى : **"فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ"**(77).

أي فلما غاب كوكب الزهرة وظهر القمر بازغا أشار إليه و **"قَالَ هَذَا رَبِّي"** وذلك لكي تصيبهم الحيرة بسبب التنقل من عبادة كوكب إلى كوكب آخر ، وهذا أسلوب من أساليب الحكمة فى دعوة الجاهلين ذوى العقول البسيطة المصابين باء التشديد فى تمسكهم بتقاليد آبائهم.

قوله تعالى **"فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ"** فلما غاب القمر ايضا بدأ فى توجيه أفكارهم إلى أن هناك آله خالق لهذه الكواكب ، وأنه إذا لم يهديه خالقه الذى خلقه وخلق كل شئ فوقه وكل ما حوله فلا هداية له ، وسيكون مثلهم مع القوم الضالين ، وفى ذلك إشارة إلى أن كل من يعبد شيئا مخلوقا فهو من الضالين . .

قوله تعالى : **"فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ"**(78).

أي فلما أشرقت الشمس بنورها ، وأخفت جميع الكواكب بقوة ضوئها لفت أنظار قومه إلى هذه الظاهرة **"قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ"** أي هذا الرب أكبر من الأرباب كلها بدليل أنه أخفاها جميعا بنوره ، وأصبحت لا وجود لها فى حضوره **"فَلَمَّا أَفَلَتْ"** أي غابت هى الأخرى ووجد أن القوم لم يعتبوا بتلك الآيات ، ولم يقتنعوا بما ساقه لهم من حجج وبينات ، هاجمهم بصريح العبارة بعد التلميح بالإشارة **"قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ"** أي أني تارك ما تعبدون ، وبرئ من تلك الأوثان التى أنتم عليها عاكفون ، كما أبرء أيضا من أجرام السموات وكواكبها التى لاثبات لها ، وعدم ثبوتها وتغير حالها بين لحظة أخرى دليل على أن لها رب يسيرها وبيده مقاليدها . وأنها جميعها لا تصلح أن تكون آلهة ، فضلا عن عدم صلاحها لربوبية غيرها.

قوله تعالى : **"إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ"**(79).

وعندما قال له بعض قومه ، ومن هو الاله الذى تقصده ، وتتوجه إليه وتعبده ، قال هذا ما أردت أن أنبهكم إليه ، وقصدت أن أوجهكم لمعرفته وعبادته **"إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ "** أي أن كل ما سقته إليكم من أدلة ، وأتيتكم من حجج . كان تمهيدا لتعريفكم بربكم ورب

آبائكم الذى خلق السموات وما أظلت والأرض وما أقلت وفطرهن بقدرته ، وسير كواكب السماء ومخلوقات الأرض بقوته ووفق على حكمته.

قوله تعالى "حنيفا" أي مسلما طائعا لهذا الاله العظيم ، قاصدا عبادته مهتديا بهدية على صراط مستقيم ، وهذا هو الدين القويم ، الذى يوصل إلى الحق والهداية ،ويمنع المرء من الضلال والغواية ، لأنه الطريق الوحيد الموصل إلى التوحيد **"وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ"** الذين يشركون برب العالمين ، والذين يتخذون من دونه آلهة مخلوقة وليست خالقة . هذه هى قصة سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، التى ذكرها الله لنا فى كتابه الكريم . ليتعلم منها كل من يريد العلوم ، ويعتبر بها كل ذى قلب سليم . ويسير على ضوء هديها كل داع إلى الحق المبين ، فيصير قوى الحجة مثل أبيه الخليل ، الذى أخبرنا عن قوة حجته العلي الجليل سبحانه.

قوله تعالى : **"وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ"**(80).

قوله تعالى : **"وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"**(81).

بعد أن اقام الله الحجة لإبراهيم على قومه ، وقصم ظهورهم بآياته وبيناته ، وقد أتخذ بعض مظاهر كونه وسيلة لأظاهر قوة حججه ، ناسب أن يبين لنا حالة قومه بعد كل تلك المحاورات ، والاستشهاد ببعض ما فى الوجود من آيات ، فقال سبحانه وتعالى **"وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ"** أي وبعد كل هذا جادله قومه فى الدين ، مجادلة أهل الجهالة الضالين ،حتى بلغ بهم الضلال حد تخويفه من غضب الأصنام فتصيبه بسوء أن لم يتخذها آلهة . فقال لهم الخليل إبراهيم ما أخبرنا به الله الجليل العليم **"قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي"** أي كيف يليق بكم يا قوم بعد كل هذه الدلائل والبراهين تجادلوني فى الوهية الله ، وبعد ظهور كل تكل الحجج القائمة على احديته دون سواه ، وكيف تريدون إضلالي بعد أن هداني الله إلى صراطه المستقيم، وتخوفوني بآلهتكم التى تعبدون ، وأصنامكم التى تصنعون ، وهى حجارة لا تضر ولا تنفع أن كنتم تعقلون.

قوله تعالى **"وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ"** أي وأني لا أخاف من أصنامكم التى تصنعونها بأيديكم ثم تعبدونها من دون الله ربكم ورب آبائكم ، وقد جعلتموها شريكة له مع أنها لا تضر ولا تنفع **"إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا"** أي إلا أن يريد الله ربي أن يصيبني بسوء أو يضرني بشئ قدره أزلا ، فهو الضار النافع ، وأصنامكم ليس لها نفع ولا ضرر ولا تأثير لها على أي إنسان.

قوله تعالى **"وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا"** أي أن ربي واسع عليم ، وسع علمه كل الموجودات فى الأرض والسموات ، وما بينهن من كافة المخلوقات، إلا يعلم من خلق وهو الخلاق العليم ، وقوله **"أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ"** أي أفلا تعتبرون بكل ما تسمعون وتبصرون وتعايشون ، أفلا يذكركم هذه بأيام الله، يوم أن واثق الله النبيين على نصرة حبيبه ومصطفاه[1] ، ويوم "ألست بربكم" يوم أن أشهدكم فيه على أنفسكم[2] ، ويوم البطون حيث صوركم فى أرحام أمهاتكم[3] ، ويوم الظهور فى هذه الحياة الدنيا الذى

([1]) يشير السيد الإمام رضى الله عنه إلى قول الله تعالى : "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ" 81 آل عمران.

(2) يشير السيد الإمام رضى الله عنه إلى قول الله تعالى : "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ" 172 الأعراف.

(3) يشير السيد الإمام رضى الله عنه إلى قوله تعالى : "هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ"6 آل عمران.

ترونه بأبصاركم[1]، ويوم الممات من هذه الحياة والانتقال منها إلى برزخكم[2] ، ويوم العودة حيث ترجعون فيه إلى الله ربكم[3] ، ويوم الحساب حيث تبعثون للجزاء بالثواب أو العقاب[4].

قوله تعالى **"وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ"** أي وهل يعقل أن أخشى أو أخاف من أصنامكم وأوثانكم ، وهي لا حول لها ولا قوة ، ولا تقدم ولا تؤخر ، ولا تضر ولا تنفع **"وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا"** أي وكيف لا تخشون أنكم اتخذتم من دون الله ربكم آلهة سواه ، وهو الضار النافع المنتقم القهار والعزيز الغفار ، وليس لديكم برهان يفيد صواب ما أشركتم ، ولم ينزل عليكم تابا من السماء يؤيدكم **"فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"** فريق الحق والصدق والإيمان بالله الخلاق ، أم فريق الباطل والكذب والشرك وعبادة ما لم ينزل الله به من سلطان ، نبئوني بعلم أن كنتم تعلمون ، أينا أحق بالأمن ، أنتم أم نحن الناجون ؟؟!!.

ولا نخلي هذا المقام من ذكر ما تشير إليه هاتين الآيتين من أسلوب الخليل إبراهيم فى حوراه مع قومه ، فقد كان عليه السلام يحاجيهم فى البداية ببيان دلائل المخلوقات فى الأرض والسموات ، ثم انتقل فى النهاية إلى مناشدة ما يميز الله به كل إنسان من لطائف الفهم والإدراك لمدلول أي بيان ، فبعد أن حاجهم بأثار الآفاق فأقام عليهم الحجة بالكواكب والشمس والقمر ومعالم الأكوان ، أراد أن يقيم الحجة عليهم أيضا بمخاطبة لطائف نفوسهم فى عالم الإنسان . فنبه عقولهم وأيقظ قلوبهم وحرك دخائل نفوسهم بأسئلته وتعجبه بقوله كيف تحاجوني فى الخلاق الذى خلقني وهداني ؟ .. وكيف تهددوني بأصنامكم التى تصنعونها بأيديكم وهى لا تضر ولا تنفع ؟؟! أفلا تتذكرون أيام أن كنتم قبل خلقكم وإيجادكم : وأين كانت أوثانكم ؟! ومن الذى خاطبكم فى أصلاب أبائكم ورعاكم وأنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ألخ . ألخ. وكيف أخاف من أصنام تصنعها أيديكم ولا تخافون أنتم من الله ربكم الذى أوجدكم وبمقومات الحياة أمدكم ؟! ومن هو أحق بالأمن والاطمئنان ، الذى مع الله القوى الديان ، أم الذى مع الجماد من الأصنام والأوثان . ومن الغريب أن هذه الأسئلة لا تزال توجه إلى بني الإنسان . الذين لا يشعرون فى حياتهم بالاطمئنان فيقدمون على الانتحار رغم ما يملكون من وسائل الأمان ، أسأل الله لي ولأخواتي المسلمين إصلاح باطننا حتى ينصلح ظاهرنا وتطمئن بذكره قلوبنا أنه مجيب الدعاء.

قوله تعالى : **"الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ"**(82).

بعد أن ذكر الله لنا حوار الخليل إبراهيم مع قومه ، وكيف تبادلا التخويف والقلق ، وأي الفريقين أحق بالأمن والاطمئنان ، شرع يبين لنا فى هذه الآية صفات الآمنين والمطمئنين من المؤمنين ويخبرنا بمن هم أحق بالأمن فى كل وقت وحين فقال سبحانه "الذين آمنوا" أي صدقوا الله ورسله وسلموا لهم تسليما "ولم يلبسوا" أي ولم يخلطوا تصديقهم وتسليمهم لله ورسوله بأي شائبة ، ولم يمزجوا **"إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ "** أي بشرك سواء كان ظاهرا أو خفيا أو أخفى لأن الشرك كما أخبرنا الله به على لسان لقمان

---

(1) يشير السيد الإمام رضى الله عنه إلى قوله تعالى : "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا" 78 النحل.

(2) يشير السيد الإمام رضى الله عنه إلى قوله تعالى : "وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ" 100 المؤمنون.

(3) يشير السيد الإمام رضى الله عنه إلى قوله تعالى : "وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ" 281 البقرة.

(4) يشير السيد الإمام رضى الله عنه إلى قوله تعالى : "يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا" 6 المجادلة.

الحكيم وهو يعظ ابنه بقوله " **يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**"[1] وهل هناك ظلم أعظم من أن تنسب للخلق ما هو للخالق ، أو تخلط الصدق والإخلاص بالإفتراء والخيانة أعاذنا الله من كل أنواع الشرك ، ظاهره وخفيه وأخفاه مما يدق على النفس فيخدعها ، وجعلنا بفضله وإحسانه من "**أُولَئِكَ**" الذين "**لَهُمُ الْأَمْنُ**" فى الدنيا والآخرة "**وَهُمْ مُهْتَدُونَ**" أي موفقون إلى دوام مراقبتهم لله ربهم ، آمنين بحق معيته مطمئنين بذكره سبحانه كما قال تعالى وهو أصدق القائلين " **أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**"[2].

وقد أنطوت هذه الآية على إشارة ذوقية ، تخاطب أهل السابقية بطريق غير مباشر ، وفحواها يا عبادي اتصفوا بصفات أهل الإيمان ، لكي تفوزوا بحقيقة الفلاح والأمان . وقد أجمل القرآن صفات أهل الإيمان فى سبع صفات من أول سورة المؤمنون ، ثم فصلها رسول اللهε فى حديثه المشهور "الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها أماطة الأذى عن الطريق" ثم أخبرنا الله فى سورة العصر أن الإنسان لفى خسر مع استثناء الذين آمنوا وعملوا بشعب الإيمان وتواصوا بينهم بها والصبر عليها.

قوله تعالى : "**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**"(83).

بعد أن أخبرنا الله تعالى فى الآية السابقة بأن أهل الأمن والهداية هم المؤمنون الذين لم يلبسو إيمانهم بأدني شائبة من ظلم ، وقد أجمل الله صفات أهل الإيمان فى كتابه المبين ، وفصل رسول اللهε ما أجمله القرآن فى حديثه الكريم ، ناسب أن يقول لنا سبحانه وتعالى فى هذه الآية "**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ**" ولا شك أن نسب الحجة إلى الذات الالهية بإضافة ضمير العظمة لخير دليل على أنها حجة قاصمة لظهور المنكرين والكافرين وليس فوقها حجة ، وقوله تعالى "آتيناها" دليل عموميتها لكل الرسل وورثتهم إلى يوم القيامة ، لأنها لو كانت خاصة بالخليل إبراهيم وحده لقال سبحانه أعطيناها فالاتيان عام والعطاء خاص وقوله "على قومه" أي ضدهم ، وذلك بإقامته البرهان عليهم بقوله وعمله وحاله المتمثل فى تسليمه لله رب العالمين تسليما لم يسبقه إليه إنسان.

قوله تعالى "**نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ**" أي نعلى قدر من نريد ونرفع مقام من نشاء من عبادنا ، فنجمله بآدابنا وإخلاقنا ونعطيه خلتنا فيصير كالخليل "**إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**" أي ذا حكمة عليه وعلم واسع . وبمقتضى تلك الحكمة الازلية وذلك العلم اللدني يخص أهل الاستحقاق من عباده بما شاء من فضله لأنه أعلم حيث يجعل رسالته ، فيخص هذا بكلامه ، ويخص ذاك بخلته ، ويجمل الخاتم برأفته ورحمته وإقامته مقامه ، فلا حرج على فضل الله ولا راد لمراده لأنه لا شريك له فى ملكه . .

قوله تعالى : "**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**"(84).

بعد أن أخبرنا الله جل شأنه برفع درجات من يشاء من عباده عن حكمة لا مثيل لها وعلم أزلي يحيط بما كان وما يكون ، تفضل سبحانه وتعالى وذكر لنا أسماء بعض أنبيائه ورسله الذين تفضل عليهم ورفع درجاتهم فقال جل علاه "**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**" أي وتفضلنا على خليلنا إبراهيم ووهبنا له ولده أسحاق من زوجته سارة التى حملت به بعد بشارة الملائكة وهى عجوز عقيم ، ثم زدناه

([1]) سورة لقمان : 13.

([2]) سورة الرعد : 28.

من فضلنا بحفيده يعقوب وهو المشهور بأسم إسرائيل والذى جعل الله من ذريته كثير من الأنبياء والمرسلين.

قوله تعالى : **"كُلًّا هَدَيْنَا"** أي إسحاق ويعقوب عليهم السلام **"وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ"** أي كما هدينا نوحا من قبل وجعلناه من أهل الأمن والسلامة فنجيناه من الطوفان هو وكل من تبعه وركب معه فى السفينة "ومن ذريته" أي من نسل الخليل إبراهيم "داوود" صاحب الزبور "وسليمان" الذى سخر الله له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أراد ، وعلمه منطق الطير ، وأخضع له الجن مسلسلين فى الأغلال ، "وأيوب" المشهور بالصبر على الضر حتى وصفه الله تعالى بقوله **"إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ"**[1] "ويوسف" بن يعقوب صاحب القصة المشهور مع أخوته ، والذى أجتباه ربه وعلمه تفسير الرؤيا المنامية وأتم عليه نعمته سبحانه ، وملكه أرض مصر بعد الذل والإهانة فى الغربة الطويلة **"وَمُوسَى وَهَارُونَ"** وهما الرسولان اللذان أرسلهما الله إلى فرعون وقومه ، ولكن فرعون على فى الأرض وغرته قوته فأهلكه الله هو وجنوده بالغرق فى اليم ، ونجى الله موسى وقومه بفلق البحر وتمهيد الطريق فيه حتى وصلوا جميعا إلى بر السلام والإمان.

قوله تعالى : **"وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ"** من أولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى نعم الله وآلائه وما خلق سبحانه فى السموات والأرض ، فيجازيهم الله بكشف العلوم والأسرار والحكمة ويعطيهم من فضله مثل ما أعطى أنبيائه ورسله ، فلا حظر على فضل الله وعطائه ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المحسنين الذين يحسنون كل ما يعلمون حتى يشملنا الإحسان فى كل أحوالنا أن الله قريب مجيب.

قوله تعالى : **"وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ"**(85).

قوله تعالى : **"وَزَكَرِيَّا"** وهو رسول لبني إسرائيل وقد رزقه الله ولدا بعد اليأس فى الكبر ووهن العظم وسماه يحيى وهو أول من سمى بهذا الأسم **"وَيَحْيَى"** هو ابن زكريا وقد أرسله الله تعالى إلى بني إسرائيل بعد أبيه فكذبوه وقتلوه بعد أن أتهموه بشر التهم التى هو منها براء **"وَعِيسَى"** وهو ابن مريم العذراء الطاهرة التى طهرها الله تعالى ، وقد بعثه الله لبني إسرائيل رسولا فكذبوه وافتروا عليه وعلى والدته بهتانا وإثما عظيما ، ولما كادوا له أشر الكيد وأرادوا قتله نجاه الله من كيدهم ورفعه إليه **"وَإِلْيَاسَ"** كان رسولا إلى بني إسرائيل وهو بن هارون أخو موسى الكليم عليهم السلام.

وقوله تعالى : **"كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ"** أي أن كل هؤلاء الرسل المذكورين هم من عباد الله الصالحين المصلحين.

قوله تعالى : **"وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ"**(86).

قوله تعالى : "وإسماعيل" وهو ابن ابراهيم الخليل من زوجته هاجر المصرية ، وقد ذهب بهما الخليل عليه السلام إلى مكة وتركهما وهو يقول ما أخبرنا الله به **"رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ"**[2] واستجاب الله تعالى دعاء خليله وعمر بهما المسجد الحرام ، وإسماعيل هو جد رسول الله وخاتم أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم جميعا. **"وَالْيَسَعَ"** هو رسول من رسل الله الكرام **"وَيُونُسَ"** هو رسول الله الذى أشتهر بذا النون ، وهو صاحب الحوت الذى آمنت به أمته بعد تركه لهم وأبتلاع الحوت له عندما ألقي بنفسه من السفينة فنادي ربه وهو فى ظلمات بطن الحوت **"أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا**

([1]) صورة ص : 44.

([2]) سورة إبراهيم : 37.

أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ"[1] فاستجاب الله دعاءه ونجاه إلى البر سالما **"وَلُوطًا"** وهو تلميذ للخليل إبراهيم أرسله الله تعالى لقومه فكذبوه وأنكروا عليه طهره وصلاحه فأخذهم الله بالعذاب وجعل ديارهم عاليها سالفها وأمطرهم بحجارة من سجيل منضود.

قوله تعالى : **"وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ"** أي أن كل هؤلاء الرسل قد فضلهم الله على أهل عصرهم بدليل أن الله بعث كلا منهم رسولا إلى قومه وفى ذلك من الفضل والشرف مالا يدانيه شئ مما يرغب فيه أهل الجهالة والضلالة.

قوله تعالى : **"وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"**(87).

أي وكذلك فضلنا بعضا من أبائهم وذرياتهم لأن وجود "ومن" فى بداية الآية يفيد البعض وليس الكل لأن من الرسل من لم يكن له أب ، ومنهم من لم يكن له ذرية ، ومنهم من كان ابنه كافرا مثل أبن نوح الذى رفض أن يركب السفينة مع أبيه.

وقوله تعالى **"وَإِخْوَانِهِمْ"** أي من الاتباع المخلصين والعلماء العالمين ، وورثتهم الداعين بدعوتهم إلى يوم الدين **"وَاجْتَبَيْنَاهُمْ"** أي وأخترناهم واصطفيناهم على علم من لدنا **"وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"** أي ومنحناهم فضلنا وخصصناهم بالسير على الصراط المستقيم والدلالة على الطريق القويم ، وهو طريق الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ويستخلص من هذه الآيات بعض المعاني السامية التى تبين أن مقامات الرجال وعلو درجاتهم عند الله لا نهاية لها فى العلو والارتقاء ، فمقام الإسلام يعلوه مقام الإيمان ، ومقام الإيمان يعلوه مقام الإحسان ، ومقام الإحسان يعلو فوقه مقام اليقين ، وفوق مقام اليقين يعلو مقام المحبوبين ، ثم مقام المقربين ، ثم مقام الأولياء الصالحين ، ثم مقام العباد الذاتيين الذين يعبدون الله تعالى لذاته ولا يقصدون بعبادتهم حور ولا عين إى آخر ما يشير إليه قوله أصدق القائلين "نرفع درجات من نشاء**"نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ"** وقوله جل شأنه **" وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ"**[2].

كما يستخلص منها كذلك أن فضل الله الذى أجراه الله على جميع أنبيائه ورسله السابقين . سيجرى مثله على المحسنين اللاحقين من عباد الله الصالحين فى كل وقت وحين إلى يوم الدين فلا حظر على فضل الله الحكيم العليم ، أسأل الله تعالى أن يمنحني وأخوتي المسلمين أعلى الدرجات لنكون فى الآخرة آنسين بالنظر إلى وجهه الكريم أنه سميع مجيب.

قوله تعالى : **"ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"**(88).

بعد أن ذرك الله تعالى فى الآيات السابقة أسماء ثمانية عشر نبيا ورسولا ، وأشار إلى بعض ما أتاهم من مواهب وعطايا من رفع الدرجات وعلو المكانة والمقامات . ناسب أن يذكر فى هذه الآية أن **"ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ"** بمعني أن ما قاموا به من طاعات وما جرى على ألسنتهم من علم وحكمة وحجة دالة على توحيده سبحانه ، إنما تم فضل الله وتوفيقه وهداه ، وأن جميع الأنبياء والرسل وإبدالهم من ورثة علمهم ودعوتهم الحاملين لرسالتهم ليس لهم فى هداية أنفسهم وغيرهم حول ولا قوة ن وإنما الهدى الذى اهتدوا به وهدوا به غيرهم هو لله وبالله وبحول الله وقوة الله ومشيئة الله دون سواه ، وقد أقر وأعترف هؤلاء المهدين الهادين بفضل الله تعالى في هدايتهم فقالوا بما أخبرنا الله

---

(1) سورة الأنبياء : 87.

(2) سورة ق : 35.

به فى قوله سبحانه "**وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**"[1] نسأل الله تعالى أن يمنحنا هداية الهادين المهدين ويحفظنا من الشرك به سبحانه.

قوله تعالى : "**وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**" أي ولو حدث وشاب نفوس بعضهم شرك ما – ولو كان فى صورة أخفى من أن تشعر به نفوسهم – لبطل عنهم ما كانوا يعملون وحرموا ثوابه فى الدنيا والآخرة لولا حفظ الله لهم " **فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**"[2].

وتتضمن هذه الآية إشارة خفية تخوف أولياء الله الصالحين ، والهادين المهدين الذين ورثوا علوم الدين ، وكلفوا بحمل عبئ مهمة المرسلين السابقين ، فتجعلهم حريصين كل الحرص من كيد الشيطان اللعين ن حتى لا يوقعهم فى شرك ظاهر عظيم ن أو يجرهم إلى شرك خفي يرضى فى النفوس فتسئ إلى صاحبها فتدعي أمورا ليست لها معجبة بعملها وهى تظن أنها من المحصنين ، أعاذني الله وإخواني المؤمنين ، من وساوس وهمسات شياطين الجن والإنس أجمعين.

قوله تعالى : "**أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**"(89).

ضمير الإشارة فى هذه الآية عائد على أولئك الرسل المذكورين فى الآيات السابقة ، كما تعني أيضا غيرهم ممن ذكرت أسماءهم فى آيات أخرى، وكذلك الذين لم يذكر الله أسماءهم فى كتابه الحكيم ، وقوله تعالى "**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ** " يشمل أيضا جميع أولياء الله الصالحين ، والعلماء والعاملين ، من ورثة دعوة رسول الله وخاتم النبيين ، لأن الاتيان عام – كما سبق أن قدمنا – فهو يشمل الرسل وجميع أتباعهم من الأمم إلى يوم الدين ، أما العطاء فهو خاص بمخصوصين لا يتعداهم ، وبناء عليه يكون الجميع قد أتاهم الله الكتاب فصاروا أهل كتاب سواء كان توراة ، أو زبور ، أو إنجيل ، أو قرآن "والحكم" أيضا أتاه الله للجميع سواء بمعناه المادي الذى يشير إلى حكم الفرد لأسرته ، أو قبيلته ، أو عشريته ، أو مدينته إلى حكم دولته . . أو بمعناه المعنوي الذى يفيد إتيانه حكمة وعلما وكياسة وذوقا يتذوق به معاني تجليات أسماء الله وصفاته فى أرضه وسمواته وكافة آياته فى مخلوقاته وكونه ، وكلامه فى كتبه المنزلة على أنبيائه ورسله "والنبوة" هى الأخبار عن الله بما غاب عن الناس من حقيقة الحياة الدنيا وحتمية زوالها مع بيان بقاء الحياة الأخروية ودوامها.

قوله تعالى : "**فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ**" أي فإن يكذب بها هؤلاء الكفار والمشركين واليهود والنصارى فى كل زمان ومكان "**فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**" أي فقد خصصنا لها قوما يصدقون بالكتاب والحكم والنبوة ويعملون بها ويدعون الناس إليها فى كل زمان ومكان حتى لا تكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

قوله تعالى : "**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ**"(90).

بعد أن أشار الله فى الآيةالسابقة إلى أنبيائه ورسله ، وورثتهم من العارفين والعلماء العالمين والأولياء الصالحين بالضمير المستتر فى كلمة "أولئك" ورمز إلى الجانب الآخر من الناس الذين يكفرون بالله وكتبه ورسله ويكذبون كل من يذكرهم بيوم الدين بالضمير المستتر طي كلمة "هؤلاء" ناسب أن يذكر سبحانه أهل الهدى الذين هداهم ، وينسبهم إلى أنبيائه ورسله الذين أتاهم الكتاب والحكم والنبوة بقوله تعالى "**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ**" أي أن الأنبياء والرسل والعلماء والأولياء هم الذين هداهم

([1]) سورة الأعراف : 43.

(2) سورة يوسف : 64.

الله إلى صراطه المستقيم وطريقة القويم **"فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ"** أي أقتدي أيها الإنسان العاقل الذى يرجوا الخير فى الدنيا والاخرة بهدى أولئك الذين هداهم الله ، وسر على سنتهم حتى تتصف بصفاتهم ، وتتحلى بأخلاقهم وآدابهم التى تتجلى فى قوة إيمانهم وعظيم صبرهم وصدق إخلاصهم . فتكون فى معيتهم فى الحياة الدنيا ، وتحشر معهم فى الآخرة وهذا هو الفوز العظيم.

قوله تعالى : **"قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا"** أي قال يا محمد لأهل مكة وللناس جميعا أني لا أبغي بما جئتكم به من قرآن وتوحيد وأنباء غرض من الأغراض الدنيوية ولا علة من العلل البشرية ، ولا أسألكم عليه جزاء من مال أو ملك أو رياسة أو غيره مما تظنون ، والخطاب وأن كان خاص برسول الله ومعاصريه من الكافرين ، إلا أنه عام يشمل كل داعي من دعاة الحق إلى يوم الدين.

قوله تعالى : **"إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ"** أي أن كل ما تحدثت إليكم به وأخبرتكم عنه ، وبينت لكم حقيقته فى قرآن يتلى عليكم ، ليس فى حقيقته إلا ذكرى للعالمين ، ولما كانت الذكرى لا تكون إلا بعد نسيان ، يكون المعني هو تذكيركم بأيام الله وعهوده التى عاهدكم بها قبل إيجادكم فى هذه الحياة ، ويجوز أن يكون المقصود بالعالمين عالم الجن في خفائه وعالم الأنس فى ظهوره ، وكما يجوز أن يكون المقصود عالم الحاضر القائم بمعاصرى رسول الله وعالم المستقبل القادم بعد انتقال رسول الله وإلى ما شاء الله ، كما يجوز أيضا أن يكون المقصود بالعالمين عالم أهل التسليم من المؤمنين الذين يصدقون كل داع إلى الله فى كل زمان ومكان ، وعالم أهل العناد من المكذبين الذين يكذبون كل داع إلى الصلاح والإصلاح لأنهم من المفسدين الذين لا يرغبون غير الفساد والإفساد بديلا.

وكعادتنا لا نخلى تفسير هذه الآية من ذكر ما تحويه عباراتها من إشارة تشير إلى أن الدين واحد لم تتغير حقيقته من لدي آدم إلى محمد الأمين رسول الله وخاتم النبيين ، فالدين مبنى على قواعد أربعة لا تتغير بتغير الأنبياء والرسل ، ولا بتغير الزمان والمكان ، ولا بتغير اتباع الرسل وورثتهم القائمين بحمل رسالتهم إلى يوم الدين.

1- القاعدة الأولي : هى الإيمان بوحدانية الله تعالى وعقد القلب على توحيده خالصا لا تشويه شائبة من شرك ظاهر أو خفي.

2- القاعدة الثانية : عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى خلق كل شئ منعدم وعلى غير مثال سبق ، وأن تكون عبادته وفق مناسكه التى ارتضاها لنفسه ، وبلغتنا بالتواتر عن أنبيائه ورسله.

3- القاعدة الثالثة : هى المعاملة الطيبة الفاضلة المتمثلة فى علم الصالحات وارتباطها بعقيدة الإيمان فى معظم آيات القرآن.

4- القاعدة الرابعة : هى الأخلاق الحميدة التى مدح سبحانه رسوله وخاتم أنبياءه بها قوله **"وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ"**[1] فالله تعالى يحب من خلقه من كان على خلقه.

هذه هى قواعد الدين التى لم تتغير ولم تتبدل من عهد آدم إلى عهد محمد ابن عبد الله عليهما الصلاة والسلام ، وما على الإنسان إلا الاقتداء بمن هداهم الله إليها فعملوا بها ، والمشار إليهم فى قوله سبحانه "أولئك الذين هدي الله فبهداهم أقتده" أسأل الله تعالى أن يمنحني وإخواني المؤمنين حسن الاقتداء بالأنبياء والمرسلين ، وأن يجعلنا قدوة حسنة لمن هداهم الله من عباده اللاحقين إلى يوم الدين.

قوله تعالى : **"وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ"**(91).

([1]) سورة القلم : 4.

يقال أن من أسباب نزول هذه الآية ما رواه ابن حاتم عن سعيد ابن جبير أن حبرا من أحبار اليهود يقال له مالك أبن الصيف جاء إلى رسول اللهε فخاصمه وجادله جدال المنكرين عليه رسالته ، فقال له النبي فى نهاية الجدال "أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل نجد فى كتابكم أن الله يبغض الحبر السمين" وكان اليهودي حبرا سمينا فغضب وقال "ما أنزل الله على بشر من شئ" فقال له أصحابه "ويحك ، ولا على موسى ؟؟" فأنزل الله قوله تعالى **"وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ"** أي ليس فى قدرة مخلوق من الأنس أو الجن أو الملائكة أن يصف الله بوصف يليق بذاته العلية ، كما لا يستطيع أحد من الخلق أن يعظم الله تعظيما يبلغ حقيقته سبحانه.

قوله تعالى : **"إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ"** أي إذ كان قول الجاهلون بقدر الله وقدرته – فى مجال جدالهم وتكذيبهم وإنكارهم – ما أنزل الله على بشر كتبا ولا صحفا ولا أخبارا ولا شئ على الإطلاق **"قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى"** أي قل يا محمد لليهود وأمثالهم من المنكرين ، إذا كنتم تنكرون إنزال الله للكتب على البشر ، فمن الذى أنزل التوراة على موسى الكليم ، وجعله **"نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ"** فى زمن موسى عليه السلام ، ينير لهم به سبيل الخير وطريق الرشاد ويهديهم به إلى الصراط المستقيم.

قوله تعالى : **"تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا"** أي تكتبون أحكام التوراة فى أبواب متفرقة كل باب على حدة تجعلونها مجزأة فى كتيبات صغيرة لكي تظهرون للناس منها ما يتفق مع أهواء نفوسكم وحسب أغراضكم **"وَتُخْفُونَ كَثِيرًا"** أي وتكتمون من كتاب التوراة أحكاما وأخبارا كثيرة مما لا يتفق مع مصالحكم المادية الزائلة مثل صفات النبيε والتنبأ ببعثته وهجرته وأثبات رسالته وغيره من الأحكام التى تطبقونها على فقراءكم وضعفاءكم وتخفون أمرها إذا أريد تطبيقها على أغنياءكم وأقوياءكم.

قوله تعالى : **"وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ"** أي وقد جاءكم رسولنا محمد الذى كنتم تستفتحون به على الكفار والمشركين يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون به أنتم ولا أباؤكم مما أخفاه عنكم أحباركم من التوراة فأنكرتموه وكذبتموه حسدا من عند أنفسكم.

قوله تعالى "قل لله" أي قل لليهود والنصارى وكل كافر ومنافق وكل ناكر ومكذب ومعاند أن الله تعالى هو الذي أنزل علي القرآن لأنذركم به كما أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى وصحف إبراهيم وغيره من النبيين **"ثُمَّ ذَرْهُمْ"** أي أتركهم فى إنكارهم وتكذيبهم وجحودهم ودعهم **"فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ"** أي فى جهلهم وباطلهم يلعبون مثل الأطفال السفهاء بعيدين عن تدبر أهل الفكر من العقلاء.

وفى طي هذه الاية إشارة فى قوله "وما قدروا الله حق قدره" فقد وقفت دونه جميع المخلوقات ، وتأدبت أمامه جميع التصورات ، وكلت عن إدراك قدرة العقول ، وعجزت عن القرب منه كل علماء الأصول ، وسجدت بين يدى عظمته كل الرؤوس ، ومحقت من شدة أنوار قداسته كل النفوس ، فقدره جل شأنه أكبر من جميع الموجودات ، ودونه وقفت كافة المخلوقات فما بالك بحق قدره الذى لا يصل إلى وصفه بيان ، ولا تحبير مكتوب ولا تغبير لسان ، ولا علم عرفان بواسطة الجنان ، وكفى أنه ليس كمثله شئ ، وكل ما سواه شئ ، فيكف تقدره الأشياء وهو فوقها لا نهاية من العلياء ، فيجيب إذا أن ندع تقدير قدر الله ، ونسلم له التسليم الكامل بكل معناه ، ففي التسليم كل السلامة ، والبحث فيما فوق إمكانياتنا ضياع للوقت وعاقبته الندامة ، فإن قال سبحانه أنه سميع بصير صدقنا وسلمنا ، وأن قال أنه

معنا وأقرب لنا من حبل الوريد آمنا وراقبنا أنفسنا تأدبا مع ربنا ، مع كامل التنزيه والتقديس والتسبيح لجنابه العلي.

قوله تعالى : **"وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ"**(92).

بعد أن بين الله لنا فى الآية السابقة أن تقدير الخلق لقدر الحق هو عين المستحيل ، وأعلمنا بإنكار اليهود ومن سار على دربهم لنزول الكتب السماوية ، وأقام الحجة على كذبهم بتوضيح الاختلاف بين عقيدتهم وأقوالهم، شرع فى هذه الآية يثبت إنزاله سبحانه لكتابه على رسوله وخاتم أنبيائه فقال جل شأنه **"وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ"** أي أن كنتم تنكرون نزول الكتب السماوية على الرسل السابقين ، وأنتم مطمئنون لأنهم عليهم السلام ، ليسوا موجودين فيقدمون دليل نزول الكتب عليهم ، كما لا يستطيعون إقامة الحجة على صدقهم لأن هذا ليس زمن رسالتهم ، فاليكم هذا الكتاب الذى أنزلناه على عبدنا ورسولنا **"مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ"** أي خيراته كثيرة لا تعد ، ومعانيه عديدة لا تحد ، ورحماته لا تحصى ، وبركاته لا تستقصي ، يثبت فى آياته صدق الكتب السابقة ، وفى عجزكم عن الاتيان بمثل أقصر سورة من سوره هى حجة قائمة على إنزاله من لدن حكيم عليم.

قوله تعالى **"وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا"** ، أي لتعظ وتحذر وتنذر سكان مكة وسكان كل القرى التى حولها ، ومن حول التى حولها ، حتى يعم التحذير والوعظ والنذير الناس أجمعين إلى يوم الدين.

قوله تعالى **"وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ"** أي والذين بوعظهم تشييع الموتى إلى القبور واتخاذهم هذا دليل على حتمية الفناء ، ويؤمنون بالبعث فى الآخرة التى هي دار البقاء ، يؤمنون كذلك بهذا الكتاب وصدق آياته ، ويستدلون به على نزوله من عند الله على رسوله وخاتم أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم جميعا.

قوله تعالى **"وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ"** أي أن علامة إيمان المؤمنين ودليل صدقهم ، هو المحافظة على صلاتهم فى أوقاتها المعلومة ، وبمناسكها المرسومة ، محافظة توجب عليهم حسن القيام بجميع أركان الإسلام ، لأن من حافظوا على صلاتهم دون أقل تهاون ، كانوا لغيرها أحفظ ، ومن ضيعوا صلاتهم كانوا لغيرها أضيع ، هذا إذا قرأت صلاتهم بفتح الصاد ، أما إذا قرأت بكسر الصاد فيكون المعني وهم على صلاتهم بربهم وكتبه ورسله وإخوانهم المؤمنون – يحافظون محافظة قائمة دائمة فى كل نفس لا تنقطع أبدا ، أسأل الله تعالى أن يمنحني وأخوتي المؤمنين حسن المحافظة على صلاتنا سواء بفتح الصاد أو بكسرها أنه رب قريب مجيب الدعاء.

ولا نخلى تفسير هذه الآية من بيان إشارتها إلى إنزال الكتاب من سماء القدس الأعلى إلى أرض بيت الله المعمور بالله ، وهو قلب رسول اللهε ، والكتاب المشار إليه فى هذه الآية هو القرآن الذى تلقاه رسول الله بقلبه ثم تلاه بلسانه على مسامع قومه ، ومعلوم أن التلقي بالقلب يكون بغير حرف وبغير صوت !! والتلاوة يتحتم فيها وجود الحرف والصوت ، فكيف فهم رسول الله معني القرآن وتلاة علينا باللسان ؟؟!! لا شك أن ذلك كامن طي الاسمين الرحمن الرحيم ، فبسرهما يسمع الإنسان كلام الله القديم ، ويبصربهما كتاب العليم الحكيم ، سر قوله تعالى وهو أصدق القائلين "الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان" أي أن الله بأسمه الرحمن علمنا القرآن ونحن لا نزال أرواح فى عالم الأمر ، وباسمه الرحيم وفقنا لتلاوته بيانا ونحن بشر فى عالم الخلق ، فالفضل منه سبحانه وإليه يرجع الأمر كله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن أسرار هذه الآية أيضا البركات المشار إليها فى قوله تعالى "وهذا كتاب أنزلناه مبارك" فالبركة هى سرعة النماء مع كثرة العطاء ، والقرآن بهذا المفهوم مبارك فى معانيه الباطنة ، وفى الفاظ كلماته الظاهرة ، سريع النمو فى حكم أحكامه ، من عمل بها ربح ونجا ، ومن تركها خسر وهلك ، كما أنه كثير العطاء فى علومه وأسراره ، وتجليات أنواره ، ففي كل آية من آياته ، وكل كلمة من كلماته ، بل وفى كل حرف من حروفه علوم لا تنتهي أبد الآبدين ودهر الداهرين ، لأنه جمع علوم الملك فى ظاهره ، وعلوم الملكوت فى باطنه ، وكل أحكام سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية فى حده، واطمئنان القلوب وحياة الأرواح في مرابع مطلعة . وسبحان من هذا كلامه **"قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا"**[1] فبركات القرآن فوق بركات الأكوان ، لأن الكون كله كلمة منه وهى قوله تعالى "كن" التى وجد بها العرش وما طوى ، والكرسى وما حوى ، والسموات وما وسعت ، والأرض وما أقلت ، وكل المخلوقات مهما تعددت وتنوعت ، ولهذا قال العارفون بالله تعالى لقد جهل القرآن من وقف عند حروفه المعدودة وألفاظة المحدودة ، وآياته المكتوبة بمعانيها الظاهرة ، الدالة على أحوال الدنيا والآخرة .. وذاق حلاوة بركاته ، من غاص فى أعماق بطون كلماته ، وساح بروحه فى غيب أسراره ، فأجتباه ربه وأطلعه على مراده ن وهنا يعجز اللسان ويقف البيان عن إيضاح معني كلمة واحدة ، لأن ما بين العبد وربه فوق العبارات البيانية ، بل وأعلى من إمكانيات الإشارات الإيمانية أسأل الله أن يمنحني وأخوتي المؤمنين ، نورا من ساطع حق اليقين ، نذوق به قبسا من غيب القرآن المبين ، أنه سبحانه بعباده لرؤوف رحيم.

قوله تعالى : **"وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ"**(93).

بعد أن بين الله تعالى فى الآية السابقة أنه هو الذى أنزل القرآن مباركا ومصدقا لما بين يديه من الكتب السابقة ، وجعله نذيرا لأهل مكة ومن حولهم من الناس أجمعين ، ثم بين أن المؤمنين بالآخرة هم المؤمنون به سبحانه ، ووصفهم بأنهم الذين يحافظون على صلاتهم بكونها صلاة تقرب وعبادة وليست مجرد تقليد أو عادة . شرع سبحانه يبين لنا فى هذه الآية أن أظلم الظالمين من الناس هم الذين يفترون على الله كذبا ويقولون بهتانا وزورا أنه نزل عليهم وحي من الله ، أو أنهم يستطيعون أن يأتوا بمثل ما أنزل الله فقال تعالى **"وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا"** أي ومن أشد ظلما فى الناس لنفسه وغيره ممن أخترع زورا وابتدع كذبا على الله غير الحق **"أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ"** أي أو أدعي أن الله أوحي إليه برسالة مع أنه فى الحقيقة لم يوح إليه شئ **"وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ"** مع أنه لا يستطيع تحقيق ما قال به كما لا يمكنه إنجاز ما وعد لأنه أعلم الناس بمدي كذبه وافترائه غير الحق ، وهذا منتهي الظلم للنفس وللغير.

قوله تعالى **"وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ"** أي ولو ترى أيها الإنسان الصادق المصدق بما أنزل الله تعالى هؤلاء الظالمون المكذبون وهم في حالة الموت عندما تغشاهم سكراته وتغمرهم شدائد آلامه وهوانه **"وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ"** أي والملائكة الموكلين بقبض الأرواح باسطوا أيديهم إليهم بالتعذيب الآليم ويقولون لهؤلاء الظالمون تعنيفا لهم وزجرا قدموا أنفسكم إلينا لكى تنالوا جزاء ما قدمت أيديكم.

([1]) سورة الكهف آية : 109.

قوله تعالى **"الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ"** أي اليوم هو يوم جزاءكم بالعذاب الشديد والهوان لكم عقاب على ظلمكم **"بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ"** أي أن هذا العذاب والهوان بسبب قولكم الباطل وكذبكم على الله ، وادعائكم أنكم أنبياء يوحى إليكم وينزل عليكم قرآنا **"وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ"** أي ولم يكن قولكم الزور والبهتان هو جريمتكم الوحيدة بل كنتم تستكبرون على الإيمان والبهتان هو جريمتكم الوحيدة بل كنتم تستكبرون على الإيمان والقرآن المنزل على رسول الله وخاتم أنبيائهع وهذا هو الظلم المبين.

ولا نخلى هذا المقام من ذكر إشارته إلى الظلم ومراتبه ودرجاته ن لأن الظلم درجات فوق درجات وطبقات تعلوها طبقات ، ففوق كل ظالم من هو أظلم منه ، وأسلوب الاستفهام الاستنكاري فى قول الله تعالى "ومن أظلم ممن أفتري على الله كذبا" يفيد أن قمة الظلم هي الكذب على الله ،لأن الله تعالى لا نهاية له سبحانه فيكون الكذب عليه ظلم لا نهاية لبشاعته ولا يوجد من هو أظلم ممن أقترف جريمته.

وفى الآية إشارة أخرى تشير إلى قضية التطرف الشديد سواء إلى نهاية اليسار أو إلى نهاية اليمين ، حيث أن النفوس البشرية رغم تعددها وكثرتها واختلاف أنواعها وتفاوت درجاتها ، أما أن تكون ظلمانية يكدر صفوها الكبرياء والشرك والكفر مما يدفعها إلى البغي والكذب والمزور فتدعي ما ليس لها بغية الفساد والإفساد ، وأما أن تكون نورانية تتحلى بالتواضع والإيمان والشكر ، فتشرق على مرءآتها أنوار العلوم والأسرار ، وتنطق ألسنتها بالحكمة وحسن البيان دون أن تفل بما تقول ، مما يجعل شياطين الجن والأنس يترددون إلي أصحاب هذه النفوس ، ويتملقونهم بسوق المديح لهم جزافا ، صباحا ومساء ، على الصغيرة قبل الكبيرة ، حتى يصيبهم الغرور ، ويستولي عليهم الشيطان ، ويسول لهم أنهم فوق البشرية قدرا ، وأنهم مكلفون من قبل الله بإصلاح أحوال الناس قهرا فيكونوا وبالا وشرا على أنفسهم وأهليهم بل والناس طرأ ، نسأل الله تعالى أن يحفظنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا أنه نعم الحفيظ العليم.

قوله تعالى : **"وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ"**(94).

واضح أن هذه الآية مرتبطة بالآية السابقة من حيث ان الله تعالى بعد أن وصف الظالمين من المتطرفين الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم بارتكابهم أعلى درجات الضرر والإضرار ، بين حالهم الحسي عند الموتة الكبرى وكيفية قبض الملائكة لارواحهم وإخراج أنفسهم ، ناسب أن يذكر فى هذه الآية حالهم بعد الموت وما يقع لهم من التأنيب من المشركين والكافرين فقال تعالى **"وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ"** أي ولقد تحقق رجوعكم إلينا وحضوركم لدينا واحدا واحدا منفردين مجردين من الأعوان والأهل والمال والأرباب ، وعدتم . كما خلقناكم أول مرة ذرات من عناصر الأرض والتراب ، **"وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ"** أي وفارقتم كل ما ملكناكم من متاع الدنيا ، وكل ما وهبناكم من وسائل السمع والبصر والإدراك وغيرهم من معالم جسمانية ، وتركتم كل ذلك خلف ظهوركم **"وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ"** أي وليس معكم نصير ولا معين ولا شفيع من أربابكم **"الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ"** كذبا وزورا وأدعيتم أنهم استحقوا منكم عبادتهم وأشركتموهم مع الله فى الألوهية فبئس ما صنعتم من جهولية.

قوله تعالى **"لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ"** أي لقد تفرق جمعكم وتشتت شملكم وأنقطع كل ما كان بينكم وبين أربابكم التى كنتم بهم تشركون **"وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ"** أي وغاب عنكم كل معبود لكم كما

ذهب كذلك كل ما زعمتم على الله زروا وبهتانا فأدخلكم فى دائرة الضالين ، نعوذ بالله من موجبات غضب الله ونسأله الحفظ والسلامة من كل ضلالة.

ولا نخلى هذه الآية من ذكر إشارتها التى تبين لنا مدى وسعة الله فى خلقه ، والتى جعلت كل فرد من بنى الإنسان شخصا منفردا فى ذاته وصفاته وشمائل أخلاقه ، بل وفى رسمه ولونه ، فلا تجد فى الوجود كله من أول آدم عليه السلام حتى آخر موجود فى هذه الحياة شخصا يماثل غيره تمام المماثلة سواء فى صورته الجسدية المادية ، أو صورته الروحية المعنوية ، وقد ظهر ذلك فى وضوح تام من حيث اختلاف بصمات كل بنان ، وتفاوت النفوس فى عقيدة الإيمان ، فمن يؤمن بالله تعالى نراه يكفر بما دونه من طاغوت ، ومن يؤمن بالطاغوت فقد يكفر بالله تعالى ، ولله فى خلقه شؤون لا يعلمها إلا هو فهو الواسع فى قدرته الحكيم فى مراده وعلمه.

وتوجد إشارة أخرى ذوقية روحية فى قول الله تعالى "كما خلقناكم أول مرة" تفيد أن خلق الإنسان فى البداية كان فى حقيقته فردا معنويا نورانيا فى سورة لطائف روحية صافية تسمع كلام الله تعالى بأسمه السميع ، وتبصر وجه الله تعالى باسمه البصير ، وتسبح فى عالم الملكوت باسمه النور ، وبهذا سمع الناس أجمعين ، كلام الله تعالى يوم أخذه ميثاق النبيين ، وتعرفوا على هؤلاء الذين سيبعثون إليهم أنبياء ومرسلين ، فى عالم الملك والتكوين من ذرات عناصر الطين ، وفقهوا خطاب ربهم يوم أن خاطبهم "ألست بربكم" فأقروا بربوبيته ، واعترفوا بألوهيته ، وسلموا لأنبيائه ورسله ، وقد اثبت القرآن ذلك فى قوله تعالى **"وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ"**[1] ولما كانت "ثم" فى لغة العرب تفيد التعقيب والترتيب للزمن البعيد ، كان معنى ما بيناه من أطوار الإنسانية أمرا واضحا وجليا ، وسنعود حتما إلى ما كنا عليه فى الطور الأول مصداقا لقول الله تعالى **"كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ"**[2].

قوله تعالى : **"إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ"**(95).

قوله تعالى : **"فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ"**(96).

بعد أن بين الله لنا فى الآية السابقة حتمية عودتنا إليه فى صورة فردية لا ازدواج فيها كما كنا فى الخلق الأول ، ناسب أن يبين لنا فى هاتين الآيتين حتمية الازدواج فى الحياة الدنيا فقال سبحانه **"إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى"** أي أن الله تعالى هو خالق جميع الحبوب بكل أنواعها مفلوقة فلقتين ، فى مثنوية مزدوجة لكي يحافظ كل نبات على نوعه ، بواسطة الجنين الكامن بين فلقتي حبه ، ثم ذكر النوى لأنه بكل أنواعه خارج دائرة الحبوب وأن كان يشترك معها فى صفة الفلق ، وهذا أمر واضح محسوس وملموس ينبهنا الله إليه لكي نرى بأعيننا مدة قدرة الله تعالى فى إخراج سنابل الغلال من جنين الحبوب وإخراج النخل الباسق من جنين النواة الميتة.

قوله تعالى **"يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ"** أي يجعل الأشياء الحية تخرج من الأشياء الميتة ، كما يجعل الأشياء الميتة تخرج من الأشياء الحية ، وهذا واضح جلى لا يحتاج إلي ذكر أدلته ، خصوصا إذا اتفقنا على تعريف الحى بأنه الشئ الذى يتحرك بذاته ، وينمو بذاته وغذائه ، وإنما يحتاج فى حركته ونموه إلى غيره.

([1]) سورة الأعراف آية : 11.

(2) سورة الأنبياء آية : 104.

قوله تعالى **"ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ"** أي ذلكم الله ربكم ورب أبائكم ، وقد أخرجكم من أصلابهم كما أخرج أبناءكم من أصلابكم ، وهو الذى يبدئ الخلق ثم يعيده ، ويوجد الحى من الميت ويوجد الميت من الحي ، وينشأ الوجود من معدوم غير موجود ، فكيف تكذبون بقدرته وتعرضون عن الإيمان بقوته ، رغم قيام تلك الأدلة التى تبرهن على فرديته وتثبت وحدانيته.

قوله تعالى **"فَالِقُ الْإِصْبَاحِ"** أي وهو أيضا وليس غيره الذى يشق شقا بين ظلام الليل ونور النهار ويخرج من بينهما ضوء الصباح **"وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا"** أي وهو الذى أوجد ظلمة الليل وجعله وقتا للسكن تنام فيه الخلائق وتستريح من تعب الكد فى طلب الرزق.

قوله تعالى **"وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا"** أي وجعل الشمس والقمر يجريان فى منازل مقدرة بحساب لا خطأ فى نظامه ، ولا تغير فى أوقاته حسب فصول السنة ، فلا تقديم ولا تأخير فى حركتهما المقدرة المحسوبة بالأيام والشهور ، فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون **"ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ"** أي وكل ما سبق ذكره من فلق الحب والنوى وغيره مثل فلق الصبح وأخراج نوره ، وتكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل ، هو من فعل قدرة الله وحكمته وسابق علمه ومشيئته ن فليس كمثله شئ فى عزته ، وقد أحاط علمه بكل ما كان وما يكون ، وقد أبرز تلك الآثار لنشهد فيها تجليات أسمائه وصفاته ، ونستدل بها على غيهب الغيب الذى يحجب عنا معرفته ذاته سبحانه وتعالى.

وكما هى عادتنا نرى أن تعقب على تفسير الآيتين بذكر ما تسيران إليه من وحدانية الواحد الأحد الفرد الصمد جلت قدرته وعلت حكمته ، فإنا على يقين من أنه لو أجتمع نفر من العلماء العاملين فى كل مجالات الحياة من أهل الإحسان المؤمنين بالله ، وتدارسوا بينهم مدلول كلمات خلق وفلق وجعل وقدر وأخرج وأبرز وأوجد إلى آخر هذه المترادفات ، ويحاولون تطبيق ما يعلموه من شؤون معنوية على ما يروه من أشياء مادية ، لظهر لهم حتمية المثنوية والزوجية فى كافة الخلق ، ورأوا بعيون رؤوسهم معنى قول الله تعالى **"سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ"**[1] ولتحققوا بيقين صادق من وحدانية الله الحق وعرفوا به سبحانه معني قوله تعالى **"قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ"**[2] ولو حاولوا تجربة الصواب من الخطأ فى إدراك سر المثنوية فى المخلوقات لتكشف لهم علوم وأسرار تعجز كل ما وصل إليه علماء الغرب ، لأن سبب تأخرنا علميا راجع فى المقام الأول فى تفريقنا بين وسائل علم الدين ووسائل علوم الدنيا حتى جهلنا سر إخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحي وسر فلق الحب والنوى ، وسر المثنوية والتزاوج فى كل ما حوى الوجود وما عليه أنطوي ، أسأل الله تعالى أن يهيأ الأسباب التى تدفع علمائنا إلى البحث فى كافة العلوم المادية من نباتية وحيوانية وظواهر طبيعية وبشرية الخ . الخ . حتى يعود لنا مجد أسلافنا حيث كانوا ولم يكن سواهم أحد ملئ السمع والبصر.

قوله تعالى : **"وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"**(97).

قوله تعالى : **"وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ"**(98).

([1]) سورة يس آية : 36.

(2) سورة الإخلاص : 1 – 2 – 3 – 4 .

قوله تعالى : **"وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"**(99).

لما كان تفصيل المجمل سنة من سنن القرآن المنزل ، شرع الله سبحانه يفصل لنا فى هذه الآيات الثلاثة ما أجمله فى الآيتين السابقتين فقال تعالى **"وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ"** أي انظروا أيها الناس إلى نجوم السماء وكواكبها التى جعلها الله فى مواقعها هداية لكم حال سفركم سواء كنتم فى صحراء البر سائرين ، أو فوق السفن فى البحار ماخرين **"قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"**أي قد بينا ووضحنا وفسرنا وشرحنا تلك الآيات القرآنية ، التى تشير إلى هذه العلامات السماوية والكواكب العلوية ، لأهل البحث والفهم لكل ما تسمع آذانهم ، والنظر باعتبار وإدراك لكل ما تراه أبصارهم ، فيعلمون حقائق ما يسمعون وما يبصرون بلطائف أفئدتهم.

قوله تعالى **"وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ"** أي وهو الله العليم القدير الذى أبدع خلقكم وإيجادكم على اختلاف إشكالكم والوانكم من صورة واحدة ذات روح واحدة وجسم واحد وهو أبوكم آدم عليه السلام.

قوله تعالى **"فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ"** يمكن القول أن المستقر هو أصلاب الآباء وأرحام الأمهات وهما من عالم الخلق ، والمستودع هو اللطائف المعنوية للأنوار الروحية التى من عالم الأمر ، فعالم الخلق نور تلون وعالم الأمر نور فى صفائه الأول أي أن كلاهما نور على نور ، وبناء عليه تكون الأرواح المعنوية بنورها الباطن طى شفافيتها هى المستودع ، وكذلك يمكن القول أن أيام الله تعالى وهي – يوم ميثاق الأنبياء ، ويوم ألست بربكم ، ويوم الذر فى أصلاب الأباء ، ويوم البطون فى أرحان النساء ، ويوم الظهور فى صور البشر ، ويوم الوفاة ودخول القبر ن ويوم الاستقرار فى عالم البرزخ – هذه الأيام السبعة هى المستقر ، والإنسان روحا وجسدا هو المستودع فيها إلى مستقرة الأخيرة.

قوله تعالى **"قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ"** أي بيناها بتفصيل بعد إجمال ، وشرحناها باسهاب بعد إيجاز ، ووضحناها بجلاء بعض غموض ، بحيث أصبحت ظاهرة **"لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ"** أي لرجال ينصتون لما يسمعون ، وينظرون بعيون العبرة لما يبصرون ، ويفكرون فى كل ما يرون ، حتى يفهمون بنور قلوبهم ويفقهون ، بل وقد يدركون حقيقة ماله يتعرضون ، من بحث فى أصل الأشياء وحقائق الشئون ، وسبحان من كان أمره بين الكاف والنون ، إذا أراد شيئا إنما يقول له كن فيكون.

قوله تعالى **"وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً"** أي وهو الله رب السماء وما أظلت ، ورب الأرض وما أقلت ، ورب الرياح وما اذرت ، أنزل من سماء رفعته ماء فضله ورحمته حيث أنزله قطرات فى صورة نقط لا تؤذى من يتعرض لها من الناس أو الحيوان أو النبات وقوله **"فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ"** أي فأظهرنا بالماء كل شئ وجعلناه أصل كل حي **"فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا"** أي فأوجدنا من النبات المروى بالماء خضرة تتفاعل مع الضوء والحرارة والرطوبة فتظهر ألوانا كثيرة لا نهاية لتفاوتها مع أن اللون الأخضر فى ذاته ليس لونا أصيلا ولكنه لون مركب من الأصفر والأزرق وهما اللونين الغالبين فى نور الشمس إذا أنعكس على الطيف أو حلل بواسطة الماس المصقول أو الزجاج المشطوف.

قوله تعالى **"نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا"** أي نخرج منه تلك الأشجار الخضراء حبوبا مختلفة الألوان والأحجام والأشكال متراكبة فى داخلها وبين فلقتيها جنين يحمل وراثة أنواعها وألوانها وأجسامها ، وسبحان من جمع الشجرة بكل أوراقها وأعضائها وفروعها وسيقانها وجزوعها وجذورها فى جنين قد لا يري بالعين المجردة.

قوله تعالى **"وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ"** أي ونخرج من النخل كل عام طلع يطلع من قلبها له لون أبيض مائل إلى الصفرة يصير إلى قنوان دانية فى صورة عراجين مدلاة تحمل ثمرها وهى المسماة عند المصريين بالسباط المتفرع إلى شماريخ تحمل البلح سواء كان أحمرا قانيا أو أصفرا فاقع لونه.

وقوله تعالى **"وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ"** أي ونخرج بالماء أيضا بساتين من أعناب وحدائق من كافة الفواكه وكذلك نخرج شجر الزيتون وشجر الرومان وغيرهم من أشجار **"مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ"** أي يشبه ما ذكرنا وغير متشابه به سواء فى شكل الشجر أو فى نوع الثمر أو يقاربة في الطعم واللون والحجم أو يختلف عنه فى كل ذلك **"انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ"** أي ابحثوا فى كيفية إثماره إذا أثمر ، وابحثوا فى أسباب عدم إثماره إذا لم يثمر ، وابحثوا فى أسباب نضجه وعدم نضجة إذا حصل شئ من ذلك **"إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"** أي لأن هذه هى رسالتكم فى الحياة الدنيا لكي تستدلوا بما ترون من آيات ، وتتكشف لكم من علوم وعلامات تعرفون بها قدرة الله وعلو وحكمته فتنفعون أنفسكم وتعرفون ربكم ن وتعبدونه بإيمان العارفين لا بإيمان المقلدين ، وتوجد فى هذه الآيات الثلاثة أسرا كثيرة وإشارات عديدة سبق لنا الحديث عن بعضها ، ولا نخلى هذا المكان من المزيد منها مستعينين بالله تعالى ونسأله سبحانه أن يفعنا بها ويعم المسلمين فى كل مكان بخيراتها.

الإشارة الأولى كامنة فى قوله تعالى "جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر" فالمقصود بالظلمات هنا ظلمات الجهل بمنافع النجوم والكوكب السماوية وتأثيرها فى رمال البر وصخوره ومعادنه ونباتاته وكافة أحيائه ، وكل مياه البحر وفوائده العديدة التى لم نعرف منها سوى بعض عجائبه . لأنه لو كان المقصود بظلمات البر والبحر تلك الظلمات المعروفة لكل مخلوق على وجه الأرض لقال سبحانه لتهتدوا بها فى ظلام الليل حال السفر والترحال وفى كافة الأحوال . ومن هذا المنطلق أدعو المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، أن يشمروا سواعد الجد فى البحث عن منافع النجوم وفوائدها عسى أن يزدادوا إيمانا على إيمانهم بعد المعرفة بمدى قدرة الله ربهم.

وهناك إشارة ذوقية ثانية منطوية طي ختام الآيات الثلاث فقوله تعالى "لقوم يعلمون" فى ختام الآية الأولي ، وقوله سبحانه "لقوم يفقهون" فى ختام الثانية ، وقوله جل شأنه "لقوم يؤمنون" فى ختام الآية الأخيرة يفيد بهذا الترتيب أن البحث العلمى مقدم على الفقه ، والبحث فى العلم وفهمه مقدمان على الإيمان ، بمعني أن المسلم إذا لم يكن عالما متفقها في كل ما يحيط به كان إيمانه ناقصا وغير كامل بدليل قوله العليم الخبير سبحانه **"قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ"**[1] وهذا يبين لنا السبب فى أن تمسك اليهود والنصارى بتعاليم دينهم يؤخرهم ويهزمهم ، وتركهم له فيه تقدم وانتصار لهم ، وذلك عكس المسلمين الذين إذا تمسكوا بتعاليم الإسلام تقدموا وانتصروا ، وتركهم له وراء ظهورهم فيه تأخر لهم وهزيمة لما بعدها هزيمة نسأل الله تعالى أن يعيد إلى الإسلام رجال علماء عاملين ، يفقهون العلم وبه يعلمون ، ويؤمنون بالله تعالى إيمان الصادقين المخلصين.

وإشارة ثالثة ترمز إلى سر أحدية الله وغيب ذاته العلية ، مع تجليات أسمائه الإلهية وصفاته الربانية . تنطوي طي قوله سبحانه "وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة" فقد خلق الله جميع البشر على كثرتهم العظمي فى العدد والمدد من شخص واحد فقط هو آدم أبو البشر ن ورغم أن ذريته تملأ الأرض ولا تزال تزداد إلى ما شاء الله تعالى ، فآدم لم ولن يضيع شئ من ذرات جسمه ، ولا نقصت

([1]) سورة الحجرات آية : 14.

لطيفة من لطائف نفسه . ولم تتجزء طاقات روحه ، وإنما تغير من حال إلى حال وسيعود يوم القيامة إلى ما كان عليه فحياته صورة آدمية بشرية لا ينقص من ماديتها شئ ، ولا يغيب من شئونها أمر ،وهذه آية من آيات الله تعالى تتكرر فى أبناء آدم كل يوم ونحن عنها غافلون ، وقد ضرب الله لنا بذلك المثل على وحدانيته وله سبحانه المثل الأعلى ، فرغم تعدد أسمائه وصفاته وتجليات الكثير منها فى خلقه إلا أنه جل شأنه فى ذاته واحد أحد فرد صمد لم يتغير ولن يغير وإنما يغير فى خلقه ويبدل وليس كمثله شئ وقد لفت الله تعالى أنظارنا إلى تجدد هذا المثل فى كل زمان ومكان بيننا بقوله جل شأنه **"ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ"** [1].

وهناك إشارة رابعة تثير فينا حب البحث والاستطلاع ، فنستعمل العقول فى اكتشاف كل مجهول ، ونعلم سر التلوين وكيفيته ، وسر الماء وخاصيته ، وسر التكوين وبدايته ، وأنواع الحبوب وتراكيبها ،وتعدد الأشجار وتغير ثمارها ، وتنوع الطعوم وتطور روائحها ، وبذلك نزداد إيمانا فى كل يوم ، بقدرة الله الواحد الأحد الحي القيوم ، ونتحقق من عجزنا عن شكر ربنا ، فنستعين به على ذكره وشكره وحسن عبادته سبحانه وتعالى.

قوله تعالى : **"وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ"**(100).

قوله تعالى : **"بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"**(101).

قوله تعالى : **"ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ"**(102).

بعد أن بين الله فى الآيات الثلاث السابقة دلائل قدرته فى خلق الناس وخلق ما يمدهم به من قوت ، وحثهم على تقليب النظر فيما يرون ، مع التفكر والبحث فى حبوب النبات ، وطلع النخيل ، وثمر الأشجار ، شرع سبحانه يبين لنا فى هذه الآيات الثلاث بطلان شرك المشركين ، وغفلة الكافرين ، وعقم تفكير الجاحدين ، فقال جل جلال **"وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ"** وكفى هذا القول ما استترفيه من توبيخ وتأنيب لهؤلاء المشركين ، الذين اشكروا مع الله بعض خلقه ، رغم وضوح كل تلك البينات الدالة على وحدانية سبحانه ، فقد توهم هؤلاء الغافلون أن للجن قدرة على النفع والضر، فعبدوهم بعد أن جسموهم فى صورة أصنام من عمل أيديهم ، فإن تعجب فعجب من عقلية هؤلاء القوم الذين لم يدركوا أن الله تعالى هو الذى اوجدهم "وخلقهم" وما يعبدون ، وأنهم جميعا عبادا مربوبون لا حول لهم ولا قوة ، وأنهم جميعا إليه راجعون.

قوله تعالى **"وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ"** أي واختلفوا على الله كذبا أن له بنين وبنات جهلا منهم وظلما **"سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ"** بمعني تنزه وتقدس الله جل شأنه عما تقول به النصارى من أن عيسى ابن الله ، بعد أن فتنوا بمعجزة مولده ، وما تفضل الله عليه من معجزات تؤيده فى دعوته من أنه عبد الله ورسوله ، وما تقول به اليهود من أن العزير ابن الله وقد غرهم فى ادعائهم هذا ما تفضل الله عليه بمعجزة إقامة الدليل على البعث بعد الممات **"فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ"**[2]

---

(1) سورة الروم آية : 28.

(2) سورة البقرة آية : 159.

وكذلك تنزه الله وتعالى عما يقول به المشركون بالله **"وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ"**[1] حيث يدعون بأن الله أصطفي الإناث وخصهم بالذكور ، فبئس دعواهم وما يقولون.

قوله تعالى **"بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"** أي أن الله تعالى هو خالق السموات وكل ما أظلته ، وخالق الأرض وكل ما أقلته ، وخالق كا ما فيها وما بينهما فى إبداع تنزه عن العوج والنقص والتفاوت **"أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ"** أي كيف يتصور عقل أن يكون له ولد وهو سبحانه واحد أحد ليس كمثله شئ **"وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ"** بقدرته ومشيئته وعلو حمته **"وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"** أي أحاط بكافة الأشياء صغيرها وكبيرها ، ظاهرها وباطنها ، أولها وآخرها ، في سابق عمله الأزلي ، وبالتالي لا يجوز أن يكون له زوجة وأولاد.

قوله تعالى **"ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ"** أي ذلك هو الله الذى أوجدكم وبمقومات الحياة أمدكم وفى الأرحام صوركم ، وهو ربكم الذى سواكم وشد أزركم على هذا النظام العجيب والرسم الغريب **"لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ"** أي لا إله غيره ولا ربا سواه ، ولا مساعد له فى كل ما أبدعه على غير مثال سبق ولا شبيه ولا نظير **"خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ"** فى هذا الوجود ، بيده الملك والملكوت ، **"فَاعْبُدُوهُ"** عبادة من يخشاه ، ويعلم أن لا معبود سواه ، فله الحمد والشكر ، والتسبيح والتقديس والخضوع لذاته فى ذلك وركوع وسجود.

قوله تعالى **"وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ"** أي وهو إلاله المشرف على كل شئ ، الحفيظ لكل شئ ، الوكيل المهيمن على كافة المخلوقات ، حى قيوم لا يفوت ولا يموت ، موجود دائم لا يغيب ولا يعيب سبحانه وتعالى تنزهت ذاته ، وتقدست أسماؤه وصفاته . وكما تعودنا نذكر فى ختام تأويل هذه الآيات بعض ما توحي به من إشارات . . .

الإشارة الأولى تبين أن العقل الإنساني الذى هو أفضل وأعلى مخلوق فى هذا الوجود ، إذا فقد نور بصيرته وضوء فكره واتبع شهوات نفسه ، ضل فى ظلمات جهله وانقلبت الحقائق أمام ملكاته ، فيتوهم العدم وجودا والوجود عدما ، ويتخيل الحق باطلا والباطل حقا فيحكم على المخلوق المقهور أنه خلاق قهار ، وعلى والوثن المصنوع بيده أو بيد إنسان مثله أنه رب قادر فعال ، وهذا ما أخبرنا الله به فى كتبه وعلى لسان رسله ، وتواتر إلينا فى أقوال الآباء عن الإجداد وقرأناه فى كتب المؤرخين ، ورأيناه فى أثار السابقين . ولا نزال فى عصرنا هذا نرى أمثال هؤلاء المجانين الذين يقدسون البقر فى كثير من بلاد الهند ، وآخرين يقدسون ملوكهم من أهل دول آسيا الأخرى مثل اليابان وغيرها ، كما نرى الكثيرين من سكان روسيا وأهل أوربا ينكرون وجود الاله الخالق لهذا الوجود ، ويعتقدون أنه وجد بطبيعته ، وبواسطة تفاعلات أيوناته مع عناصره وغازاته ، وتأثيرها بجاذبية الكواكب ونور الشمس وإشعاعاته ، وحكم قوانينها الطبيعية التى اتقنت كل شئ ، فالطبيعة هى التى أخرجت ، والطبيعة هى التى سوت ، والطبيعة هى التى لونت ، والطبيعة هى التى كونت الخ . الخ . فإذا سألهم سائل عمن أوجد كل هذا ووضع لها قوانينها التى تسير على مقتضاها قالوا الطبيعة ، قلنا ردا عليهم أننا متفقون على أن هناك قوة قاهرة فعالة عن إرادة وعلم ، ولها مشيئة عن قدرة وحكمة ، أرسلت إلينا الرسل فصدقناهم وآمنا بأنهم من عند الله ربنا ، وأنتم كذبتم بالرسل وقلتم بأنها الطبيعة ، فإذا سألناهم عن ماهية الطبيعة وكنهها ، قالوا لا ندرى عن حقيقتها شيئا ، قلنا لهم أن الإنسان فى زعمكم قد خلقته الطبيعة فى أعلى صور تطورها ، والإنسان حتى الآن قهر الطبيعة وتحكم فيها ولا يزال فى تطوره العلمي يكتشف وسائل قهرها أكثر وأكثر ، فكيف يتحكم المخلوق فى خلاقه وله يقهر ، هنا يصيبهم البكم وعي اللسان ، ويعجزون عن الحجة والبيان ، وصدق الله ربنا إذ يقول فى آيات القرآن **"وَلَقَدْ**

---

(1) سورة النحل آية : 57.

ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"[1].

وهناك إشارة أخرى تحذر أهل الإيمان بالله تعالى من الوقوع فى الغفلة والحجاب ، فيجرهم هذا إلى الشرك الخفى والأخفى ، حيث تحدث المؤمن نفسه بأن فلانا يضر وينفع ، وعلانا يعز ويذل ، وآخر يخفض ويرفع ، فقد ينساق وراء حديث نفسه خصوصا إذا تكرر ، حتى يقع فى الظلم والبأس والضرر ، ويدخل رغم إيمانه فى زمرة من قال الله فيهم **"وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ"**[2] ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وإشارة ثالثة تومي إلى قضية الإبداع الذى أدهش العلماء ، وأعجز عن الاقتراب منه فطاحل الشعراء ، وأخرص عن وصفه أهل البلاغة من الفصحاء ، وكيف لا وهو من أشراف نور البديع الذى أبدع العوالم واتقنها على أحسن نظام ، حتى يكاد المؤمن الذى بلغ مقام الإحسان أن يرى آله ظاهرا ولا شئ معه محيطا بكل ما حوله ومهيمنا عليه دون أن يكون ظرفا له وليس مظروفا به ، فتنادي بدائع السموات بأفصح لسان وهو لسان الحال قائلة أن ألها قادرا حكيما قد أبدعها ، وكذلك بدائع الأرض تقول بنفس اللسان أن هناك ألها قاهرا عليما قد أبدعها وهذا ما يشير إليه قوله تعالى **"وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ"**[3] ولولا نزاهته وقداسته وسبحانيته وعلوه عن مثلية الأشياء لرأيناه بعيون رؤوسنا ولكنه سبحانه ليس كمثلة شئ ، وليس له نظير ولا شبيه ولا مثيل ، ولا ند ولا ولد ، وذاته غيب فى غيب الغيب لا يعلمه إلا هو ، وتجليات أسمائه وصفاته فوق المدارك والعقول ، وهنا نمسك العلم عن الخوض فيما لا نعلم من ذلك المجهول.

قوله تعالى : **"لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ"**(103).

بعد أن أخبرنا الله تعالى فى الآتيين السابقتين ، أنه سبحانه خلق كل شئ وهو بكل شئ عليم ، وانه هو خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل ، وناسب أن يخبرنا فى هذه الآية بحقيقة الحقائق التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها بل ولا من أي جهة من الجهات فقال سبحانه وتعالى **"لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ"** لأن الإدراك معناه اللحاق ، فأدرك الشئ ببصره أي رآه ، ولما كانت وسائل الرؤيا أشياء ، والله تعالى ليس كمثله شئ ، فمن الطبيعي أن لا تدركه الأشياء وهو يدركها ، لأنه خلقها وهو بها عليم علم إحاطة تامة كاملة ، كما أنه خالقها وهو عليها وكيل وكالة دائمة لا تغيب عنها أبدا.

قوله تعالى **"وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ"** أي وهو البار بالأشياء العليم بما فيه صلاحها وما فيه فسادها ، والوكيل عليها وكالة تنفعها ولا تضرها ، والحفيظ على الأشياء حفظا قد لا تحس به الأشياء بذاتها ، فسبحانه تنزهت ذاته وتقدست أسماءه وصفاته ، وجل شأنه وعلا قدره ، وقد عجزت الخلائق عن حمده وشكره والثناء عليه بما هو أهل له.

ولا يفوتنا فى ختام تأويل هذه الآية أن نبين الفرق بين الإدراك والرؤيا ، فالرؤيا جائزة والإدراك مستحيل لأن الإدراك معناه الإحاطة ، أما الرؤيا بمعني النظر فقد يمنح الله من يشاء من عباده نورا فى فؤاده يرى به وجه الله حيث ما وقعت عيناه مصداقا لقوله تعالى **"وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ**

([1]) سورة الأعراف آية : 179.
([2]) سورة يوسف آية : 106.
(3) سورة الزخرف آية : 84.

وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"[1] أسال الله تعالى ان يمنحني وأخواني نورا من لدنه به نراه وأن يجعلنا فى الآخرة من الذى قال فيهم سبحانه **"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ"**([2]) أنه مجيب الدعاء.

قوله تعالى : **"قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ"**(104).

بعد أن بين الله فى الآية السابقة أنه لطيف لا تدركه الأبصار بحاسة البصر التى هى العين ، أمر سبحانه رسوله أن يخبر عباده بقوله تعالى **"قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ"** أي قد جاءكم من ربكم آيات مبصرة فيها علوم ومعارف تدرك بالعقول وتبصر بالأفئدة **"فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ"** أي فمن تدبر الآيات ، وتفكر فى المرئيات حتى يرى حقائقها بعيون فؤاده ، ويؤمن بما فيها من أدلة وبراهين ، ثم يعلم بمقتضى ماعلم وفهم فجزاء ذلك لنفسه وليس لغيره **"وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا"** أي ومن سهى بصره عن شهود ما حوله من آيات ، وغفل فكره عن تأمل ما تومى إليه من إشارات ، فهو أعمي البصر والبصيرة معا ، وعاقبة هذا العماء وذلك التعامي على نفسه لا على غيره ، أسأل الله تعالى أن يحفظني وإياكم من السهو والنسيان والغفلة والنكران.

قوله تعالى **"وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ"** هذه الآية من قول رسول اللهε بأمر من الله تعالى ، ومعناها قل يا محمد لمن عميت أبصارهم وبصائرهم فأعرضوا عنك وعن دعوتك أني لست رقيبا عليكم ، ولا قاهرا لكم ، إنما أنا نذير لكل من أعرض وكفر ، وبشير لكل من آمن وشكر.

ومن إشارات هذه الآية رمزيتها إلى عيون الرأس الظاهرة بكلمة "الأبصار" ، ورمزيتها إلى عيون الفؤاد الباطنة بكلمة "البصائر" ومصدر الكلمتين واحد ، وكذلك رمزت إلى فقد البصر والبصيرة بكلمة "العمي" فالأعمي هو من ذهب نور بصره فلا يرى شيئا ، والعمي هو من فقد نور فؤاده فلا يعلم شأنا ، ولهذا يقال للجاهل كثير الضلال والإضلال ما أعماه ، ولا يقال ذلك فى عمي عيون الحواس ، لأن ما لا يتزيد لا يتعجب منه ، ومن هنا يسهل علينا فهم معني الآية القرآنية الكرمية **"قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ"**[3]

نسال الله تعالى أن يجعلنا جميعا من خلصا أبتاعهε الهاديين المهدين ويحفظنا بفضله من الشرك والمشركين.

قوله تعالى : **"وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"**(105).

لما كانت كلمة "وكذلك" فى أول أي كلام تعنى ارتباطه بما قبله يكون معنى قوله تعالى **"وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ"** أي كما سبق أن قدمنا من الحجج والبراهين التى تدل على أحدية الخالق وقوته ومثنوية المخلوق وضعفه ، كذلك نأتي بالمزيد من الآيات المختارة التى تدل فى وضوح لا يشوبه غموض على أنك يا محمد رسول من عندنا وإنك وأنك على الحق البين وأن كره المشركون والمكذبون المبطلون.

قوله تعالى **"وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ"** أي وليقول أهل الكتاب من المتعصبين ، الذين كذبوك وأنكروا رسالتك ، كما يقول أهل الكفر من المشركين الذين حاربوك وهموا بقتلك ، أنك درست علوم الأولين ، وتلقيته من أفواه أتباعهم اللاحقين ، ثم جئتهم بهذا القرآن المبين **"وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"** أي ولنبين خطأ

([1]) سورة البقرة آية : 115.
(2) سورة القيامة آية : 23.
([3]) سورة يوسف آية : 108.

من قالوا أنك درسته أو تلقيته عن قوم آخرين ، وحجتنا واضحة وبرهاننا مبين ، حيث إنك مكثت فيهم من قبله من عمرك سنين ، وقومك كلهم يعلمون ، أنك أمي قد نشأت فى قوم أميون ، وقد تلقيت هذا القرآن العظيم من لدن حكيم عليم ، بدليل تحديك للناس أجمعين أن يأتوا بمثل أقصر سورة من سوره أو يحاكوا آياته ، ولن يزال هذا التحدي قام إلى يوم الدين.

قوله تعالى : **"اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ"**(106).

قوله تعالى : **"وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ"**(107).

وارتباط هاتين الآيتين بالآيات قبلها واضح لا يحتاج إلى دليل ، لأن قوله الله لرسوله وخاتم أنبيائه **"اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ"** فيه معنى رضاء الله تعالى عما قام به رسولهع من صبر جميل وحلم كريم على دوام تحديهم وكثرة جدالهم له بالباطل ، فأمره سبحانه بترك تحديهم السخيف وجدالهم الضعيف ، واتباع ما أوحي إليه من ربه الذى **"لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ"** رغم قلة عقل كافة المشركين ، وشدة تعصب جميع الكافرين ، وخسة ودناءة كل الجاحدين بوحدانية الله رب العالمين.

قوله تعالى **"وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ"** أي واجتنبهم بعد أن بلغتهم فكذبوك ، وانذرتهم فأذوك فهم نجس قلبا ، وقالبا ، وعقولهم من خيال ونفوسهم من وبال ، لا يقبلون من أحد هداية ، ويرضون سبيل الغواية ، فهم فى غيهم سادرون ، وعلى شركهم مصرون **"وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا"** أي ولو أراد الله هدايتهم للإيمان به وتوحديه ، لبدل نجاستهم طهرا ، وظلمة نفوسهم نورا ، فما ضلوا عن الطريق المستقيم ، وما أشركوا بالله العلى العظيم ، ولكن الله يحب المطهرين ولا يحب الظالمين ، ويميز الطيبين المصلحين من الخبيثين المفسدين ، **"أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ"**([1]).

قوله تعالى **"وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا"** أي وأعلم يا محمد أننا لم نجعلك قيما عليهم فتحفظهم من الشرك والخسران ، ولم نملكك رقابهم فترغمهم على الإيمان ، وإنما أرسلناك إليهم برسالة من ربهم ، لتنذرهم وتقيم الحجة عليهم **"وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ"** أي ليس عليك هداهم ، لأنك لست عليهم بولى ولا ويكل ، وإنما أنت بشير ونذير ، أسأل الله تعالى دوام الرضى وحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة.

قوله تعالى : **"وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"**(108).

سبب نزول هذه الآية الكرمية ما رواه عبد الرازق عن معمر عن قتادة أنه قال : كان المسلمون يسبون أوثان الكفار وأصنامهم التى يصنعونها بأيديهم ، ثم يعبدونها من دون الله تعالى ، فيقوم الكفار بالرد عليهم ويسبوا الله جهلا منهم بقدره سبحانه ، فأنزل الله قوله تعالى **"وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ"** أي ولا تسبوا أيها المسلمون أصنام الكفار التى يقدسوها ويعبدوها **"فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ"** أي عدوانا وظلما وجهلا **"كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ"** أي أن من سنتنا أن نزين لكل أمة ما يعلمونه وفق ما يعتقدون صوابه ، بعد أن بينا لهم الحق من الباطل على السنة رسلنا والصالحين من عبادنا ، وجعلنا الصواب من الخطأ والحلال من الحرام والنافع من الضار أوضح وأظهر من أن يخفى عن إدراك أقل الدواب عقلا **"ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"** فى حياتهم الدنيوية ، ويحاسبهم على شركهم بالله تعالى أصناما يصنعوها بأيديهم ، ويعاقب الذين أتخذوا من خلقه آلهه لهم يعدلون بها ربهم وخالقهم ، وسيجدون يوم القيامة كل عمل عملوه ، وكل قول قولوه ، وكل سبيل سلكوه

([1]) سورة الملك آية : 14.

، بل وكل أخطاءهم وأوزارهم حاضرة تشهد على كفرهم بربهم وجحدهم نعمة عليهم ، فيقرون على أنفسهم يوم القيامة أنهم كانوا كافرين ، ويندمون أشد الندم فى يوم لا ينفع فيه ندم.

وفى هذه الآية بعض الإشارات الذوقية ، التى تبين الأخلاق المحمدية ، وتعلم الناس الآداب الإسلامية ، فقد نهى الله عباده المؤمنين به وبرسله وكتبه وملائكته عن السب حتى ولو كان لشئ يستحقه ، لأن السب صفعة مذمومة يبغضها الله تعالى ، كما أن فى هذا النهي رفعة لقدر المؤمنين بالله وطهارة لقوبهم من أن تشغل بالدفاع عن الله سبحانه وهو القوى القادر الذى لا يحتاج لمن يدافع عنه ، لأنه جل شأنه لا يضره كفر الكافرين ، وشرك المشركين ، وجحد الجاحدين ، ولو أجمع عليه كل الناس أجمعين ، وكذلك لا تنفعه فى شئ طاعة الطائعين ، وذكر الذاكرين ، وتسبيح المسبحين ، حتى ولو كانت من كافة المخلوقين ، وإنما هى لشغل أنفاس المؤمن بالله فى الحياة الدنيا بما ينجيه من عذاب الله فى الآخرة يوم لا ينفع الإنسان مال ولا بنون إلا من أتي الله بقلب سليم ، سليم من الشرك بكل درجاته ، عامر بخلق الإسلام وآدابه ، أسأل الله أن يجملني وأخواني المؤمنين ، بآداب وخلق النبيين والمرسلين ، أنه قريب مجيب الدعاء.

وكذلك أنطوت الآيتين على إشارة تبين للدارسين ، سر تزين الله تعالى لكل أمة ما يعملون ، سواء كان عملهم خير وإيمان ورشاد أم شر وكفر وفساد ، وذلك لكى تتجلى أسماء الله وصفاته فى كل آياته وجميع مخلوقاته ، فأبرز الأرض أول ما أبرز فى يومين "**وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**"[1] أي بلا خوف ولا عصيان ، "**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**"[2] بمعنى أن الله تعالى جعل كل دواب الأرض راكعة خاضعة لا تملك علوا ولا استكبارا ، وجعل الملائكة يفعلون ما يؤمرون خوفا من ربهم من فوقهم ولا يملكون عصيانا ن ولذلك أوجد خلقا آخر من الجن عصاة كافرين هن الشياطين ، سر قوله تعالى على لسان الخليل إبراهيم "**يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا**"[3] وقوله سبحانه "**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا**"[4] وبهذا يكون الله تعالى قد أوجد فى ملكه الطائعون عن قبول ، وأوجد الذين يفعلون ما يؤمرون وهم خائفون ، وأوجد العصاة الكافرين ، ولم يبق إلا إيجاد أهل الاختيار الذين يحملون إمكانيات الفعل أو الامتناع عنه ، ويتمتعون بقدرهم على الطاعة أو العصيان ، ولهم عقول بها يختارون بين الكفر والإيمان ، فأوجد الله سبحانه آدم عليه السلام وجعله خليفة فى الأرض وسخر له " **مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ**"[5] وزين له ما يختاره فإن اختار الإيمان زينه له سر قوله تعالى "**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**"[6] وأن اختار عدم الإيمان زين له عمله سر قوله "**إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ**"[7] وكذلك خلق الله الإنسان وجميع

([1]) سورة فصلة آية : 10 – 11.
(2) سورة النحل آية : 49 – 50.
([3]) سورة مريم آية : 44.
(4) سورة البقرة آية : 102.
(5) سورة الجاثية آية : 13.
(6) سورة الحجرات آية : 7.
(7) سورة النمل آية : 4.

فيه كل مافى الوجود من ماديات ، وميزه عن سائر المخلوقات بما أودعه فيه من معنويات . وأهله لحمل الأمانة بعد أن وهبه القدرة على التمييز بين الحق والباطل ، ثم بعث له النبيين مبشرين ومنذرين وختمهم برسوله الأمين وأمره أن يقول للناس أجمعين **"وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ"**[1] نحمده ونشكره على أن جعلنا مؤمنين ، ونسأله من فضله حسن الخاتمة فى الدنيا ويوم الدين.

قوله تعالى : **"وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ"**(109).

ولقد نجد سبب نزول هذه الآية فيما رواه ابن جرير عن محمد ابن كعب القرظي أنه قال "كلم رسول الله قريشا يدعوهم إلى الإيمان بالله واليوم الأخر ، فقالوا أنك أخبرتنا عن موسى وعصاه التى كان يفعل بها المعجزات ، وأن عيسى كان يبرئ الأبرص والأكمه ويحيى الموتى ، وأن ناقة صالح كانت آية لثمود ، فأتنا بآية نصدقك فيما تدع إليه" ، فقال لهم رسول الله "أي شئ تحبون أن آتيكم به "قالوا تجعل جبل الصفا ذهبا ، قال "أن فعلت تصدقوني" قالوا نعم **"وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا** "ولحرص رسول الله على هدايتهم إلى الإيمان بالحق ، دعا ربه أن يحقق لهم طلبهم ، فجاءه جبريل وقال له "أن شئت أصبح الجبل ذهبا ، فإن لم يصدقوا مثل الذين سبقوا أهلكهم الله أو عذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة ، وأن شئت فاتركهم حتى يؤمن من قدر الله له الإيمان عن اختيار وإقتناع ، ويتوب إلى الحق من قدره الله له التوبة عن محبة ورضى و **"قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ"** أن قال لهم أنما المعجزات وخوارق العادات أمور خاضعة لمراد الله تعالى ينزلها على من يشاء وكما يشاء **"وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ"** أي وما يدركم أن أهل الكفر إذا جاءت الآية يؤمنون بها ، وأن السوابق اثبتت أن أهل الكفر لم يؤمنوا بالمعجزات لما أتتهم ، بل وبعض ضعاف الإيمان فتنوا بها وضلوا ، والدليل قائم بينكم فى معجزة القرآن التى يتحداكم الرسول أن تأتوا بمثل أقصر سورة من سوره ، رغم أن لغته هى لغتكم وأنتم أربابها ، ومع ذلك لم تؤمنوا به رغم وضوح عجزكم عن الاتيان بمثله ولو فى آية من آياته.

قوله تعالى : **"وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ"**(110).

أي إلا يعلم هؤلاء الكفار أن قلوبهم وأفئدتهم وأبصارهم بين أيدينا نقبلها كيف نشاء ن ونحولها إلى أى اتجاه كما نريد ، فنصرفهم عن الهداية والإيمان فلا يهتدون ولا يؤمنون مهما كانت الآيات والمعجزات ، ونعمي أبصارهم عن شهود تجليات الاسماء والصفات فى شتى المجالات فلا يبصرون **"وَنُقَلِّبُ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ"** أي وكما لم يؤمنوا به أول المر سيظلون على كفرهم وتكذيبهم مهما آتيناهم بالمعجزات وجئناهم بالآيات لسابقة السوء التى ستلازمهم **"وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ"** أي ونتركهم فى طغيانهم الذى هو من طبيعتهم التى طبعوا عليها وعمئهم الذى يلازم كل الطغاة المتكبرين ، فدعهم فى ضلالهم وعدوانهم يترددون ويتحيرون فى كل أمورهم.

وفى هذه الآية الرحيمة إشارة ذوقية تومي إلى مدى رحمة الله تعالى بالأمة المحمدية ، حيث لم يقدر سبحانه تحويل جبل الصفا والمروة إلى ذهب ، وإلا لتكالب على هذه المنطقة كل من هب ودب ، وغلب المنافقون المؤمنون على أمرهم ، وأدعى غلاة الكافرين الإيمان والإيمان منهم براء ، كما ليس

([1]) سورة الكهف آية : 29.

ببعيد أن يفتن بهذا المعدن ضعفاء الإيمان فيمكثون بجوار الصفا والمروة يتزاحمون عليه ، ويظلون يتقاتلون عليه ولا يجاهدون فى سبيل الله أحد ، وبالتالي لا ينشر الإسلام فى أي بلد.

وهناك طى هذه الآية إشارة أخرى تبين أن المعجزات على نوعين مختلفين ، إحداهما معجزة حسية وقتية لا يتعد تأثيرها من شاهدوها – مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام – فيؤمن بها البعض ويكفر بها البعض الآخر ، ثم تصير بعدها رواية تورى وحديث يتواتر ، للسامعين بها الحق كل الحق فى أن يصدقوها أو يكذبوها ن والمعجزة الأخرى معنوية دائمة الحجة والبرهان ، ساطعة البلاغة والبيان ، كمعجزة القرآن ، الذى سيظل نورا لأهل الإيمان فى كل وقت وآن ، يشهد على صدق نبوة الختام محمد الأمين عليه الصلاة والسلام.

* * *

تم بحمد الله وتوفيقه الجزء السابع

ويليه بإذن الله الجزء الثامن.